



الآداب ومكارم الأخلاق



الأمانة (١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اشترى رجل من رجل عقارا له، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مني، إنما اشتريت منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب، وقال الذي باع الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، قال: فتحاكما إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية، ولينفقا على أنفسهما منه، وليتصدقا»^(٢).

أيها الناس: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ

(١) محمد المختار الشنقيطي.

(٢) رواه البخاري (٣٢٨٥)، ومسلم (١٧٢١).



وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَةِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٢-٧٣﴾ [الأحزاب: ٧٢-٧٣]. ما مِنَّا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَلْبُهُ مُشْرَبٌ إِلَى الْفُوزِ وَالْفَلَاحِ، وَإِذَا أَرَدْنَا الْوَصُولَ إِلَى أَمِيرِ طَرِيقِ الْفَلَاحِ وَأَعْظَمِهَا وَأَوْسَعِهَا نَفْعًا - فَإِنَّهُ طَرِيقُ الْأَمَانَةِ الَّتِي عَرْضُهَا اللَّهُ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبِينْ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَسْفِقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ.. إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا. إِنَّهَا الْأَمَانَةُ الْعَظْمَى - عِبَادَ اللَّهِ - نَعَمْ الْأَمَانَةُ بِمَفْهُومِهَا الْوَاسِعِ الَّذِي أَرَادَهَا اللَّهُ لَهَا وَأَرَادَهَا رَسُولُهُ ﷺ وَهِيَ ضِدُّ الْخِيَانَةِ بِمَفْهُومِهَا الْوَاسِعِ الَّذِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا وَأَخْبَرَ أَنَّهَا لَا يَجِبُ أَهْلِهَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَآئِسِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]؛ لتكون الأمانة في كل ما افترض الله على العباد في الدين والأعراض والأموال والعقول والأنفس والمعارف والعلوم والولاية والحكم والشهادة والقضاء والأسرار والحواس الخمس ونحو ذلك.. فهي - كما قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ -: (تَعْمُ جَمِيعَ وَظَائِفِ الدِّينِ).

ثم إنه لا يمكن أن يكون الأمين أمينًا إلا إذا كان عَاقِفًا عَمَّا لَيْسَ لَهُ بِهِ حَقٌّ، مُؤَدِّيًا مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ حَقٍّ لغيره، حَرِيصًا عَلَى حِفْظِ مَا اسْتَوْثَمَ عَلَيْهِ غَيْرَ مَفْرُطٍ بِهِ؛ فَإِنْ مِنْ اجْتَمَعَتْ فِيهِ هَذِهِ الرِّكَائِزُ فَهُوَ فِي دَائِرَةِ الْمَفْلَحِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَنْهُمْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].. إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

إِنَّهَا الْأَمَانَاتُ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَى الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَأُمِرْنَا بِحِفْظِهَا وَرِعَايَتِهَا وَالْقِيَامَ بِهَا وَأَدَائِهَا إِلَى أَصْحَابِهَا، فَإِنَّ الْقِيَامَ بِهَا وَالْعَنَاءَ بِهَا شِيمَةُ مَنْ شِيمَ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الْأَخْيَارِ الصَّالِحِينَ، قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمَبِينِ وَهُوَ يُثْنِي عَلَى عِبَادِهِ الْمَفْلَحِينَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

الأمانة عباد الله التي عظم الله أمرها حتى أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يُوْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِجَهَنَّمَ وَالنَّاسُ فِي عَرَصَاتِهَا أَيْ فِي عَرَصَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَفَاةَ عَرَاةٍ غَرَلًا فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ يُوْتَى بِجَهَنَّمَ تَقَادٍ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ، فَلَا يَبْقَى مَلِكٌ مَقْرَبٌ وَلَا نَبِيٌّ مَرْسَلٌ إِلَّا جَثَا عَلَى رِكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَضْرِبُ الصَّرَاطَ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَيُنَادِي اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِأَنْ يَسِيرَ الْعِبَادُ عَلَيْهِ، وَعِنْدَهَا تَكُونُ دَعْوَةُ الْأَنْبِيَاءِ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. فَإِذَا ضُرِبَ الصَّرَاطُ عَلَى



متن جهنم قال ﷺ كما في الصحيح: «قامت الأمانة والرحم على جنبتي الصراط»^(١) أما الأمانة فإنها تُكَبِّب في نار جهنم كل من خانها، وأما الرحم فإنها تنزل قدم من قطعها وظلمها.

إنها الأمانة عباد الله التي أخبر النبي ﷺ أن أداءها إحسان، والقيام بها إيمان، وأن تضييعها كذب وطغيان، والاستهتار بها وخيانتها نفاق وعصيان. قال ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له»^(٢). فمن حُرِم الأمانة فقد حُرِم كمال الإيمان، ومن تلبس بالخيانة فبُئِسَ والله البطانة؛ فإن فيه خصلة من خصال المنافقين قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أُوْتِمَن خان»^(٣).

أيها الناس.. الخيانة دليل على سوء البطانة، دليل على ضعف الإيمان بالله جَلَّ جَلَالُهُ، فالإنسان إذا كمل إيمانه كملت أمانته، وأداها على أتم الوجوه، وخاف من الله جَلَّ جَلَالُهُ، من تبعته ومسئوليتها. إذا ضاعت الأمانة سفكت الدماء، وانتهكت الأعراض، وأكلت أموال المسلمين بالباطل. إذا ضاعت الأمانة وتفشت الخيانة فباطن الأرض خير من ظهرها. إذا ضاعت الأمانة ضاعت الحياة الطيبة السعيدة، وأصبح الإنسان لا يأمن حتى على نفسه التي بين جنبيه.

وأعظم ما تكون به خيانة الأمانات إذا كانت خيانة لله والرسول، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأَنْفَال: ٢٧]. نزلت في أبي لبابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي وقف والنبي ﷺ محاصراً لبني قريظة فأشار إليهم أنهم يُقتلون. فبهذه الإشارة عَظُم ذنبه، وأنزل الله فيه من فوق سبع سموات قرآناً يُتلى فبقي في المسجد، وحبس نفسه يبكي حتى أخبره النبي ﷺ بتوبة الله عليه.

(١) رواه مسلم (١٩٥).

(٢) صحيح الجامع (٧١٧٩).

(٣) رواه البخاري (٦٠٩٥) ومسلم (٥٩).



أعظم ما تكون الخيانة إذا كانت لله والرسول بالكذب على الله والكذب على رسول الله ﷺ. الكذب على الله بتحليل الحرام، وتحريم الحلال والفتوى في الشريعة والأحكام دون حُجة من الله جَلَّ جَلَالُهُ.

أعظم ما تكون الخيانة إذا كانت بالكذب على رسول الله ﷺ والتحديث بالأحاديث الباطلة المكذوبة على النبي ﷺ.

أعظم ما تكون الخيانة إذا كان فيها ظلم للقربات كالأبناء والبنات وتضييع حقوقهم، والاستهتار في واجباتهم، فذلك كله خيانة للأمانة، تركُ الأبناء والبنات والحبلى على الغارب يسهرون ويعبثون ويضيعون أوقاتهم ويتخبطون في اختيار صداقاتهم وقنواتهم دون حسيب ولا رقيب خيانة للأمانة. ترك تربيتهم وتوجيههم وتعليمهم وإرشادهم خيانة للأمانة، فإن الله سائل كل راع عما استرعاه هل حفظ ذلك أم ضيع، وإن الله سيوفقك بين يديه ويسألك عن أمانتهم إذا تركتهم نائمين والصلاة ينادى بها منادي الله فقد ضيعت الأمانة، إن لم توقظهم، وليتعلقن بك الصغيرة والكبيرة بين يدي الله، إذا كان الصغير ممن يؤمر بالصلاة فيقول: يا رب سل أبي رأني نائماً ولم يوقظني للصلاة ولم يرغبني فيها ولم يشجعني عليها.

تضييع الأمانات عباد الله خسارة وحسرة يوم القيامة وندامة.

أعظم ما تكون الخيانات عباد الله إذا كان فيها هتك أعراض المسلمين وكشف عوراتهم، وتتبع عيوبهم وعثراتهم ونشرها بين الناس، وأشد ما يكون ذلك بين الجيران والقربات، فذلك ظلم وخيانة وقطيعة رحم، ولنأخذ مثلاً على ذلك ما يحدث بين الأقارب، وكمثال: الزوجان؛ فإنه يكون بينهما أسرار وخبايا، ويرى بعضهم من بعض ما لا يراه غيرهما من العيوب والخفايا، نظراً لطول العشرة، ورفع ستار الحشمة والاحتجاب بينهما، الزوج إذا أخذ امرأة فإنه قد يطلع على شيء من عيوبها وعيوب أهلها وقرباتها، وكذلك الزوجة تطلع على شيء من عيوب زوجها وعيوب أقربائه، إفشاء هذه الأسرار وكشف هذه الأسرار خيانة للمؤمنين والمؤمنات، واعتداء على حدود الله جَلَّ جَلَالُهُ خاصة إذا وقعت الخصومات والنزاعات، بأن يذهب الزوج إلى قرابته يُحدثهم بما يكون من زوجته، ولربما حدثهم عن أدق الأمور وأخفاها، وكذلك الزوجة قد لا تخاف الله جَلَّ جَلَالُهُ فبمجرد أن تكون الخطيئة من



زوجها تذهب إلى أهلها وقرابتها؛ لكي تخون الله في أماناتها فتتهك ما اطلعت عليه من العورات وتكشف السوءات دون خوف من الله جَلَّالُهُ، أو مراعاة لسابق العشرة، أو استبقاء شيء من المودة والمحبة، والله تعالى يقول للزوج والزوجة: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

اختلف رجل مع امرأته وقد رأى منها ما يكره، فلما سُئِلَ عنها قال: (ما كنت لأهتك ستر امرأتي. ثم ترجَّح له أن يطلقها بعد أن تأكد له صعوبة الاستمرار معها، فلما طلقها سألوه: حدِّثنا عن عيوبها، فإنها الآن لم تعد امرأتك؟ فقال: ليس من حقي أن أكشف عيوب امرأة لم تعد في عصمتي!). إنها أمانة الكلمة، لله درّه امرؤ، ولله درُّها مروءة، هذه هي السجايا الرفيعة، والآداب النبيلة، والأخلاق السامية.

عباد الله: ومن أعظم ما تكون الخيانة إذا كانت بالكذب والزور والشهادات، قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور. فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»^(١).

كررها؛ لأن شهادة الزور من أعظم الخيانات بها تسفك الدماء البريئة، وبها تُنتهك أعراض المسلمين بدون حق، وبها تؤكل أموالهم بالباطل، فشاهد الزور خان الله ورسوله وعباده المؤمنين خان القاضي حينما اتَّمَنَه أن يكون صادقاً في شهادته فكان من الكاذبين، وخان من شهد له؛ لأنه أدخل عليه المال الحرام، وأدخل عليه السحت والآثام، وخان المظلوم الذي شهد عليه حينما أضره وآذاه وتسبب في البلية التي كانت بسبب شهادته بالعبث.

ومن أعظم ما تكون الخيانات إذا كانت بالعبث بأمور القضاء والحكم، أو أوراق المعاملات والوثائق والمستندات، ونحوها من الشهادات، إذا أُوْتِمَن الإنسان على السجلات ونحوها، فقدَّم من حقِّه التأخير، وأخر من حقه التقديم، عملاً بمبدأ الوساطات

(١) رواه البخاري (٥٩٧٦) ومسلم (٨٧).



والمحسوبيات والرشوات، تلك أمانة على من وليها أن يتقي الله فيها وأن يؤديها كما أخذها، دون زيادة أو نقص فيها بدون حق، عليك أيها المسؤول أو الموظف أن تتقي الله جَلَّ جَلَالُهُ في كل ما يوضع بين يديك من السجلات والوثائق والشهادات، تخاف الله جَلَّ جَلَالُهُ وتجعله نصب عينيك دون محابة للقريب أو الصاحب، إن فعلت ذلك كنت من الأمناء، وإن غيّرت أو بدلت وقعت في الظلم وخُنت الأمانة التي ستُسأل عنها بين يدي الله تعالى. ولا تنس وصية المصطفى ﷺ لأبي ذر حين سأله أن يوليه ولاية، فضرب على منكبه وقال: «يا أبا ذر! إنك رجل ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها» رواه مسلم.

ومن هذا الحديث -عباد الله- نستطيع أن نبعث رسالةً إلى كل من تطلعت نفسه واشترأت إلى أن تتولى مصلحة من مصالح المسلمين دون استحضار القدرة عليها والشعور بقيمتها، والتأمل الصادق في عظم المسؤولية وخطورة التبعة فيها.. والقوة في هذا الحديث تعني حسن الإدارة الموصوفة بالحزم والحكمة والإجادة؛ إذ لا أحد يشك في إيمان أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتقواه.. ومع ذلك وصفه النبي ﷺ بأنه ضعيف.. والضعف خلل في تحمل المسؤولية؛ ولذا فإننا نشاهد في كل عصرٍ ومصرٍ من تُوكل إليه المسؤولية وهو طيبٌ في نفسه ومؤمنٌ بربه وحسنٌ في عبادته، ولكنه لا يفعل خيراً في مسؤوليته ولا يحجز شراً.. هكذا سهلاً، وترى من تحت مسؤوليته فوضى لا سراً لهم..

فمثل هذا لم يدرك أن وظيفته عقدٌ بينه وبين ولي الأمر أو بين مؤسسة للقيام بعمل محدودٍ مقابل عوضٍ مخصوص، ومن فرط في أداء هذا الواجب فهو ممن لم ينفعه إيمانه في أداء واجبه؛ إذ كيف يرضى المؤمن بالغش أو الخيانة أو التقصير فيما استأمنه عليه ولي الأمر من مصالح العباد وحاجاتهم؛ لأن النبي ﷺ يقول: «لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ له، ولا دينَ لِمَنْ لا عهدَ له»^(١).

ولذا فإن الوظائف -كبيرها وصغيرها- ليست وسيلةً للترفع، أو طريقاً للترفع، إنما هي أمانة في بناء كيان دولة، وضمان مجتمع، وحاضر أمة ومستقبلها؛ فمن وُلّي من أمر المسلمين

(١) صحيح الجامع (٧١٧٩).



عملاً فضيلاً فيه فهو خائن. فهو خائن. فهو خائن للأمانة، و ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، ومن هنا كان المؤمنون الصالحون والعقلاء الناصحون يفرّون من هذه الولايات والمناصب، لأنها تبعات ومصائب، على كل من تطلّع إليها ثم لم يؤد حق الله وحق العباد فيها.

فالحذر الحذر -عباد الله- من انقلاب المفاهيم وعدم التمييز بين الخائن والأمين؛ فما زمننا هذا إلا ميداناً ترامت فيه الأهواء، وقُلبت فيه الحقائق؛ فسُتر على الخائن، وضُيق على الأمين؛ بسبب مفاهيم مغلوطة، ومقدمات مضللة، ولقد صدق رسول الله ﷺ إذ قال: «والذي نفسي بيده.. لا تقوم الساعة حتى يُخَوَّنُ الأمين ويؤتمن الخائن...»^(١).

عباد الله: الأمانات حقوق وواجبات ومسئوليات وتبعات شملت الصغير والكبير والجليل والحقير ولن يضيع فيها مثال حبة من خردل أو قطمير فاتقوا الله يا عباد الله، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

اللهم وفقنا لأداء الأمانات وحفظ الحدود والمحارم برحمتك يا أرحم الراحمين.
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه البخاري وسلم.

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وهو أرحم الراحمين،
وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله المصطفى الأمين، صلى الله عليه وعلى آل بيته الطيبين
الطاهرين، وعلى جميع أصحابه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ.

عباد الله: الأمانة مفهوم شامل، وأدب جامع، يندرج تحته سائر الأقوال والأفعال،
والعبادات والمعاملات، فالجلس مؤتمن، قال ﷺ: «إذا حدث الإنسان حديثًا والمحدث
يلتفت حوله، فهو أمانة»^(١).

والمستشار مؤتمن، قال ﷺ: «المستشار مؤتمن»^(٢).

زعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من استشاره أخوه المسلم فأشار عليه
بأمر يعلم أن الرشد في غيره، فقد خان» وفي رواية: «إذا حدث الرجل بالحديث ثم
التفت فهي أمانة»^(٣).

وفي كل شيء من عبادات الإنسان وتعاملاته أمانة مسؤول عنها عند الله يوم القيامة، فعن
زاedan عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا
الأمانة، يؤتى بصاحب الأمانة - وإن قتل في سبيل الله - فيقال له: أد أمانتك، فيقول: أي
رب! كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول: اذهبوا به إلى الهاوية، فيذهب به إليها، وتمثل له أمانته،
فيجدها كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها فيعرفها، فيهوي في أثرها حتى ينتهي إلى قعرها،
فيأخذها فيحملها على عاتقه، ثم يصعد بها في نار جهنم، حتى إذا رأى أنه قد خرج بها، زلت
فهوت، فهو في أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة،
والكيل أمانة، وأشد ذلك الودائع»، قال زاedan: فلقيت البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقلت: ألا

(١) صحيح الجامع: (٤٨٦).

(٢) صحيح الجامع: (٦٧٠٠).

(٣) صحيح الجامع: (٦٠٦٨).



تسمع ما يقول أخوك عبد الله؟ ، فقال: صدق، أما سمعت الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] (١).

ولهذا لما خرج الصادق الأمين ﷺ مهاجراً إلى المدينة، وكان الناس يودعون عنده الودائع، أقام علي بن أبي طالب في مكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، فلما فرغ منها لحق برسول الله ﷺ.

اعلموا -عباد الله- أنه ما اتصف أحد بصفة الأمانة إلا كان الفلاح حاديه والسكينة والطمأنينة مطيته، ولم يتفق العقلاء - قديماً وحديثاً.. رجالاً ونساء.. كباراً وصغاراً- على استحسان حَلَةٍ كخلة الأمانة يتحل بها المرء المسلم؛ ألا ترون إلى ابنة شعيب عَلَيْهِ السَّلَام حينما خاطبت أبيها عن موسى عَلَيْهِ السَّلَام قائلة: ﴿يَتَأَبَتِ اسْتَعِجْرُهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مَنِ اسْتَعَجَرْتَ الْفَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. ومن هذا المنطلق فإن صفة الأمانة صفة مطلقة لا تخضع للمقابلة بالمثل حسب تعامل الناس معك؛ يقول ﷺ: «أَدِّ الْأَمَانََةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخْنَ مِنْ خَانَكَ» (٢).

وإن من أعظم ما تكون عليه الأمانة مع الجار، وأشد الخيانة: خيانة الجار، فخيانة الجار يا عباد الله عظيمة، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه: سألت النبي ﷺ: «أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك» (٣).

الزنى والعياذ بالله من أعظم الخيانات، ومن الكبائر المهلكات والذنوب الموبقات، لكنه بحليلة الجار من أعظم الجرائم وأشدّها عند الله جَلَّ جَلَالُهُ. تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴿وَمَنْ يَعْصِ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. اشتد غضب الله على من هتك ستر جاره، فالجار له حقوق على جاره تعلم أخباره، وتعرف مدخله ومخرجه، وصدقه وكذبه، وتطلع على ما يكون منه من الأمور، فاتق الله جَلَّ جَلَالُهُ.

(١) صحيح الترغيب والترهيب: (١٧٦٣، ٢٩٩٥).

(٢) صحيح الجامع (٢٤٠).

(٣) رواه البخاري (٤٤٧٧) ومسلم (٨٦).



واعلم أخي الكريم أن كل شيء رأته عينك أو سمعته أذنك من عورات المسلمين فإنه أمانة في عنقك، فاتق الله جَلَّ جَلَالُهُ، ومن ستر مسلماً ستره الله، ومن تتبع عورة مسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه في الدنيا والآخرة.

إن للأمانة من الدقة والأهمية ما يوضحها دعاء النبي ﷺ مستعيذاً ربه قائلاً: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئس البطانة»^(١).

وما حُمِّلَ الإنسانُ مثلَ أمانةٍ أشقَّ عليه حينَ يحملُها حملاً
فإن أنتِ حُمِلتِ الأمانةَ فاصطبرِ عليها فقد حُمِلتِ من أمرها ثِقلاً

إذا رأيت الرجل يحفظ الأمانة، ورأيتَه يؤديها إلى أصحابها على أتم الوجوه وأكملها فاعلم أن وراء ذلك قلباً يخاف الله جَلَّ جَلَالُهُ ويتقيه، وأن هذا العبد يعلمُ عِلْمَ اليقين أن الله محاسبُهُ وسائلُهُ ومجازيه.

ألا وصلوا وسلموا على خير الأنبياء وإمام الأتقياء فقد أمركم الله بذلك...



(١) صحيح النسائي (٣/١١١٢).



الإيثَارُ خُلِقَ الْكَرَامُ^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي جعل الإيثار، صفةً من صفات المتقين الأبرار، وسمَةً من سمات المؤمنين الأخيار، أحمده سبحانه بما هو أهل من الحمد، وأثني عليه هو أهل الثناء والمجد، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، حث على الإيثار والبذل، ونهى عن الأثرة والبخل، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبداً لله ورسوله، خير من أثر على نفسه وتصدق، وبسط يديه الشريفتين وأنفق، ﷺ وعلى آله وصحبه الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيا عباد الله: اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ بَعْضُ نِسَائِهِ فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيَّ أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ.

فَقَالَ ﷺ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لِمَرْأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا، إِلَّا قُوتٌ صَبِيَانِي، قَالَ: فَعَلَّلِيهِمْ شَيْءًا، فَإِذَا دَخَلَ ضَمِينُنَا فَأَطْفِئِي السَّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السَّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ. قَالَ: فَفَعَلُوا، وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ»^(٢).

(١) ياسر الطريقي.

(٢) رواه البخاري (٤٨٨٩) ومسلم (٢٠٥٤).



أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: البذلُّ والسَّخَاءُ، والجودُ والعطاءُ أخلاقٌ فاضلة، وصفاتٌ عظيمة، وخصالٌ حميدة، ما تحلى بها رجلٌ إلا أصبح محلَّ المدحِ والثناءِ عندَ جميعِ العقلاء.

وفي الأخلاقِ صِفَةُ أَرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ مَرْتَبَةً، وَأَسْمَى مَنَزَلَةً، وَأَعْلَى مَكَانَةً، وَهِيَ أَنَّ يُؤَثِّرَ غَيْرُهُ بِالشَّيْءِ مَعَ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، صِفَةُ اتَّصَفَ بِهَا الْمُتَّقُونَ الْأَبْرَارُ، وَأَفْلَحَ بِهَا الصَّحْبُ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَتْنَى عَلَيْهِمُ اللَّهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

صاحبُ الإيثَارِ موعودٌ بخيرٍ مما أثارَ به غيره: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

يُحَقِّقُ الْمُؤَثِّرُ عَلَى نَفْسِهِ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ بِصَدَقِ مَحَبَّتِهِ لغيرِهِ مَا يُجِبُّهُ لِنَفْسِهِ، ففِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(١).
بِالإِيثَارِ تَتَأَلَّفُ الْقُلُوبُ، وَتَقْوَى أَوَاصِرُ الْأُخُوَّةِ، وَتَعْظُمُ الْمَحَبَّةُ، وَتَظْهَرُ الرَّحْمَةُ، وَيَسُودُ الْإِلْفُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ، وَتَخْفُتُ نَارُ التَّنَازُعِ، وَتَزُولُ الشُّحْنَاءُ.

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (الدينُ كُلُّهُ والمعاملةُ فِي الإِيثَارِ).

وَالِإِيثَارُ - عِبَادَةُ اللَّهِ - أَنْوَاعٌ وَصُورٌ، مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْخَالِقِ، وَمِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْخَلْقِ، وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِهِ وَصُورِهِ: إِِيثَارُ رِضَا الْخَالِقِ عَلَى رِضَا الْمَخْلُوقِ كَاتِنًا مَنْ كَانَ، وَفِي التِّرْمِذِيِّ مَرْفُوعًا: «مَنْ التَّمَسَّ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مَوْثَنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ»^(٢).

فِيظْهَرُ إِِيثَارُ رِضَى اللَّهِ وَتَجَرُّدُ النَّفْسِ عَنْ هَوَاهَا، وَاتِّبَاعُهَا الْحَقَّ وَلَوْ خَالَفَ مُتَبَاغَاهَا مِنْ أَعْظَمِ صُورِ الْإِِيثَارِ وَأَعْلَاهَا، وَأَعْظَمُهُ إِِيثَارُ الْحَقِّ وَلَوْ كَانَ فِيهِ هَلَاكُ النَّفْسِ، كَمَا فَعَلَ السَّحَرَةُ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُوسَى فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ

(١) رواه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥).

(٢) صحيح الترمذي (٢٤١٤).



مَا أَنْتَ قَاضٍ إِلَّا مَا نَقَضَى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿طه: ٧٢﴾. وَبَيْنَا ﷺ إِمَامُ الْمُؤَثِّرِينَ، الَّذِي أَثَرُ رَضَى اللَّهُ عَلَى رَضَى النَّاسِ، وَالَّذِي وَقَفَ أَمَامَ الْمُشْرِكِينَ رَافِضًا كُلَّ إِغْرَاءَتِهِمْ وَمَحَاوَلَاتِهِمْ لَصَرْفِهِ عَنِ دِينِ اللَّهِ وَدَعْوَةِ الْإِسْلَامِ، وَاللَّهُ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ، مَا تَرَكْتَهُ، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلَكَ دُونَهُ.

وَقَدْ رَبَّى أَصْحَابَهُ عَلَى الْإِيثَارِ، وَدَعَا إِلَيْهِ قَوْلًا وَعَمَلًا، فَأَصْبَحَ هَدْيًا نَبَوِيًّا يَتِمُّثَلُّهُ السَّلَفُ فِي حَيَاتِهِمْ، وَمَنْ تَأَمَّلَ الْأَحَادِيثَ وَالْآثَارَ وَجَدَ أَرْوَاعَ صُورِ الْإِيثَارِ.

جَاءَتْ امْرَأَةٌ بِبُرْدَةٍ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَسَجْتُ هَذِهِ بِيَدِي أَكْسُو كَهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ وَإِنَّهَا إِزَارُهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكْسَنِهَا، فَقَالَ: «نَعَمْ»، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَّأَهَا ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ، سَأَلْتَهَا إِيَّاهُ، لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِتَكُونَ كَفَنِي يَوْمَ أَمُوتُ. قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنُهُ^(١). إِنَّهُ كَرَمٌ بِالْغِ، وَإِيثَارٌ جَمٌّ مَعَ ضَيْقِ الْعَيْشِ، وَقِلَّةٌ ذَاتُ الْيَدِ.

وَلَقَدْ امْتَدَّحَ النَّبِيُّ ﷺ الْأَشْعَرِيِّينَ، وَهُمْ قَبِيلَةُ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا فِي الصَّحِيحِينَ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: «إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا [أَي: فَنِي زَادَهُمْ] فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عَنْدهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»^(٢).

وَمَا زَالَ فِي الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ مَنْ حَالُهُ كَحَالِ الْأَشْعَرِيِّينَ، يَتَقَاسَمُونَ الرِّغِيفَ وَالْمَأْوَى، يُمَثِّلُونَ الْجَسَدَ الْوَاحِدَ، وَيَضْرِبُونَ أَرْوَاعَ الْأَمْثَلَةِ فِي الْإِيثَارِ، لَا سِيَّما فِي أَوْقَاتِ الْأَزْمَاتِ، وَالْحُرُوبِ، وَالْكُورِثِ وَالْمِلْمَاتِ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَهُمْ الثَّبَاتَ.

أَقُولُ هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فَاسْتَغْفِرُوهُ؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

(١) رواه البخاري (٢٠٩٣).

(٢) رواه البخاري (٢٤٨٦) ومسلم (٢٥٠٠).

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشأنه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

أيها المؤمنون: إن إيثَارَ الْمُؤَثِّرِينَ، وَسَخَاءَ الصَّالِحِينَ، وَكَرَمَ الْمُتَّقِينَ، يَنْبَغِي أَنْ يُقَابَلَ بِنَفْسٍ مُتَعَفِّفَةٍ غَيْرِ مُسْتَشْرِفَةٍ، لَا أَنْ يُقَابَلَ بِالطَّمَعِ وَكَثْرَةِ التَّطَلُّعِ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، فَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ: «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدْجِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ؛ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(١).

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَابَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ -وهو من المهاجرين- إِيثَارَ أَخِيهِ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ -وهو من الأنصار- حِينَ آخَى بَيْنَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ مَالَهُ فَقَالَ: «أَقَاسِمُكَ مَالِي نِصْفَيْنِ، وَأَزْوَجُكَ»، فَكَانَ جَوَابُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنْ قَالَ لَهُ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، وَلَكِنْ دُلُونِي عَلَى الشُّوقِ». فَذَهَبَ وَاتَّجَرَ، حَتَّى أَثْرَى وَكَثُرَ مَالُهُ وَبَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِي تِجَارَتِهِ.

عباد الله: لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ الْحَنِيفُ حَاتًّا عَلَى أَحْسَنِ الْخُلُقِ وَأَجْمَلِ الصِّفَاتِ، وَأَنْبَلَ الْقِيَمِ وَأَفْضَلَ السَّمَاتِ، وَبَذَلَ كُلَّ مَا هُوَ مَذْمُومٌ مِنَ الطَّبَاعِ وَالْعَادَاتِ، وَمِنْ الصِّفَاتِ الَّتِي ذَمَّهَا الْإِسْلَامُ صِفَةً الْأَثَرَةِ، وَهِيَ تَعْنِي الْأَسْتِبْدَادَ وَحُبَّ التَّمَلُّكِ وَالْأَنَانِيَّةَ، وَهِيَ صَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الشُّحِّ وَالبُخْلِ، وَسَبَبٌ لِمَنْعِ مَا أَمَرَ اللَّهُ مِنَ الْإِنْفَاقِ وَالبَذْلِ، وَكَمَا أَنَّ الْإِيثَارَ خُلُقٌ مَحْمُودٌ، وَأَدَبٌ رَفِيعٌ، فَإِنَّ الْأَنَانِيَّةَ وَالأَثَرَةَ خُلُقٌ مَذْمُومٌ، وَإِنْ تَفَضَّلَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ دَائِمًا عَلَى غَيْرِهِ، بِحَيْثُ لَا يَهْدَفُ إِلَّا لِنَفْعِهِ الْخَاصِّ وَإِنْ كَانَ عَلَى حَسَابِ ضَرَرِ غَيْرِهِ، يُعَدُّ أَثَرَةً قَبِيحَةً،

(١) رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣).



وَأَنَانِيَّةٌ ذَمِيمَةٌ، حَذَّرَ مِنْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ -كَمَا فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ، وَغَيْرِهِ-: «إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ! فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ، أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخُلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا»^(١).

وَالشُّحُّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْخَيْرِ وَالْبِرِّ وَالْمَعْرُوفِ سِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ الْمُنَافِقِينَ، قَالَ تَعَالَى فِي مَعْرِضِ ذَمِّهِمْ: ﴿أَشْحَهَ عَلَيْكُمْ إِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْمَوْتُ سَلَفُواكُمْ بِاللَّسَنِ حَدَادٍ أَشْحَهَ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

وإن من الأنانية والأثرة ما يحصل بين المتنافسين في أمر من أمور الدنيا، فيطغى عليهم الحسد والحقد والمكر والكيد، بل والتعدي والظلم والكذب، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق ومردول الطباع التي تغذيها الأثرة والأنانية والشح، ولو وجد الإيثار لذهب ذلك كله، ولعاش الإنسان في سلام مع نفسه ومع من هم حوله، وصدق الله: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ومن أقبح الأنانية والأثرة: ما يرى من تبجح المترفين، وتبذير المسرفين، من الميسورين وأهل الثراء، الذين يتباهون بالترف والسرف فيما لا طائل منه، دون أدنى مراعاة لما أولاهم الله وابتلاهم به من النعم والستر والكفاية، ودون أن يلتفتوا إلى من أثقلتهم الديون، وتكالتبت عليهم الهموم، وتقطعت بهم السبل، من المحتاجين والمعوذين، فترى أحدهم ينفق النفقة الباهضة والمال العريض في الأمر التافه، فخراً وبطراً ورثاء الناس، ووالله لو صرفها في أوجه الخير والبر لأغنت فئاماً من الناس، ولملأت بطون عشرات أو مئات، وربما آلاف الجوعى ممن لا يجدون ما يأكلون.

فهل يتقي الله هؤلاء؟ إنه لم يطلب منهم الإيثار إلى الحد الذي قد يجرموا فيه أنفسهم مما يحتاجون، ولا أن يمنعوها من مُتَعِ الحلال التي فيها يرغبون، مع توسط، ودون سرف أو مخيلة، وإنما ليخففوا من نفقاتهم التي لا حاجة لها ولا نفع من ورائها، فليتقوا الله، ولا يوغلوا

(١) صحيح أبي داود (١٦٩٨).



في التبذير والإسراف، فذلك كفر بالنعمة مؤذُنٌ بزوالها، وقد قيل: ما شبع غنيٌّ وأُتخِم، إلا بجوعة فقير مُعْدِم.

والناس شَتَّى في الخلال وخيرُهم من كان ذا فضلٍ وذا إيثَارٍ

أَيُّهَا الْأَحِبَّة: ومن الكرم والإيثَار: الصدقة، والهدية، والقيامُ بِخِدْمَةِ الوالدين والأقربين والأَصْحَابِ، والمُشَارَكَةُ في خِدْمَةِ الْحَيِّ والمُجْتَمَعِ، والعَفْوُ عن الْأَخْطَاءِ، والسَّعْيُ في الإصلاح، والمساهمةُ في المعروف، وتقديمُ شيءٍ من المالِ للخير وتعليم القرآن والسنة والعلوم النافعة، ونُصْرَةُ المَظْلُومِينَ، وسَدُّ عَوَزِ الْمُحْتَاجِينَ، فتلك أَعْمَالٌ يَقُومُ بِهَا مَنْ اتَّصَفَ بالإيثَارِ وكرم النفس وعلو الهمة وشهامة الطبع، والمُسَارَعَةُ بالجودِ والمُبَادَرَةُ إِلَى الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ..

وإن الإيثَارُ -عبادَ الله- إنما يكون في أمورِ الدنيا وحُظُوظِ النفس، وأما القُرْبَاتُ والطاعات فلا إيثَارَ فيها، بل الصواب هو التنافس والمسارة والاستباق إليها.

اللهم وفقنا لما تحب وترضى، وخذ بنواصينا للبر والتقوى، واهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت.





النواضع (١)

الخطبة الأولى:

• إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شَرِّ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مِنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَيَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ التَّقْوَى.

عباد الله: التواضع خلقٌ حميدٌ، وخصلةٌ كريمةٌ ينال بها العبد بعد رضا الله رضا الناس عنه، فالمتواضع يحبه الناس ويألفونه ويطمئنون إليه، والتواضع حقيقته ترك التعالي والتكبر على عباد الله، والمسلم حقًا يجب إخوانه المسلمين، وينظر إليهم نظرة الاحترام والتقدير، وإن تفاوتت المنازل من غنى إلى فقر، أو ضعف أو علم أو غير ذلك، هو ينظر إليهم مهما كانت الفوارق في الجاه أو في المنزلة أو في المكانة الاجتماعية، كل هذه الأمور لا تُذهب التواضع عنه، بل تؤصل التواضع في نفسه.

أيها المسلم: والتواضع خلق كريم ينال به العبد محبة الله، ثم كسب القلوب إليه، وقد أمر الله بالتواضع في كتابه العزيز مخاطبًا نبيه بقوله: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وقال مُنَوِّهًا بعباده المؤمنين: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٧٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿ [الإسراء: ٣٧-٣٨]



أيها المسلمون: إن الإنسان إذا كسب شيئاً من حطام الدنيا الفانية، فزاده ذلك مرتبة عند الخلق، تشرئب نفسه إلى التعالي على الناس، وتسوّل له أنه خير منهم، وأعلى درجة منهم، فتتصف نفسه بداء الكبر، الذي هو أصل مادة الشرك والكفر، فهو داء إبليس اللعين، عندما أمر بالسجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين.

فكل متكبر تلميذ لإبليس، يقوده إلى مهاوي الردى، بل إلى النار والعياذ بالله، ولذا نجد أن الكبر من أخلاق الكفار والفراعنة، والتواضع من أخلاق الأنبياء والصالحين، فقد وصف سبحانه الكفار بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿وَقَرُّوْا وَفِرْعَوْنُ وَهَمَنُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيْنَ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

وقد أخبر سبحانه أنه لا يجب من اتصف بصفة الكبر، واصفاً نفسه الكريمة: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وجعل سبحانه النار مثوى للمتكبرين، فيقال لهم يوم القيامة: ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، ولشناعة هذا الداء أخبر المصطفى ﷺ أن اليسير من هذا الداء يمنع دخول صاحبه الجنة، فقال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(١).

فكم يا ترى في قلوبنا لا نقول: من مثاقيل الذر، بل من مثاقيل الجبال ومكايل البحار من الكبر؟! نسأل الله العفو والعافية، والسلامة والهداية.

معاشر المسلمين: لنحاسب أنفسنا، فكم من متكبر وهو بنفسه لا يشعر!! ولكي يتسنى لك -أخي المسلم- معرفة ما في قلبك من الكبر، لا بد من معرفة حقيقة الكبر، فقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث ابن مسعود قال ﷺ: «الكبر بطل الحق وغمط الناس»^(٢).

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) رواه مسلم (٩١).



وبطر الحق: هو دفعه وردّه على قائله، وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم. فالكبر إذاً هو افتخارك على أخيك المسلم وبغيك عليه، وعدم قبول الحق منه، قال ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»^(١)، قال بعض السلف: (الكبر أن ترى نفسك أفضل من غيرك).

أيها المسلمون: إن التواضع هو صفة المؤمنين المختبين لربهم، وعلى رأسهم أنبياءه وأصفياءه، والتواضع هو ضد الكبر، قال حمدون القصار رَحِمَهُ اللهُ: (التواضع أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة، لا في الدين ولا في الدنيا)، وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: (التواضع أن يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله ولو كان صبيّاً أو جاهلاً)، وقال آخرون: (هو خفض الجناح ولين الجانب).

أيها الناس: إن المتواضعين بهذا المقياس قليل، بل أقل من القليل، والله المستعان، فمن منا يقبل الحق من الصبي، أو من الجاهل، أو من الفقير، قال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ اللهُ مفصّلاً أمر التواضع: (رأس التواضع ثلاث: أن ترضى بالدون من المجلس، وأن تبدأ من لقيته بالسلام، وأن تكره المدحة والسمعة والرياء بالبر).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: (عجبت لمن يعجب بصورته، ويختال في مشيته، وينسى مبدأ أمره، إنما أوله لقمة، ضمت إليها جرعة ماء، طُبخت فأخرجت منه قطرات مني، فاستقر في الأنثيين فحركته الشهوة، فُصِّبَتْ في بطن الأم مدة، فكان علقه ثم مضغة... حتى تكاملت صورته فخرج طفلاً يتقلب في خرق البول، وآخره: يلقي في التراب فيأكله الدود، ويصير جيفة ورفاتاً).

قلت: وهو فيما بين ذلك يحمل في جوفه الأذى!

أيها المؤمنون: إن من صور الكبر -وهو شرّها- أن تتكبر على الله بهجرك لعبادته واستنكافك عن ذكره ودعائه، فكيف تتكبر على مولاك وهو خلقك ورزقك وسترك، وهيّا لك أسباب العبادة والسعادة، وصرف عنك كل مكروه.

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).



ومن التكبر: التكبر على العباد، وذلك بأن يستعظم الإنسان نفسه ويزدري الناس أو بعضهم، وذلك إما لما رزقه الله من العلم أو الجاه، أو المنصب أو المال أو الجمال، أو نحو ذلك من حطام الدنيا.

عباد الله: من أراد التواضع فعليه أن يعرف قدر نفسه، قال أبو سليمان الداراني: (لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه)، وقال أبو يزيد رَحِمَهُ اللهُ: (ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقليل له: فمتى يكون متواضعاً؟! قال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً!) وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه ومعرفته بنفسه.

واعلم -يا عبد الله- أن للمتكبرين صفات فاحذرهما: منها جرّ الشياطين وإسبائها، أخرج أبو داود وغيره من حديث جابر بن سليم رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «إياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة»^(١). ومنها: أن يجب أن يمشي الناس حوله وخلفه، ومنها: أن لا يزور بعض الناس تكبراً، ومنها: أن يستنكف من جلوس العمال والخدم أو أكلهم بجواره، حتى إن بعضهم ليستنكف من ذلك في الصلاة، ولو اعتذر بآساخ ملابسهم، فالله أعلم بقلوب العباد أيها أطهر، ومنها: أن لا يتعاطى أعماله بيده، بل يأمر بها أمراً، ومنها: ذكر مكانته أو منصبه أو أمواله وتجارته تكبراً ومباهاة، وغيره كثير.

والناصح لنفسه هو من عرفها قدرها، وألزمها طريق المصطفى ﷺ إمام المتواضعين؛ وسيد الأولين والآخرين.

اللهم إنا نعوذ بك من الكبر والحسد، ومن سوء الأخلاق، إنك سميع الدعاء.

(١) صحيح أبي داود (٤٠٨٤).



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

عباد الله: إن من نعمة الله على الناس أن حفظ لهم سير سلفهم الصالحين من الأنبياء والأولياء والصحابة والتابعين، لينهلوا من أخلاقهم وآدابهم، علّهم أن يسيروا على نهجهم ويقتفوا أثرهم، وإنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

ولعلنا نستعرض بعض آثار الصالحين في التواضع، لتفقه النفوس وتلين القلوب، فهذا هو المصطفى ﷺ كان يمر بالصبيان فيسلم عليهم، وكان يركب الحمار، ويجيب الدعوة ولو كانت على يسير من الطعام.

أخرج البخاري من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليّ ذراع أو كراع لقبلت»^(١)، وكان ﷺ يخفض نعله ويرقع ثوبه ويحلب شاته، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجلس مع المساكين، وكان من دعوته: اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشني في زمرة المساكين.

وها هو أبو بكر الصديق الخليفة الأول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسقط الخطام من يده، فينيخ الناقة ويأخذها بكل تواضع، فيقال له: لو أمرتنا نناولكه، فيقول: «إِنْ جَبَّيْ ﷺ أَمْرِي أَنْ لَا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا».

وها هو عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، يقول عنه عروة بن الزبير: «رأيت عمر بن الخطاب وعلى عاتقه قرية ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين: لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود -أي: القبائل وساداتها وعظماءها- سامعين مطيعين دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها»، وقال أنس بن مالك: «كان بين كَنَفِي عمر أربع رقاع، وإزاره مرقوع بأدم». وخطب عمر على المنبر وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة.

(١) رواه البخاري (٢٥٦٨).



وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله فيهم، قال: «ويحك! لا يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم».

وللمتكبرين المتفاخرين على الناس بالأنساب والأحساب تفاخرت قريش بأنسابها عند سلمان الفارسي يوماً، فقال: لكنني خلقت من نطفة قدرة، ثم أعود جيفة مُنتنة، ثم آتي الميزان؛ فإن ثقل فأنا كريم، وإن خفّ فأنا لئيم.

وسئل أحمد بن حنبل عن نسبه يوماً - وهو من بني شيان - فقال رَحِمَهُ اللَّهُ كلمته المشهورة: نحن قوم مساكين، لولا ستر الله لافتضحنا).

فتواضعوا تُرفعوا، واخفضوا الجناح لإخوانكم المؤمنين، ولالأقربين، وقبل ذلك الوالدين، فقد قال الله: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، فالله الله في خفض الصوت والجناح، والتواضع والبر. وليعلم المسلم أن حسن المظهر وجمال اللباس جائز شرعاً وليس من الكبر، فقد قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»؛ فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة! قال: «إن الله جميل يحب الجمال؛ الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(١)..

إلا أن المبالغة في الملابس تؤدي إلى الكبر، خصوصاً إذا كانت الملابس والمراكب والمآكل هي الشغل الشاغل للمسلم، فقد أخرج أبو داود من حديث أبي أمامة بن ثعلبة قال: ذكر أصحاب النبي ﷺ يوماً عنده الدنيا، فقال: «ألا تسمعون! ألا تسمعون! إن البذاذة من الإيمان»^(٢)، قال عبد الله بن الإمام أحمد: سألت أبي عن البذاذة فقال: (التواضع في اللباس). ولقد كان سلف الأمة لا تغيرهم المناصب ولا الدنيا، ولا يحتقرون أحداً صغر عنهم أو كبر، قال بكر بن عبد الله المزني: (إذا رأيت من هو أكبر منك فقل: سبقني بالإيمان، والعمل الصالح، فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك، فقل: سبقته إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظمونك فقل: هذا فضل أخذوا به، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل: هذا ذنب أحدثته).

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) صحيح أبي داود (٤١٦١).



أيها المؤمنون: من أراد التواضع، فليحتقر نفسه في جنب الله، وليذكر هفواته وخلواته، لا أن يذكر حسناته ومساوئ غيره، فإن ذلك يبعث الكبر في نفسه، قال مالك بن دينار: (لو أن منادياً ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رجلاً، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلاً بفضل قوة أو سعي)، فلما بلغ ابن المبارك قوله قال: (بهذا صار مالك مالكا).

وقال علي بن ثابت: (ما رأيت سفيان الثوري في صدر المجلس قط، إنما كان يقعد إلى جانب الحائط ويستند إلى الحائط، ويجمع بين ركبتيه).

ولما قيل لأحمد بن حنبل: جزاك الله عن الإسلام خيراً، قال: (ومن أنا حتى يجزيني الله عن الإسلام خيراً؟! بل جزى الله الإسلام عني خيراً). وكان يكثر أن يقول: (أسأل الله أن يجعلنا خيراً مما يظنون، ويغفر لنا ما لا يعلمون).

قال سفيان الثوري: (إذا عرفت نفسك لم يضرك ما قال الناس)، وقال ابن معين: (ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه)، وكان رَحِمَهُ اللهُ يقول: (نحن قوم مساكين).

وقال إسماعيل بن إسحاق: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل أول ما لقيته: يا أبا عبد الله: ائذن لي أن أقبل رأسك، فقال: (لم أبلغ أنا ذاك)!

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن العبد إذا تواضع لله رفع حَكَمَتَهُ»، وقال: «انتعش رفعك الله، وإذا تكبر وعدا طوره وضعه الله على الأرض»، وقال: «أخسأ خسأك الله، فهو في نفسه كبير، وفي أعين الناس حقير».

أيها المؤمنون: لنجعل أمام أعيننا دائماً حديث المصطفى ﷺ: «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه»^(١).

اللهم اجعلنا من المتواضعين الهينين اللينين، اللهم استر عيوبنا، واغفر ذنوبنا، وتوفنا مع الأبرار.





الحياء من الله (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الكريم الرزاق، الذي جعل الحياء من أعظم الأخلاق، أحمله سبحانه حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أهل الثناء والمحامد والأعجاب، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبد الله ورسوله، أشرف الخلق وخير العباد، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أهل الحياء والرشاد، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم التناد.

أَمَّا بَعْدُ:

عِبَادَ اللَّهِ: اتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ تَقْوَاهُ، وَرَاقِبُوهُ سُبْحَانَهُ مُرَاقِبَةً مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ رَبَّهُ يَسْمَعُهُ وَيَرَاهُ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى خَيْرِ أُمُورِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ خِلَالِ الدِّينِ وَمِنْ أَعْظَمِ أَوْصَافِ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْ أَجَلِّ شُعَبِ الْإِيمَانِ: الْحَيَاءُ، وَهُوَ خَصْلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَخَلَّةٌ كَرِيمَةٌ، تَبْعُثُ عَلَى التَّحَلِّيِ بِالْفَضَائِلِ وَالتَّخَلِّيِ مِنَ الرَّذَائِلِ.

وَالْحَيَاءُ مَعْدُنُ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، وَمَنْبَعُ الْمُعَامَلَاتِ الْكَرِيمَةِ، وَهُوَ خَيْرُ كُلِّهِ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، وَالْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَا يَنْتُجُ إِلَّا عَنْ إِيْمَانٍ.

ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ» (٢)، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: دَعُهُ؛ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنْ

(١) عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد البدر.

(٢) رواه البخاري (٦١١٧) ومسلم (٣٧).



الإِيمَان»^(١)، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ الإِيمَانِ»^(٢).

وَالْحَيَاءُ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- مُشْتَقٌّ فِي أَصْلِهِ مِنَ الْحَيَاةِ؛ فَكُلَّمَا عَظُمَتِ الْحَيَاةُ فِي الْقَلْبِ عَظُمَ الْحَيَاءُ، وَكُلَّمَا ضَعُفَتِ الْحَيَاةُ فِي الْقَلْبِ وَالرُّوحِ ضَعُفَ الْحَيَاءُ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ».

عِبَادَ اللَّهِ: الْحَيَاءُ مِنْ أَفْضَلِ الْخِصَالِ، وَأَكْمَلِ الْخِلَالِ، وَأَعْظَمِهَا فَائِدَةً، وَأَكْبَرَهَا عَائِدَةً، وَكُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ مُتَحَلِّيًا بِالْحَيَاءِ كَانَ ذَلِكَ دَافِعًا لَهُ إِلَى الْبِرِّ، وَسَائِقًا إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمُتَنَكَّرَاتِ، فَمَنْ كَانَ ذَا حَيَاءٍ حَازَهُ حَيَاؤُهُ عَنِ الرَّدَائِلِ، وَمَنَعَهُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ.

وَأَمَّا مَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ فَهُوَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ لَا يُبَالِي أَيَّ رَذِيلَةٍ أَرْتَكَبَ وَأَيَّ كَبِيرَةٍ اقْتَرَفَ وَأَيَّ مَعْصِيَةٍ اجْتَرَحَ؛ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنْ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»^(٣).

مَنْزُوعُ الْحَيَاءِ -عِبَادَ اللَّهِ- لَا يُبَالِي بِأَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَلَا يَتَوَقَّى فِيهَا بِأَيِّ أُمُورِهِ؛ فَهُوَ لَا يَسْتَحْيِ مِنْ اللَّهِ، وَلَا يَسْتَحْيِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، فَمَنْ النَّاسِ مَنْ بَلَغَ مِنْ قِلَّةِ حَيَاتِهِ أَنَّهُ لَا يُبَالِي بِارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ فِي أَيِّ مَكَانٍ، فَيَكُونُ قَدْوَةً فِي الشَّرِّ وَمَثَلًا فِي السُّوءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُشِيعُهَا وَيُشْهِرُ نَفْسَهُ بِهَا وَيَتَحَدَّثُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَكَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَفْضَلِ الْخِصَالِ وَأَطْيَبِ الْخِلَالِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

(١) رواه البخاري (٢٤) ومسلم (٣٦).

(٢) رواه البخاري (٩) ومسلم (٣٥).

(٣) رواه البخاري (٣٤٨٤).



وَأَنَّ أَفْضَلَ الْحَيَاءِ وَأَوْجَبَهُ، وَأَجَلَّهُ قَدْرًا وَأَعْظَمَهُ أَجْرًا: الْحَيَاءُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَخَالِقِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، الْاسْتِحْيَاءُ مِمَّنْ أَوْجَدَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، وَمَنْ عَلَيْكَ بِصُنُوفِ النِّعَمِ وَالْوَنَنِ، الْحَيَاءُ مِنْ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا رَبِّ الْعَالَمِينَ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الزُّهْدِ وَالْبَيْهَقِيِّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَوْصِنِي. قَالَ: أَوْصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللَّهِ كَمَا تَسْتَحِي رَجُلًا صَالِحًا مِنْ قَوْمِكَ»^(١).

عِبَادَ اللَّهِ.. وَمَا يُحْرِكُ فِي الْقَلْبِ الْحَيَاءُ مِنَ اللَّهِ: تَعْظِيمُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَحُبُّهُ سُبْحَانَهُ، وَالْعِلْمُ بِرُؤْيِيَّتِهِ وَاطِّلَاعُهُ؛ فَهَذِهِ الثَّلَاثُ مُحَرِّكَاتٌ لِلْقُلُوبِ، بَاعِثَةٌ لِلْحَيَاءِ، فَمَتَى كَانَ الْقَلْبُ مُعْطَمًا لِربِّهِ غَزَّ وَجَلَّ، مُجِبًّا لَهُ سُبْحَانَهُ، عَالِمًا بِاطِّلَاعِهِ مُسْتَحْضِرًا لِرُؤْيِيَّتِهِ مُؤْمِنًا أَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، تَحْرَكُ فِي الْقَلْبِ الْحَيَاءُ مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

قال النووي: (قَالَ الْعُلَمَاءُ: حَقِيقَةُ الْحَيَاءِ خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلَى تَرْكِ الْقَبِيحِ، وَيَمْنَعُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ ذِي الْحَقِّ، وَرَوَيْنَا عَنْ أَبِي الْقَاسِمِ الْجَنِيدِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: الْحَيَاءُ: رُؤْيَةُ الْآلَاءِ - أَيِ النِّعَمِ - وَرُؤْيَةُ التَّقْصِيرِ، فَيَتَوَلَّدُ بَيْنَهُمَا حَالَةٌ تُسَمَّى الْحَيَاءَ).

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ؛ وَلَكِنَّ الْاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَأَنْ تَذْكُرَ الْمَوْتَ وَالْبَلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»^(٢)؛ فِي الْحَدِيثِ أُمُورٌ أَرْبَعَةٌ فِيهَا جَمَاعُ الْخَيْرِ وَأَصْلُ الْحَيَاءِ:

الْأَوَّلُ وَالثَّانِي: حِفْظُ الرَّأْسِ، وَحِفْظُ الْبَطْنِ؛ وَهُمَا أَكْثَرُ الْحَيَاءِ حَقًّا وَنَتِيجَتُهُ وَثَمَرَتُهُ. فَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ مُفْعَمًا بِالْحَيَاءِ مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا بَعَثَتْ حَيَاؤُهُ وَسَاقَهُ إِلَى حِفْظِ رَأْسِهِ، وَحِفْظِ الرَّأْسِ - عِبَادَ اللَّهِ - يَشْمَلُ حِفْظَ الْبَصَرِ مِنَ النَّظَرِ إِلَى الْحَرَامِ، وَحِفْظَ السَّمْعِ مِنْ سَمَاعِ

(١) صحيح الجامع (٢٥٤١).

(٢) صحيح الترمذي (٢٤٥٨).



الْحَرَامَ، وَحَفِظَ اللِّسَانَ مِنَ الْكَلَامِ الْحَرَامِ، وَحَفِظَ الْوَجْهَ عُمُومًا مِنْ مُقَارَفَةِ خَطِيئَةٍ أَوْ ارْتِكَابِ مَعْصِيَةٍ.

وَحَفِظَ الْبَطْنَ - عِبَادَ اللَّهِ - يَتَنَاوَلُ عَدَمَ إِدْخَالِ الْحَرَامِ فِي الْجَوْفِ، وَيَتَنَاوَلُ كَذَلِكَ حِفْظَ الْقَلْبِ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ وَتَحْنِيْبِهِ رَدِّيْتَهَا وَسَيِّئَهَا، وَيَتَنَاوَلُ كَذَلِكَ حِفْظَ الْفَرْجِ مِنْ غَشْيَانِ الْحَرَامِ.

وَالْأَمْرَانِ الْآخِرَانِ فِي الْحَدِيثِ وَهُمَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَأَنْ تَذْكُرَ الْمَوْتَ وَالْبَلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»؛ فِيْهِمَا ذِكْرٌ لِأَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ إِذَا اسْتَقَرَّ فِي الْقَلْبِ تَحَرَّكَتِ الْفَضَائِلُ فِيْهِ؛ فَمَنْ تَذَكَّرَ أَنََّّهُ سَيَمُوتُ وَيَبْلَى، وَأَنَّهُ سَيَقُفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ سُبْحَانَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا قَدَّمَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَعْمَالٍ سَيِّئَةٍ وَخِصَالٍ مَسِيئَةٍ، وَأَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِقْبَالًا صَادِقًا بِإِنَابَةٍ وَحُسْنِ عِبَادَةٍ وَتَمَامِ إِقْبَالٍ.

قال أبو حاتم البستي: (إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عرضه، ودفن مساويه، ونشر محاسنه، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره هان على الناس ومُتَّت، ومن مُتَّت أُوذِي، ومن أُوذِي حزن، ومن حزن فقد عقله، ولا دواء لمن لا حياء له، ولا حياء لمن لا وفاء له، ولا وفاء لمن لا إخاء له، ومن قل حياؤه صنع ما شاء، وقال ما أحبَّ).

وقال أيضًا: (فالواجب على العاقل لزوم الحياء؛ لأنه أصل العقل، وبذر الخير، وتركه أصل الجهل، وبذر الشر، وجوده يدل على العقل كما أن عدمه دال على الجهل)^(١).

وإِنِّي لَتَنْهَانِي خَلَائِقُ أَرْبَعُ عَنِ الْفُحْشِ فِيْهَا لِلْكَرِيمِ رَوَادِعُ حَيَاءٌ وَإِسْلَامٌ وَشَيْبٌ وَعِفَّةٌ وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا مَا حَبَّتْهُ الطَّبَائِعُ

إن من أسماء الله: (الْحَيِّي)، وَقَدْ ثَبَتَ هَذَا الْاسْمُ فِي قَوْلِهِ ﷺ مِنْ حَدِيثِ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللَّهَ حَيِّيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مَنْ عَبْدَهُ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»^(٢)،

(١) روضة العقلاء.

(٢) صحيح أبي داود (١٤٨٨).



فَ(الْحَيِّي) اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ سَبْحَانَهُ، كَمَا أَنَّهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ جَلٌّ وَعَلَا، فَمَنْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ اسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «وَأَمَّا الثَّانِي، فَاسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ»^(١) فِي قِصَّةِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ.

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: (من استحيا من الله مطيعاً استحيا الله منه وهو مذنّب).

قال ابن القيم معلقاً على كلام يحيى بن معاذ: (وهذا الكلام يحتاج إلى شرح، ومعناه: أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته، فقلبه مُطْرَق بين يديه إطرار مُسْتَحِ حَجَلٍ، فإنه إذا وقع ذنباً استحيا الله عَزَّ وَجَلَّ من نظره إليه في تلك الحال؛ لكرامته عليه؛ فيستحيي أن يرى من وليه ومن يَكْرُم عليه ما يشينه عنده... وهذا غاية الكرم).

إلى أن قال: (أما حياء الرب من عبده فذاك نوع آخر، لا تدركه الأفهام، ولا تُكَيِّفُهُ العقول؛ فإنه حياء كرم، وبرٍّ، وجود، وجلال؛ فإنه تبارك وتعالى حييٌّ كريم، يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً، ويستحيي أن يعذب ذا شبهة شابت في الإسلام)^(٢).

والحياء كذلك خلق من أخلاق النبوة، فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام أشد الناس حياءً، حتى إنه كما قال أبو سعيد الخدري: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعِزْرَاءِ فِي خَدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ»^(٣).. وقال الله عنه في أمر دخول أصحابه بيته وجلسهم بعد إطعامه إياهم: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كُنْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. فلم يكن عليه الصلاة والسلام صَخَابًا وَلَا فَاخْشًا وَلَا مَتَفَحْشًا، وَلَا يَجَابُهُ الْمَخْطُؤُ بِخَطْئِهِ، أَوْ يَفْضَحُ عِيَهُ لِيُحْرِجَهُ، بَلْ كَانَ بَسَامًا مُتَوَاضِعًا قَلِيلَ الْكَلَامِ كَثِيرَ الْحَيَاءِ وَالْإِغْضَاءِ.

ولكن لا ينبغي الحياء من تعلُّم العلم، أو بيان الحق، فإن الله لا يستحيي من الحق، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ

(١) رواه البخاري (٦٦) ومسلم (٢١٧٦).

(٢) مدارج السالكين.

(٣) رواه البخاري (٦١١٩).



مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا ﴿البقرة: ٢٦﴾. وقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: رحم الله نساء الأنصار لم يمنعهنَّ الحياء أن يسألن عن أمر دينهن. فإن العلم لا يناله مُستحي ولا متكبر، وإن بيان الحق وإقامة العدل لا ينبغي أن يُستحيا منه.

اللَّهُمَّ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ يَا مَنَّانُ يَا جَوَادُ يَا كَرِيمُ يَا مُحْسِنُ ارْزُقْنَا أَجْمَعِينَ الْحَيَاءَ مِنْكَ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْحَيَاءَ مِنْكَ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْحَيَاءَ مِنْكَ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ. اللَّهُمَّ وَأَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ. أَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ وَلِسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرُوهُ يَغْفِرْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.



الخطبة الثانية:

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَظِيمِ الْإِحْسَانِ، وَاسِعِ الْفَضْلِ وَالْجُودِ وَالْإِمْتِنَانِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وبعد:

يقول ابن القيم: (من وافق الله في صفة من صفاته؛ قادته تلك الصفة إليه بزماتها، وأدخلته على ربه، وأذنته وقربته من رحمته، وصيرته محبوباً له؛ فإنه سبحانه رحيم يحب الرحماء، كريم يحب الكرماء، عليم يحب العلماء، قوي يحب المؤمن القوي، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف، حيي يحب أهل الحياء، جميل يحب أهل الجمال، وتر يحب أهل الوتر).

وَرُبَّ قَيْحَةٍ مَا حَالَ بَيْنِي
وَبَيْنَ رُكُوبِهَا إِلَّا الْحَيَاءُ
فَكَانَ هُوَ الدَّوَاءَ لَهَا وَلَكِنْ
إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ فَلَا دَوَاءَ
يَعِيشُ الْمَرْءُ مَا اسْتَحْيَى بِخَيْرٍ
وَيَنْقَى الْعُودُ مَا بَقِيَ اللَّحَاءُ
فَلَا وَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ
وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ
إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي
وَلَمْ تَسْتَحْيَ فَاَفْعَلْ مَا تَشَاءُ

كان الفاروق عمر يقول: من قلّ حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه. وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: رأس مكارم الأخلاق الحياء. وقال سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله إذا أراد بعبد هلاكاً نزع منه الحياء». وقال ابن القيم: (الحياء أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه). وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (خلق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلّها وأعظمها قدراً وأكثرها نفعاً، بل هو خاصة الإنسانية، فمن لا حياء فيه فليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتها الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء)^(١).

(١) مفتاح دار السعادة.



ولقد جاء من أخبارهم ما يوضح شدة حيائهم من الله تعالى: فهذا أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إني لأغتسل في البيت المظلم، فأحني ظهري حياءً من ربي.

وعن عكرمة عن ابن عباس: أنه لم يكن يدخل الحمام إلا وحده وعليه ثوب صفيق، ويقول: «إني لأستحيي من الله أن يراني في الحمام متجردًا». وعن الحسن قال: (كان موسى نبي الله ﷺ لا يغتسل إلا مستترًا)، فقال له ابن بريدة: ممن سمعت هذا؟ قال: من أبي هريرة.

وقال أبو العباس الأزهري: سمعت خادمة محمد بن يحيى -وهو على السرير يغسل- تقول: (خدمته ثلاثين سنة، وكنت أضع له الماء، فما رأيت ساقه قط، وأنا ملك له).

ودخل محمد بن إسماعيل البخاري على محمد بن سلام حين قدم من العراق، فأخبره بمحنة الناس، وما صنع أحمد بن حنبل وغيره من الأمور، وكان البخاري حيئاً، فلما خرج من عنده قال محمد بن سلام لمن حضره: (أترون البكر أشد حياءً من هذا؟! حسن أدبه وشدة حيائه رَحِمَهُ اللَّهُ).

قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: (واعلم أن الحياء في الإنسان يكون من ثلاثة أوجه: أحدهما: حياؤه من الله تعالى ويكون بامتنال أوامره، والكف عن زواجه. والثاني: حياؤه من الناس ويكون بكف الأذى، وترك المجاهرة بالقبيح. والثالث: حياؤه من نفسه، ويكون بالعفة، وصيانة الخلوات). وقد قيل: ذو المروءة يستحي من نفسه كما يستحي من غيره، فلا يفعل في الخلوة ما يستحي منه في العلانية.

فأين من لا يستحي من الله أن يقول الفاحش من الكلام؟ أين من إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها؟ أين من لا يستحي من والديه ولا يخفض لهما جناح الذل من الرحمة؟ أين من لا تستحي من قول الله: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]؟ أين من يخضعن بالقول لفتنة الآخرين وقد قال الله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؟ أين من لا يستحون من قول الله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] فيطلعون على العورات ويسعون لهتك الحرمات؟ أين من لا يستحي من خروج بناته ونسائه بلباس غير محتشم؟ بل أين من يسعون لسلخ أبناء الجيل من الحياء، بإعلامهم



وقنوا لهم وطربهم ومسلسلاتهم؟ الله الله في تعظيم الله والحياء منه، وعدم تعدي حدوده وانتهاك حرمانه، استحيوا من الله حق الحياء..

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا حَيِّيُّ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسِّرَّ، وَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا عَلَى قَدْرِ قُرْبِهِ مِنْهُ وَعِلْمِهِ بِهِ، وَاسْتَشْعَارِهِ لَا طَّلَاعِهِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، مُعْظَمًا لِحَنَابِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، مُقَدِّمًا مَحَابَّهُ عَلَى كُلِّ الْمَحْبُوبَاتِ وَالْمَرْغُوبَاتِ، وَالْكَيْسُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ.

إذا مـا قال لي ربي
أما استحييت تعصمني
وتخفي الذنب من
خلقي وبالعصيان تأتيني
فما قولي له لما
يعاتبني ويقتصمني

أَلَا وَصَلُوا وَسَلَمُوا عَلَى النَّبِيِّ الْخَاتَمِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسِرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٍ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ.

اللَّهُمَّ أَعِنَّا وَلَا تُعِنْ عَلَيْنَا، وَأَنْصُرْنَا وَلَا تَنْصُرْ عَلَيْنَا، وَأَمْكُرْ لَنَا وَلَا تَمْكُرْ عَلَيْنَا، وَاهْدِنَا وَيَسِّرْ الْهُدَى لَنَا، وَأَنْصُرْنَا عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيْنَا.





الرفق والتيسير في التعامل^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله باري البريات، وعالم الخفيات، المطلع على الضمائر والنيات، أحمدته سبحانه وأشكره وسع كل شيء رحمة وعلما، وقهر كل مخلوق عزة وحكما، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أرجو بها الفوز بالجنات، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله المؤيد بالمعجزات، المسدد بالبراهين الواضحات، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله السادات، وأصحابه ذوي الفضل والمكرمات، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما دامت الأرض والسموات، وسلم عليهم كثير التسليلات، أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أيها المؤمنون: إن حُسن الخلق من كمال الإيمان، وإن الله قد بعث نبيه محمداً ﷺ رحمة وهدى، وسع خلقه الناس سهولة ورفقا، ونضحت يداه بالعطايا كرما وجودا، أبر الناس قلبا، وأصدقهم لهجة، وأقربهم رحما. وإن من أخص خصائصه وأكرم سجاياه عليه الصلاة والسلام: رفقته ولينه مع الناس، وليس ذلك في حال الرخاء والرضى فحسب، بل لازمته تلك الفضائل الزاكية والأخلاق العالية في أشد الأوقات وأحلك الظروف، شج رأسه وكسرت رباعيته في غزوة أحد، فقليل له في هذا الحال العصيب: ألا تدعوا على المشركين؟ فما هو إلا أن تدفق رفقته، وظهرت رحمته، وفاضت طبيعته العالية، وسجيته الكريمة، بما يلتبس فيه العذر لهؤلاء، فكان مما قال: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا»^(٢) وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

(١) صالح بن عبد الله بن حميد.

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٩).



قال ابن القيم: (من رَفَقَ بعبادِ الله رَفَقَ اللهُ به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد الله عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله تعالى لعبده حسب ما يكون العبد لخلقهِ) ^(١). وقال ابن حجر: (لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب) ^(٢).

قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَخُفِّضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]. وقال سبحانه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. والرفق ضد العنف، قال ابن حجر: (هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف) ^(٣). وقال القاري: (هو المداراة مع الرفقاء ولين الجانب واللطف في أخذ الأمر بأحسن الوجوه وأيسرها) ^(٤).

خذ الأمور برفقٍ واتَّئِدْ أَبَدًا إياك من عجلٍ يدعو إلى نصبِ
الرفق أحسن ما تُؤتَى الأمور به يصيب ذو الرفق أو ينجو من العطبِ

أيها المسلمون: إنها القلوب الكبيرة قلما تستجيشها دوافع القسوة عن التعقل والحلم، إنها إلى العفو والصفح أقرب منها إلى الانتقام والبطش.

ها هو نوح عَلَيْهِ السَّلَام يقول في مجادلته لقومه: ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٦١) أبلغكم رِسَالَتِي ربي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ^(٦٢) أَوْعِجَّتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١-٦٣]. إنه جواب ملؤه الرحمة والشفقة، والصدق في النصيح، واللطف في

(١) الوابل الصيب (ص ٣٥).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١/ ٩٤).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٤٤٩).

(٤) مرعاة المفاتيح للقاري (٨/ ٣١٧٠).



الخطاب. وكذا خطابه مع ابنه الذي لم يؤمن به، فناده حين نزل العذاب: ﴿يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، إنه خطاب الأب الحاني، والناصح المشفق.

وأما رفق الولد مع أبيه فهذا هنا مثال رائع يعلو على كل مثال، ويتجلى في موقف إبراهيم الخليل مع أبيه آزر، يقول الشنقيطي عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَابِرْهُمْ لِيْن لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ (٤٦) قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا (٤٧) ﴿[مريم: ٤٦-٤٧]. قال: (بين الله جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين أن إبراهيم لما نصح أباه النصيحة المذكورة مع ما فيها من الرفق واللين وإيضاح الحق والتحذير من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ومن عذاب الله تعالى وولاية الشيطان خاطبه هذا الخطاب العنيف وسماه باسمه ولم يقل له يا بني في مقابلة قوله له يا أبت وأنكر عليه أنه راغب عن عبادة الأوثان أي معرض عنها لا يريد لها لأنه لا يعبد إلا الله وحده جل وعلا وهدده جل وعلا وهدده بأنه إن لم ينته عما يقوله له ليرجمه.. ثم أمره بهجره مليًّا أي زمانا طويلا، ثم بين أن إبراهيم قابل أيضا جوابه العنيف بغاية الرفق واللين في قوله: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧] (١).

أيها الإخوة في الله: إن الرجل العظيم كلما ارتفع إلى آفاق الكمال؛ اتسع صدره، وامتد حلمه، وتطلب للناس الأعذار، والتمس لأغلاطهم المسوغات، وأخذهم بالأرفق من حالهم.

أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بال أعرابي في المسجد فقام إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه، لا تزرموه، وأهريقوا على بوله ذنوبا من ماء - أي دلوًا من ماء - فإنها بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين، وسكنوا ولا تنفروا» (٢) زاد الترمذي: ثم قال الأعرابي: اللهم ارحمني ومحمدا، ولا ترحم معنا أحدا، فقال له النبي ﷺ: «لقد تحجرت واسعا» (٣).

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٤٢٧).

(٢) رواه البخاري (٦١٢٨).

(٣) صحيح الترمذي (١٤٧).



أولئك هم رسل الله عليهم الصلاة والسلام عنوان الرحمة والشفقة والقُدوة في الصفح والمغفرة.

ومن أحسن ما وصف به الله تعالى أنبياءه ورسله قوله جل في علاه عن نبينا وحبينا محمد ﷺ لما قال سبحانه وتعالى: ﴿فِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، يعني رحمك الله تعالى، وأحسن إليك، وتفضل عليك بأن أصبحت لنا رفيقاً في تعاملك مع الناس ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفُضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أيها الناس: الرفق زين، والقسوة شين، يقول ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»^(١). ولا يظن البعض أنه سينال بالقسوة والشدة ما لا يناله بالرفق والتؤدة والحكمة، فالعكس هو الصحيح، وإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الخير»^(٢).

ويقول ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير»^(٣). قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: (يعني أن الإنسان إذا حُرِم الرفق في الأمور فيما يتصرف فيه لنفسه، وفيما يتصرف فيه مع غيره، فإنه يحرم الخير كله أي فيما تصرف فيه، فإذا تصرف الإنسان بالعنف والشدة فإنه يحرم الخير فيما فعل وهذا شيء مجرب ومشاهد أن الإنسان إذا صار يتعامل بالعنف والشدة؛ فإنه يحرم الخير ولا ينال الخير، وإذا كان يتعامل بالرفق والحلم والأناة وسعة الصدر؛ حصل على خير كثير، وعلى هذا فينبغي للإنسان الذي يريد الخير أن يكون دائماً رفيقاً حتى ينال الخير)^(٤).

وعلى من ولي من أمر الناس شيئاً صغيراً كان أو كبيراً، حتى الأب في بيته، والمعلم في مدرسته، والمدير في إدارته، أن يتقي الله فيمن هم تحت يده، وأن يستعمل الرفق واللين،

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٣) واللفظ له، وأحمد (٦ / ٤٥١) (٢٧٥٩٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٦٤).

قال الترمذي: (حسن صحيح). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٥٥).

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٢).

(٤) شرح رياض الصالحين (٣ / ٥٩٢).



والرأفة والرحمة، والحكمة والأناة، لينال دعوة النبي له لا عليه، فقد قال ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فرفق به»^(١). ولكن لا يظن البعض أن ذلك يعني المحاباة في الحكم، والمداهنة أو التنازل على حساب الحق، واتباع أهواء الآخرين، ليس الأمر كذلك، بل أن يسير برعيته وفق ما تقتضيه المصلحة الراجحة والمنفعة المتحققة، ولكن بسلوك أقرب السبل، وأرفق الطرق، وأيسر الوسائل، بشيء من الحكمة والتدرج، دون أن يشق عليهم في شيء ليس من مرضاة الله، ولا يلجأ إلى الشدة إلا حيث تلجئه الحاجة، مع تقدير الضرورة بقدرها، ووضع الأمور في نصابها بميزان العدل والصدق، مع استحضار حجته عند الله تعالى يوم يقف بين يديه، فيكون الرفق أصل غالب، والشدة استثناء طارئ، فمن شقَّ على من هم تحت يده في غير وجه حق، دخل في الطرف الثاني من الحديث، وهو دعاء النبي ﷺ بأن يشق الله عليه، وذلك يشمل دنياه وآخرته، نسأل الله العافية.

أيها المؤمنون: إن القسوة في القلوب، والغلظ في الأخلاق تكون في الإنسان دليلاً على قلة التوفيق، وسوء التدبير، كما أنها في تاريخ الأمم قد تكون علائم فساد خطير، فلا عجب أن قد حذر منها القرآن الكريم واعتبرها علة الفسق عن أمر الله، وسر الشرود عن صراطه المستقيم يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]. أما إذا زاد الإيمان في القلب وعمرت النفس بذكر الله، ازدادت الساحة وازداد الحلم، واتسع الصدر للناس، فلا يقابل الجاهل بمثل جهله ولكنه قول سلام وإعراض عن اللغو: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَهْلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه وبسنة نبيه محمد ﷺ. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة. فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه مسلم (١٨٢٨).



الخطبة الثانية:

الحمد لله جعل لكل شيء قدرا، وأحاط بكل شيء خبرا، وأسبل على خلقه بلفظه رحمة وسترا، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها الناس: إن مما ينبغي التنويه إليه والتنبيه عليه: استعمال الرفق مع النفس، في تهذيبها وتأديبها، وتقويمها في سيرها إلى الله تعالى، فإن النفوس تحتاج إلى ترويض، وتدرج لتترقى في مراقبي الكمال، سواء في العبادات، الأخلاق والمعاملات، أو حتى في تعلّم العلوم، فإن من رام أخذ العلم جملة، ذهب عنه جملة، فإنما يؤخذ الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام، حتى تعتاد النفس وتتقوى شيئا فشيئا، وقليل دائم خير من كثير منقطع، فإن المُنْبَتَّ لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى. فلا ينبغي الغلو في شيء من الطاعات والعبادات، أو الاستعجال، مما يورث السأم ويسبب الملل والكلل.

قال الحافظ ابن حجر: (لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيُعْلَبُ)^(١). وقال ابن القيم: (نهى النبي ﷺ عن التشديد في الدين بالزيادة على المشروع، وأخبر ﷺ أن تشديد العبد، على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه إما بالقدر وإما بالشرع. فالتشديد بالشرع: كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل، فيلزمه الوفاء به، وبالقدر كفعل أهل الوسواس. فإنهم شددوا على أنفسهم فشدد عليهم القدر، حتى استحکم ذلك وصار صفة لازمة لهم)^(٢).

وقال أبو حاتم: (العاقِل يلزم الرفق في الأوقات والاعتدال في الحالات؛ لأن الزيادة على المقدار في المبتغى عيب، كما أن النقصان فيما يجب من المطلب عجز، وما لم يصلحه الرفق لم يصلحه العنف، ولا دليل أمهر من رفق، كما لا ظهير أوثق من عقل، ومن الرفق يكون

(١) فتح الباري لابن حجر (١/ ٩٤).

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (١/ ١٣٢).



الاحتراز وفي الاحتراز ترجى السلامة، وفي ترك الرفق يكون الخرق، وفي لزوم الخرق تُخاف الهلكة^(١).

أيها المؤمنون: وإن من عامل الناس بالرفق عامله الله بمثل ما يعامل به غيره، والجزاء من جنس العمل، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (من رَفَقَ بعبادِ الله رَفَقَ اللهُ به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد الله عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله تعالى لعبده حسب ما يكون العبد لخلقه)^(٢).

ومن أولى من ينبغي له التخلق بالرفق الدعاة والمربون، والآباء والمعلمون، قال عبد الرحمن الميداني: (وأولى الناس بالتخلق بخلق الرفق الدعاة إلى الله والمعلمون، فالدعوة إلى الله لا تؤثر ما لم تقترن بخلق الرفق في دعوة الخلق إلى الحق، وتعليم الناس لا يؤتي ثمراته الطيبات ما لم يقترن بخلق الرفق الذي يملك القلوب بالمحبة)^(٣). ولتأمل: فإنه ليس بعد طغيان فرعون من طغيان وقد قال الله لموسى وهارون عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾^(٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿طه: ٤٣-٤٤﴾. إن حقا على المسلمين أن يستصحبوا الرفق واللين في الأمر كله من غير مدهانة ولا مجاملة، ومن غير غمط ولا ظلم.

وعلى أصحاب المسؤوليات أن يرفقوا بمن تحت أيديهم، لا يأخذون إلا بحق، ولا يدفعون إلا بالحسنى، ولا يأمرؤن إلا بما استطاع: ﴿لَا يَكْلِفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

كما أن على الأب الشفيق والأم الرؤوم، وإن على الأزواج أن يرفقوا بزوجاتهم، فإننا هُنَّ عُوانٍ -أي: أسيرات- عندهم، لذا أوصى بهن النبي ﷺ خيرا، وقال: «خيركم خيركم لأهله،

(١) روضة العقلاء لابن حبان البستي (٢١٦).

(٢) الوابل الصيب (ص ٣٥).

(٣) الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن الميداني (٢/ ٣٤٠).



وأنا خيركم لأهلي»، وفي لفظ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم»^(١). فأولى الناس برفقك وخيرك هم أهل بيتك.

لذلك حرص النبي ﷺ على الرفق، وكان يربي عليه أصحابه، كان يربي عليه أهله، كان يتمثله في نفسه ﷺ، فكان ﷺ يقول - كما في الصحيح -: «إذا أراد الله بأهل بيت خيراً» إذا أراد الله ببيتك أنت، بزوجتك وأبنائك، أو بأمك وأبيك وأخواتك وأخوالك، إذا أراد الله بأهل بيت خيراً، ماذا يفعل بهم؟ أكثر أمواهم؟ أم زرع بينهم الخير والصلاح؟ قال ﷺ: «إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق، وإذا أراد بأهل بيت شر أنزع منهم الرفق»^(٢).

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله حرم على النار كل هيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ من الناس»^(٣)، لم يقل حرم على النار كل عابد قَوَّامٍ لليل، صوام للنهار، مع فضل العبادة وارتفاع شأنها ونفعها العظيم عند رب العالمين؛ لكنه ﷺ بيَّن أثر العبادة في الناس. ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه، وإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، بذلك صحت الأخبار عن الصادق المصدوق ﷺ.

أمة الرحمة والهدى: إن العقل والحكمة والمعرفة بطبائع الأمور تقتضي تقبل الميسور من أخلاق الناس، والرضا بالظاهر من أحوالهم، وعدم التقصي على سرائرهم، أو تتبع دخائلهم، كما تقتضي قبول أعذارهم، والغض عن هفواتهم، وحملهم على السلامة وحسن النية. إذا وقعت هفوة أو حصلت زلة فليس من الأدب وليس من الخلق الحسن المسارعة إلى هتكها والتعجل في كشفها فضلاً عن التحدث بها وإفشائها. بل لقد قيل: اجتهدوا في ستر العصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الاسلام.

كيف يسوغ لمسلم أن يتشاغل بالبحث عن العيوب ورجم الناس بها؟ بل لعله قد يخفي ما يعلم من صالح القول والعمل. هل وظيفة المسلم أن يلوك أخطاء الناس ويتتبع عثراتهم،

(١) السلسلة الصحيحة (٢٨٤).

(٢) صحيح الترغيب (٣٠٣).

(٣) صحيح الجامع (٣١٣٥).



ويعمى أن يرى حسناتهم، وكأنه لا يعرف ولا يرى إلا كفة السيئات؟ أليس في عيوبه ما يشغله عن عيوب الناس؟!.

أيها المؤمنون: إن المسلم الناصح شفوق بإخوانه، رفيق بهم، يحب لهم الخير كما يحبه لنفسه، ويجتهد لهم في النصح كما يجتهد لنفسه. أما الفظ القاسي صاحب القلب الغليظ.. فقد قضت سنة الله.. نفرة الناس منه، فلا تقبل منه دعوة، ولا يسمع منه توجيه، ولا يرتاح له جليس ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَطَا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَتَقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وعلى قدر ما يمسك الإنسان نفسه، ويكظم غيظه، ويملك لسانه تعظم منزلته عند الله وعند الناس.

وعلى قدر ما يتجاوز عن الهفوات، ويقلل من العثرات.. تدوم مودته ويأنس الناس به. إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن تسعوهم بأخلاقكم. يسعهم منكم بسط المحيا وطلاقة الوجه.

إن المخلص في المودة الصادق في المحبة لا يري لنفسه فضلا على غيره، ولا يكون عوناً للشيطان على صاحبه. روي أن أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مر على رجل قد أصاب ذنباً والناس يسبونهم فقال: «أرايتم لو وجدتموه في قليب - أي في بئر - ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم».

فاتقوا الله رحمكم الله وأجلوا أقرانكم، واحترموا زملاءكم وارحموا إخوانكم. واعرفوا لأهل الفضل فضلهم، وغضوا عن المقصرين، والقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وتودد إليها. فاعفوا واصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقُوهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُوهَا إِلَّا ذُوحَضٍ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ [فصلت: ٣٤-٣٦].

فاتقوا الله ربكم وخذوا بأحسن الأخلاق، وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة.

هذا وصلوا وسلموا...





الشكر (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله الولي الحميد، ذي العرش المجيد، الفَعَّال لما يُريد، أحمدُه سبحانه وأشكرُه وعدَّ الشاكرين بالمزيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة الإخلاص والتوحيد، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبدُ الله ورسولُه أفضلُ الأنبياء وأشرفُ العبيد، صَلَّى الله وسلَّم وبارك عليه، وعلى آله السادة الأطهار، وأصحابه البررة الأخيار ذوي القول السديد والنهج الرشيد، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الوعيد، وسلَّم التسليم الكثيرَ المزيد.

أما بعد:

فاتقوا الله - عباد الله - حقَّ التقوى، واستمسِكوا من الإسلام بالعروة الوثقى.
أيها المسلمون: يقول الله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١) فَادْكُرُوا فِي آذَانِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢]. ويقول سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

إنه خُلِقَ عظيمٌ، ومقامٌ من مقامات العبادة كريم، أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره. وعدَّ أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً لنعمه، وحافظاً لآلائه. أهله هم المنتفعون بآياته، اشتق لهم اسماً من أسمائه، هم القليلون من عبادِه، وحسبكم بهذا كله فضلاً وشرفاً وعلواً. إنه مقامُ الشكر، نصف الإيمان، وقسيم الصبر، فالإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر، ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ

لَا يَتَّبِعُ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ [إبراهيم: ٥]، فمن استكمل الشكر والصبر فقد استكمل حقيقة الإيمان.

أيها المؤمنون: إن معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله تُوجِبُ محبته وتعظيمه وإفراده، ومن أسمائه: الوهاب، ومن صفاته: الكرم، ومن كرمه: ما امتنَّ به على عباده من النعم، فأسبغ عليهم منها ما لم يسألوه إياها، ومنح لهم منها ما سألوه، ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وفتح عليهم نعمًا من السماء والأرض؛ ﴿وَإِنْ نَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وتذكَّرْ نعم الله داعيةً لشكره وتوحيده وكثرة عبادته، وهي من أسباب الفلاح؛ قال جل وعلا: ﴿فَاذْكُرُواْ ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

والله أمر رُسُلَه بتذكُّر نعمه عليهم، فقال لعيسى بن مريم عليه السلام: ﴿أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]. وقال لنبينا محمد ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨].

وأمر الرُّسُلُ أقوامهم بتذكُّر أفضال الله عليهم؛ فقال هود لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال صالح لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقال شعيب لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقال موسى لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦].

وقال سبحانه مُتَمَتِّيًا على الأوس والحزرج: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال لعباده المؤمنين: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأنفال: ٢٦].



فاذكروا نعم الله عليكم، لعلكم أن تشكروا إحسانه إليكم، فإن نعمه عليكم لا تُحصى، كما أن ذنوبكم لا تُحصى، لكن تذكّر النعم يورث الشكر، ونسيانها يورث الكفر، ولقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتذكرون نعم الله عليهم، فخرج عليهم النبي ﷺ، فسألهم فقالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا؛ رواه مسلم.

وجلس الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة يتذاكران نعم الله عليهما إلى الصباح. والله سبحانه بفضله نوع النعم لعباده؛ فمنها ما هو نازل من السماء، ومنها ما هو خارج من الأرض، ومنها ما هو في جوفها، والبحار المتلاطمة الأمواج مُدَلَّلة للإنسان، الفلك تمخرُّ في أعلاها، وما في بطنها من الصيد والطعام بما فيه ميته حلال لهم، وجواهرها من اللؤلؤ والمرجان ونفائس آخر حليّة لهم ومال. والنجوم والكواكب من فوقهم منها الجواري ومنها الكُنس، وفيها الوهاج وفيها ما هو زينة، منها ما يُبصر ومنها ما لا يُبصر، وما بين السماء والأرض رياح بُشْرِى بين يدي رحمته. والأرض مدّها فلا تصيّق بالخلق، وبالجبال أرساها، وأُنبت فيها من كل زوج بهيج. والإنسان خلقه ورَكَّبَه وفي أحسن صورة صَوَّرَه، وأمره بالتفكر في نفسه، وقال لعباده: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [لقمان: ١١].

بل كل ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما فهي هبة من الله للإنسان يستعين بها على طاعته، قال سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الحج: ١٣].

ولا تتم على العبد النعم إلا بالدين، الذي هو أكمل النعم وأعلاها: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. ومن المنة على هذه الأمة أن بعث فيها أفضل رُسُلِه وأنزل إليها خير كتبه، وجعلها خير أمة أخرجت للناس.

ومن رأى أن الله هداه لعبادته وتوحيده، مع ضلال غيره؛ عظمت نعمة الله عليه في قلبه؛ فوالله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا، ثم نعمة العافية أعظم نعمة دُنيوية؛ والفراغ كالصحة في قدر النعمة، ولكن قل من يشكرهما ويعرف قدرهما؛ قال عليه الصلاة والسلام:



«نِعْمَتَانِ غِبُونُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(١). وكرّم الله وإفرّ، وعطاؤه جزيل، ونِعْمُهُ تَزِيدُ بِالشُّكْرِ، وَمَنْ شُكِرَها الإِقْرَارُ بِأَنهَا مِنْ اللَّهِ؛ ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَأَتَانَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وَإِنْ بَقَاءُ النِّعْمَةِ مَقْرُونٌ بِالشُّكْرِ، فَإِنَّ النِّعْمَ إِنْ لَمْ تُشْكَرْ زَالَتْ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

عباد الله: إِنْ الْمَعَاصِي تَدْفَعُ حُلُولَ نِعْمَةٍ نَازِلَةٍ، أَوْ تَرْفَعُ نِعْمَةً حَادِثَةً، وَقَدْ لَا تَرْفَعُهَا وَلَكِنْ تُنْزِعُ الْبَرَكَةَ مِنْهَا، أَوْ تَكُونُ عَذَابًا لِصَاحِبِهَا، وَمَا أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا إِلَّا زَالَتْ عَنْهُ نِعْمَةٌ بِحَسَبِ ذَلِكَ الذَّنْبِ؛ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْمَعَاصِي نَارُ النِّعَمِ تَأْكُلُهَا كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ).

وَإِذَا رَأَيْتَ نِعْمَةً سَابِغَةً عَلَيْكَ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ، فَاحْذَرِهُ فَقَدْ يَكُونُ اسْتِدْرَاجًا لَكَ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ عَنْ قَوْمٍ: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيَّدِي مَتِينٌ ﴿الْقَلَمُ: ٤٤-٤٥﴾. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿فَلَعَنَاسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]^(٣).

وَإِذَا حَلَّتْ نِعْمَةٌ وَإِنْ قَلَّتْ فَإِنَّمَا تَزِيدُ الْمُؤْمِنَ الشَّاكِرَ إِيمَانًا وَتَزِيدُ الْجَاهِدَ الْكَافِرَ بِهَا بُعْدًا؛ فَقَدْ أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ فِي صَبِيحَتِهَا: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ»^(٣).

وَكُلُّ نِعْمَةٍ وَإِنْ كَانَتْ يَسِيرَةً سَيُسْأَلُ عَنْهَا الْعَبْدُ هَلْ شَكَرَهَا أَمْ جَحَدَهَا؛ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنْ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَيْ: مِنَ النِّعَمِ - أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ

(١) رواه البخاري (٦٤١٢).

(٢) رواه البخاري (٧٤٢٣)، وأحمد (٣٣٥ / ٢)، (٣٣٩).

(٣) متفق عليه.



جَسَمَكَ وَنَرَوِيكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟»^(١). وَالنَّعْمُ بِذَاتِهَا لَا تُقَرَّبُ مِنَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا حِينَ تُشْكِرُ وَيُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى طَاعَتِهِ؛ قَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وَقَدْ يُعَذَّبُ الْمَرْءُ بِالنَّعْمَةِ إِذَا لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ فِيهَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]. قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِنَّ اللَّهَ لِيُمَتِّعَ الْعَبْدَ بِالنَّعْمَةِ مَا شَاءَ، فَإِذَا لَمْ يَشْكُرْ رَبَّهُ عَلَيْهَا قَلَبَهَا عَذَابًا)، نَسَأَلَ اللَّهُ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ.

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَهَابٌ كَرِيمٌ يَدُهُ مَلَأَى سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لَكِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، يُعْطِي كُلَّ عَبْدٍ مَا يُلَاقِيهِ مِنَ النِّعَمِ، فَمَنْ النَّاسُ مِنْ بَسَطَ لَهُمْ فِي الْأَرْزَاقِ فَطَغَوْا وَبَغَوْا، وَتَكَبَّرُوا وَكَفَرُوا بِتِلْكَ النِّعَمِ، فَمَا زَادَتْهُمْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا، وَلَقَدْ مَنَعَ اللَّهُ بَعْضَ عِبَادِهِ وَضَيَّقَ عَلَيْهِمْ مِنْ حَبِّهِ لَهُمْ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ لَثَلَا يَقَعُوا فِيهَا وَقَعَ فِيهِ أَوْلَئِكَ، فَمَنَعَ مِنْ يَحِبُّ بَعْضُ مَا يَحِبُّونَ وَحَرَمَهُمْ مِمَّا إِلَيْهِ يَطْمَحُونَ، قَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَآئِشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۖ ١٦ أَن رَّاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦-٧]، وَقَالَ: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣].

فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ لَطِيفٌ رَحِيمٌ يَحْرُمُ الْعَبْدَ نِعْمَةً يَتَمَنَّاها، أَوْ يُنْزِلُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فِي لِبَاسٍ مُصِيبَةٍ لِيَرْفَعَ دَرَجَتَهُ، وَالْمُؤْمِنُ يَتَقَلَّبُ فِي حَيَاتِهِ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالرِّضَا، وَالصَّبْرِ وَالِاسْتِغْفَارِ.

بَارِكْ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَنَفْعِنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْتَغْفِرُوهُ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

الحمد لله، أحصى كل شيء وعلمه، وأتقن ما صنع وأحكمه، أحمده سبحانه على ما وهب من العلم وفهمه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من عرف الحق والتزمه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله صدع بالحق وأسمعه، صلى الله وسلّم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأنصار ممن عزّره ووقّره وكرّمه، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

أيها الناس: الشكر أمرٌ مستقرٌّ في سلوك المتعبّدين، ونهجٌ راسخٌ في نفوس الصالحين، تتلجّ به قلوبهم، وتلهجُ به ألسنتهم، ويظهرُ على جوارحهم.

وأول أنبياء الله نوحٌ عليه السلام، وصفه ربّه بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، والخليل إبراهيم صاحب الملة الحنيفية قال فيه ربّه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١]، ويقول سليمان عليه السلام وهو ينظرُ فيما خصّه به ربّه من نعمه وسخرَ له من مخلوقاته: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، ويقول: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

أما نبينا محمدٌ ﷺ وهو الذي قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فيقومُ لربّه من الليل حتى تنفطر قدماه، ويقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

الشكرُ اعترافٌ من العبد بمنّة الله عليه، وإقرارٌ بنعمه عليه من خيرَي الدنيا والآخرة في النفس، وفي الأهل والمال والأعمال، وفي شأن العبد كلّ، وهو دليلٌ على أن العبد راضٍ عن ربّه؛ فالشكرُ حياة القلب وحيويّته، وهو دليلٌ على صفاء النفس، وطهارة القلب، وكمال العقل؛ وإن الله جل وعلا خلقَ الناسَ من أجل أن يشكروه، يقول - جل وعلا -:



﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

والشكرُ أولُ وصيةٍ وصَّى بها الإنسان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤].

وأخبر - عزَّ شأنه - أن يرضى عمن شكره، فقال: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

كما جعل الشكر سبباً من أسباب الأمن من عذاب الله، يقول عزَّ شأنه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

بل لقد خصَّ الله الشاكرين بتوفيقهم وتفضيلهم على غيرهم من الناس، فقال جل وعلا: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

أيها الإخوة: وللشكر أركان ثلاثة: الاعتراف بالنعمة باطناً مع محبة المنعم، والتحدث بها ظاهراً مع الثناء على الله، وصرفها في طاعة الله ومرضاته واجتناب معاصيه.

يقول الحسن البصري رحمه الله: (الخير الذي لا شرَّ فيه: العافية مع الشكر؛ فكم من شاكرٍ وهو في بلاء، وكم من مُنعمٍ عليه وهو غير شاكر. فإذا سألتُم الله فاسأَلُوهُ الشكرَ مع العافية). وشكرُ الله واجبٌ في جميع الأحوال: في الصحة والسَّقم، والشباب والمهرَم، والفقر والغنى، والفراغ والشَّغل، والسَّراء والضَّراء، واليقظة والمنام، والسفر والإقامة، وفي الخلوة والاختلاط، قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم؛ فإن أمر المؤمن كله له خير، والخير في التسليم لما اختاره الله.

يقول أبو الدرداء: «من لم يعرف نعمَ الله عزَّ وجلَّ عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قلَّ علمُه». لأن نعم الله دائمة، وآلاءه مُتتَابِعَةٌ، ﴿وَأَتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال - عزَّ شأنه -: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسَغَعَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠].



واعلموا - وفقكم الله - أن وسائل الشكر لا تُحصَى، وميادينه لا تُحصَر، فاشكروا ربكم على ما أظهر من جميل، وعلى ما ستر من قبيح، وإن من شكرٍ نعم الله: حمدُ الله عليها؛ قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»^(١).

وتعدادُ النعم من الشكر، والتحدث بالنعم من الشكر، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، ومن أثنى فقد شكر، والمقصود بذلك الثناء على الله لا الثناء على النفس الذي يورث الكبر والأثر والبطر واحتقار الآخرين، بل التمدح بنعم الله مع التواضع لعباده والإنفاق مما أعطاك الله ابتغاء وجهه، والمُعاقى يتحدث بعافية الله له، ويُعمل جوارحه في طاعته.

وتذكر المحرومين من النعم يزيد من قدرها، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أوى إلى فراشه يحمّدُ ربّه على النعم، ويتذكّر من حرّمها؛ قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي»^(٢). والنظر إلى من هو دونه في الدنيا يفتح باب القناعة؛ قال عليه الصلاة والسلام: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»^(٣). واستعمال النعمة في الطاعة تحفظ تلك النعمة وتزيدها.

ومن أسباب دوام النعم: دعاء الله أن يقيها والاستعاذة من زوالها، ولقد كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك»^(٤). ويكون شكر النعمة بالصلاة؛ كما سبق أن النبي ﷺ كان يُصلي من الليل حتى تنفطر قدماه، ويقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟». ويكون بالصيام؛ فقد صام موسى يوم

(١) رواه مسلم (٢٧٣٤).

(٢) رواه مسلم (٢٧١٥).

(٣) رواه مسلم (٢٩٦٣).

(٤) رواه مسلم (٢٧٣٩).



عاشوراء شُكراً لله؛ إذ نَجَّاه وقومَه من فرعون وقومِه، ثم صامَه نبينا محمدٌ ﷺ وأمرَ بصيامِه، وقال لليهود: «نحن أحقُّ بمُوسَى منكم».

كما يكونُ الشكرُ بسجدة شكرٍ يسجدها المؤمن إذا جاءه خيرٌ من ربِّه، أو حدثت له نعمةٌ من مولاه، وقد سجدَ نبيكم محمدٌ ﷺ حين أخبره جبريل أن الله يقول: «من صَلَّى عليك صلاةً واحدةً صَلَّى الله عليه بها عشرًا». وسجدَ أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما بلغه مقتلُ مُسيلمة الكذاب. وسجدَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما بلغه مقتلُ الخارجيِّ ابنِ الثَّديَّة. وسجدَ كعبُ بن مالك لما تابَ الله عليه. يقول عبد الرحمن السُّلمي: (الصلاةُ شكرٌ، والصيامُ شكرٌ، وكلُّ خيرٍ يعملُه الله عزَّ وجلَّ الشكرُ، وأفضلُ الشكرِ الحمدُ).

والقناعةُ شكرٌ؛ فكن قانعاً تكن أشكرَ الناس، والمعروفُ رِقٌّ، والمُكافأةُ عِتْقٌ. ومن قُصُرَت يَدُه عن المُكافأةِ فليكثر من الشكرِ والثناء، ومن لا يشكرُ القليل لا يشكرُ الكثير. ومن الشكر: ألا يزالَ لسانُك رطباً من ذكرِ الله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥٢].

أبها الناس: وإن من فضل الله ورحمته ولطفه: أنه - جلَّ في علاه - يشكرُ لعباده، فهو الغفورُ الشكورُ؛ فالذي سقى الكلبَ شكرَ الله له فغفرَ له؛ فكيف بمن يُحسنُ للمسلمين، ويتفقدُ المحتاجين، ويتصدقُ على المعوزين، ويرحمُ المُستضعفين. والذي آخرَ غُصنَ الشوك عن الطريق شكرَ الله له فغفرَ له؛ فكيف بمن يسعى في تيسيرِ أمورِ الناس وتفريجِ همومهم وتنفيسِ كربهم؟!

ومن لطفه - عزَّ شأنه - أن جعلَ شكرَ الناس من شكرِ الله: «لا يشكرُ الله من لا يشكرُ الناس». ولقد جُبِلَت القلوب على حبٍّ من أحسنَ إليها، ولا أحدَ أعظمَ إحساناً من الله؛ فالخلوقُ يتقلبُ في جميعِ أحواله في نعمِ الله، ومن استعانَ بها على معصية الله فقد جحدَها، ومع كثرةِ النعمِ وتواردِها على العبادِ قلَّ من يشكرُها؛ قال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]. وإن التوفيقَ لشكرِ النعمة، هو نعمةٌ مستقلة بذاتها، كما قال محمود الوراق رَحِمَهُ اللهُ تعالى:



إذا كان شكري نعمة الله نعمة عليّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف وقوع الشكر إلا بفضلله
إذا مسّ بالسراء عم سرورها
وما منها إلا له فيه منّة
وإن طالت الأيام وأتصل العمر
وإن مسّ بالضراء أعقبها الأجر
تضيّق بها الأوهام والبرّ والبحر

فأحسنوا جوار نعم الله؛ فإنها قلّ ما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم، وإن
المفليح من تذكّر نعم الله عليه في القليل والكثير وشكرها، فالشكر قيد وصيد، قيد النعمة
الموجودة وصيد النعمة المفقودة،

ثم اعلّموا أن الله أمركم بالصلاة والسلام على نبيّه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ
عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلّ وسلّم على نبيّنا محمد، وارض اللهم عن خلفائه الراشدين الذين قضوا بالحق
وبه كانوا يعدّلون: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وعن سائر الصحابة أجمعين، وعنّا معهم
بجودك وكرمك يا أكرم الأكرمين. اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك..





الصبر عُدَّة المتقين (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله وَعَدَ الصَّابِرِينَ بِالْأَجْرِ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ، وَأَثَابَ الشَّاكِرِينَ عَلَى نِعَمِهِ فَنِعَمَ الثَّوَابُ، نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ الْمَأْبُ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ خَيْرُ مَنْ صَبَرَ وَصَابَرَ بِلا تَشَكُّ وَلَا ارْتِيَابٍ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَالْأَصْحَابِ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَصَابَرُوا وَرَاطَبُوا رَجَاءَ يَوْمِ الْحِسَابِ، وَاتَّقُوا رَبَّهُمْ فَاَنْفَتَحَ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّ بَابٍ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ طَاعَتَهُ أَقْوَمُ وَأَقْوَى، وَتَزَوَّدُوا لِآخِرَتِكُمْ وَاسْتَعِينُوا عَلَى دُنْيَاكُمْ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الْعَبْدَ فِي حَيَاتِهِ مُحْتَاجٌ إِلَى التَّحَلِّيِّ بِالصَّبْرِ فِي جَوَانِبِ حَيَاتِهِ كُلِّهَا، فَإِنَّهُ لَا اسْتِقَامَةَ وَلَا إِمَامَةَ، وَلَا فَوْزَ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا بِالتَّحَلِّيِّ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ، إِذْ هُوَ وَقُودٌ وَزَادٌ، وَقُوَّةٌ وَعَتَادٌ، يَحْتَاجُهُ الْمَرِيضُ فِي شَكْوَاهُ، وَالْمُبْتَلَى فِي بَلَوَاهُ، وَطَالِبُ الْعِلْمِ مَعَ كُتُبِهِ وَدُرُوسِهِ، وَالِدَاعِيَةُ لَا يَشُدُّ عَزْمَهُ مِثْلَ الصَّبْرِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ أَعْظَمُ وَصِيَّةٍ لَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] وَلَنْ تَجِدَ أَبَا فِي بَيْتِهِ، وَلَا مُعَلِّمًا فِي مَدْرَسَتِهِ وَلَا مَوْظِفًا فِي مَوْسَسَتِهِ، وَلَا خَادِمًا وَلَا عَامِلًا، إِلَّا وَهُمْ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ. إِنَِّّي رَأَيْتُ فِي الْأَيَّامِ تَجَرُّبَةً لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مَحْمُودَةً الْأَثَرِ وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرِ يُطَالِبُهُ فَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ



فَلَوْلَا الصَّبْرُ لَغَرِقَ الْمَهْمُومُ فِي بُحُورِ هُمُومِهِ، وَلَغَشَّتِ الْمَحْزُونُ سَحَابُ غُمُومِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا أَعْطَى الْمُؤْمِنَ عَطَاءً خَيْرًا وَلَا أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(١).

قَالَ الشَّيْخُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَإِنَّمَا كَانَ الصَّبْرُ أَعْظَمَ الْعَطَايَا؛ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِجَمِيعِ أُمُورِ الْعَبْدِ وَكَمَالَاتِهِ، كُلُّ حَالَةٍ مِنْ أَحْوَالِهِ تَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَحْتَاجُ إِلَى الصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ حَتَّى يَقُومَ بِهَا وَيُؤَدِّيَهَا، وَإِلَى صَبْرِ عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَتْرُكَهَا لِلَّهِ، وَإِلَى صَبْرِ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّمَةِ فَلَا يَتَسَخَّطُهَا، بَلْ إِلَى صَبْرِ عَلَى نِعَمِ اللَّهِ وَمَحَبُوبَاتِ النَّفْسِ، فَلَا يَدْعُ النَّفْسَ تَمَرُّحًا وَتَفَرُّحَ الْفَرَحِ الْمَذْمُومِ، بَلْ يَشْتَغِلُ بِشُكْرِ اللَّهِ، فَهُوَ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ يَحْتَاجُ إِلَى الصَّبْرِ وَبِالصَّبْرِ يَنَالُ الْفَلَاحَ) اهـ.

عِبَادَ اللَّهِ: وَلَا هَمِّيَّةَ الصَّبْرِ وَعُلُوَّ مَنْزِلَتِهِ فَقَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِي تِسْعِينَ مَوْضِعًا، فَأَمَرَ بِهِ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَرَاطِبُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وَقَالَ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وَجَعَلَ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ مَوْرُوثَةً عَنِ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وَحَتَّى فِي الْخُصُومَاتِ وَأَخِذِ الْحَقِّ الَّذِي لَكَ، نُذِبْتَ إِلَى الصَّبْرِ وَجُعِلَ هُوَ الْخَيْرَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

إِذَا مَا أَتَاكَ الدَّهْرُ يَوْمًا بِنَكْبَةٍ فَأَفْرِغْ لَهَا صَبْرًا وَأَوْسَعْ لَهَا صَدْرًا
فَإِنَّ تَصَارِيفَ الزَّمَانِ عَجِيبَةٌ فَيَوْمًا تَرَى يُسْرًا وَيَوْمًا تَرَى عُسْرًا

يَا مَنْ يَحَاوِلُ أَمْرًا صَعِبَ عَلَيْهِ بُلُوغُهُ، وَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ حَصُولُهُ، صَبْرًا قَلِيلًا، لَا تِيَأْسُ وَلَا تَقْنَطُ، وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، فَإِنَّهُ مَا نَالَ مِنْ نَالٍ إِلَّا بِالصَّبْرِ وَالْمَثَابَةِ، وَرُبَّ فَشَلٍ اسْتَحْذَرَهُ عَلَى النَّفْسِ وَقَدْ أَوْشَكَتْ أَنْ تَبْلُغَ الْمَقْصُودَ، اصْنَعْ مِنَ الْمَحْنِ مَنَحًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاعْلَمْ بِأَنَّ الصَّعُوبَاتِ وَالْعُقَبَاتِ تَقْوِيكَ وَتَصْقِلُكَ.

(١) رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣).



إني رأيتُ وفي الأيامِ تجربةً للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقلَّ مَنْ جَدَّ في أمرٍ يُحاولُهُ واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ: وَإِنَّ أَعْظَمَ الْحَيْرِ فِي الصَّبْرِ أَنَّ أَجْرَهُ لَا يُقَدَّرُ وَلَا يُحَدُّ، ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وَإِذَا وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَشَقَّةً وَعَتَّةً، أَتَتْ مَحَبَّةُ اللَّهِ لِلصَّابِرِينَ، وَمَعِيَّتُهُ لَهُمْ لِتُخَفِّفَ عَنْهُمْ وَطَأَةً مَا يَلْقَوْنَ، وَتُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ صُعُوبَةَ مَا يَعَانُونَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وَحِينَ يَفْرَحُ أَنَاسٌ بِمَا نَالُوهُ مِنْ مَتَاعٍ دُنْيَوِيٍّ زَائِلٍ، أَوْ تَحَقَّقَ لَهُمْ مَا مَتَّوَهُ، يَأْتِي فَلَا حُصُولَ الصَّابِرِينَ، بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ الْحَسَنَةَ، وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ سَيَكُونُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ؛ لِئَلَّا يَبْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝١٣﴾ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّودَاءُ، أَتَتْ النَّبِيَّ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ لِي، قَالَ: «إِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ وَلَكَ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيكَ»، فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفُ، فَدَعَا لَهَا^(١)!

وَأَمَّا حِينَ يَكْبُرُ مَكْرُ الْأَعْدَاءِ وَيَعْظُمُ كَيْدُهُمْ وَيَشْتَدُّ أَذَاهُمْ، فَإِنَّ الصَّبْرَ وَالتَّقْوَى هُمَا خَيْرُ عِلَاجٍ وَأَنْجَعُ وَسِيلَةٍ لِإِبْطَالِ كَيْدِهِمْ وَإِخْمَادِ عِدَاوَتِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، فَلَا تَظُنُّوا يَا مُؤْمِنُونَ أَنَّ مِنْ ابْتِلَى بِفَقْرٍ أَوْ غَمٍّ أَوْ مَرَضٍ أَوْ ظَلَمٍ؛ أَنَّ اللَّهَ سَيَخْذُلُهُ، كَلَّا وَرَبِّي، قَالَ اللَّهُ عَنْ يُونُسَ: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولما كان الإيمان نصفين نصف صبر ونصف شكر كان حقيقاً على من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين الأصلين العظيمين ولا يعدل عن هذين الطريقين القاصدين وأن يجعل سيره إلى الله بين هذين الطريقين ليجعله الله يوم لقائه مع خير الفريقين).

(١) رواه البخاري (٥٦٥٢) ومسلم (٢٥٧٦).



وَكَمَا اَمْتَدَحَ اللهُ الصَّبْرَ فِي كِتَابِهِ، فَقَدْ زُحِرَتْ سُنَّةُ النَّبِيِّ وَسِيرَتُهُ قَوْلًا وَعَمَلًا، وَكَفَاكَ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ أَنْ تَسْمَعَ طَرَفًا مِنْهَا لِتَشْتَاقَ نَفْسُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْعَلِيَّةِ الْأَخْيَارِ، الْحَائِزِينَ عَلَى الصَّبْرِ وَالْمَدَحِ وَالنَّوَالِ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتِيهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ»^(١)، وَقَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّةً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةَ»^(٢) وَفِي الْمُسْنَدِ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ قَالَ: «وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكَرَّرَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(٣) وَقَالَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُحَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمَ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُحَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»^(٤). وَقَالَ: «الصَّبْرُ ضِيَاءٌ»^(٥)

هكذا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، يَظُلُّ الصَّبْرُ سِرَاجًا لَنَا فِي دُرُوبِ الْحَيَاةِ، وَنُورًا فِي ظُلُمَاتِ الْفِتَنِ، وَرَفِيقًا فِي غُرَبَةِ الزَّمَنِ، حَتَّى إِذَا وَصَلَتِ الْفِتْنُ أَوْجَهَا فِي مِثْلِ عَصْرِنَا، مِنْ شُبُهَاتٍ وَشَهَوَاتٍ، وَتَسْلُطٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَضَعْفٍ مِنَ الصَّالِحِينَ وَالْفُقَهَاءِ! فَلَاحِجٌ أَنْجَعُ مِنْ صَبْرٍ جَمِيلٍ مَعَ إِحْسَانٍ فِي الْعَمَلِ، قَالَ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهِنَّ يَوْمِئِذٍ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرٌ خَمْسِينَ مِنْكُمْ» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَوْ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «بَلْ مِنْكُمْ»^(٦).

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا مُسْلِمُونَ، وَاصْبِرُوا، ﴿قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُسُفُّ قَالَ أَنَا يُسُفُّ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقَ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾
[يوسف: ٩٠]، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَجْبُولًا عَلَى الصَّبْرِ وَمُعْتَادًا لَهُ، فَلْيَتَصَبَّرْ وَلْيَجَاهِدْ نَفْسَهُ عَلَيْهِ يُفْلَحْ،
قَالَ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحْلُمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّرَ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ»^(٧).

(۱) رواه البخاری (۵۶۵۳).

(۲) رواه البخاری (۶۴۲۴).

(۳) مسند أحمد (۴/ ۲۸۷) وصححه أحمد شاكر .

(٤) صحيح ابن ماجه (٣٢٧٣).

(۵) رواہ مسلم (۲۲۳).

(٦) صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ (٤٩٤).

(٧) حسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٢٨).



وَقَالَ: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ»^(١).

فهذه الدار دار ابتلاء وصبر وأجر..

جَبِلْتُ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفُوءًا مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَكْدَارِ؟
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ فَوْقَ طَبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارٍ

يقول الحافظ أبو نعيم: (لما توفي ذر بن عمر الهمداني، جاء أبوه، فوجده قد مات، فوجد أهل بيته يبكون، فقال: ما بكم؟ قالوا: مات ذر، فقال: الحمد لله، والله ما ظلمنا ولا قهرنا ولا ذهب لنا بحق، ثم غسَّله وكفَّنه، وذهب فصلي مع المصلين، ثم ذهب به إلى المقبرة، ولما وضعه في القبر قال: رحمك الله يا بني، قد كنت بي باراً، وكنت لك راحماً، والله يا ذر ما ذهبت لنا بعز، وما أبقيت علينا من ذل، ولقد شغلني -والله- الحزن لك عن الحزن عليك، يا ذر -والله- لولا هول يوم المحشر لتمنيتُ أني صرْتُ إلى ما صرتَ إليه، يا ليت شعري ماذا قيل لك وبماذا أُجبت؟ ثم رفع يديه باكياً فقال: اللهم إنك قد وعدتني الثواب إن صبرتُ، اللهم ما وهبت لي من أجر فاجعله لذر صلة مني، وتجاوز عنه، فأنت أرحم به مني، اللهم إني قد وهبت لذر إساءته فهب له إساءته، فأنت أجود مني وأكرم، ثم انصرف ودموعه تقطر على لحيته، وهو يقول: يا ذر قد انصرفنا وتركناك، ولو أقمنا ما نفعناك، وربنا قد استودعناك، والله يرحمنا وإياك..). قال سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز عندما مات ولد سليمان: (أصبر المؤمن حتى لا يجد لمصيبته ألماً؟ قال يا أمير المؤمنين: لا يستوي عندك ما تحب وما تكره، ولكن الصبر معول المؤمن).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿[العصر: ١-٣].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفَعني وإياكم بهدي سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، ونشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورَسُولُهُ الصَّادِقُ الأَمِينُ، اللهم صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين؛ أَمَّا بَعْدُ:

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لقد ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الصَّبْرَ هُوَ: حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَكُفُّهَا عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَالِدَوَامُ عَلَى ذَلِكَ. وَقَسَمُوا الصَّبْرَ، إِلَى أَقْسَامٍ ثَلَاثَةٍ: صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَصَبْرٌ عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَثَالِثُهَا الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّةِ.

فَالنُّوعَ الْأَوَّلُ: أَعْظَمُهَا؛ لِأَنَّ الْعِبَادَاتِ شَاقَّةٌ عَلَى النَّفْسِ؛ وَتَحْتَاجُ إِلَى مُصَابَرَةٍ وَمُجَاهَدَةٍ، فَالصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ، وَالْحَجُّ وَالزَّكَاةُ، وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، كُلُّهَا تَحْتَاجُ إِلَى الصَّبْرِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وَقَالَ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: الصَّبْرُ عَنِ الْوُقُوعِ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى، وَذَلِكَ بِكَفِّ النَّفْسِ وَكِبْحِ جَمَاحِهَا عَنْ فِعْلِ مَا تَشْتَهِي مِنَ الْحَرَامِ، وَاقْتِرَافِ مَا تَهْوَاهُ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ، وَأَفَةُ الْمُنْكَرَاتِ فِي هَذَا الزَّمَنِ، أَنْ سَهَلَ الْوُصُولُ الْحَرَامِ فَكَانَ أَقْرَبَ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ يَدِهِ لِعَيْنِيهِ، فَالْقَنَوَاتُ وَالشَّبَكَاتُ وَالْأَجْهَزَةُ الذَّكِيَّةُ، إِنْ لَمْ نَصْبِرْ عَنِ الْحَرَامِ الَّذِي فِيهَا، أوردتنا المهالك والمضار! ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ مِيَالَةً إِلَى الْآثَامِ، تَوَاقُّةٌ إِلَى الشَّهَوَاتِ، فَإِنْ لَمْ نُلْجِمْهَا بِتَقْوَى اللَّهِ وَالصَّبْرِ عَنْ مَعَاصِيهِ، أدركتنا الأخطار، وأهلكتنا الأوزار، ولقد قال الله لعباده المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بَشْيَاءً مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، فحين حَرَّمَ الصَّيْدَ عَلَى الْحَاجِّ الْمُحْرَمِ، اخْتَبَرَهُ بِأَنْ يَأْتِيَ الصَّيْدَ إِلَى مَتَنَاوِلِ يَدِهِ، لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ، وَإِنْ قُرِبَ الشَّهَوَاتُ وَسَهَوَلَةُ الْوُصُولِ إِلَى الْمَعَاصِي هَذِهِ الْأَيَّامِ إِنَّمَا هِيَ ابْتِلَاءٌ وَاخْتِبَارٌ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ. وَإِنْ أَعْظَمَ عِلَاجٌ بَعْدَ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى هُوَ قَوْلُ اللَّهِ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ



تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿[الكهف: ٢٨] فَإِنْ رُفِقَ الْأَخْيَارُ أَفْضَلُ مُعِينٍ عَلَى الثَّبَاتِ فِي زَمَنِ الشَّهَوَاتِ وَالشَّبَهَاتِ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّالِثُ: فَهُوَ صَبْرٌ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّةِ وَعَلَى مَصَائِبِ الْحَيَاةِ الْمُتَنَوِّعَةِ، فَمَنْ مِنَ الْبَشَرِ مِنْ سَلِمَ مِنْ ذَلِكَ؟ مَنْ مَنَّا مَنْ لَمْ يُصَبِّ بِمَرَضٍ؟ مَنْ مِنَ الْبَشَرِ مَنْ لَمْ يَفْقَدْ مَا لَا؟ أَوْ قَرِيبًا أَوْ عَزِيزًا؟

ولهذا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] فَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، وَهِيَ ابْتِلَاءٌ وَهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ، وَلَمْ يَقُلْ: بِالْخَوْفِ كُلِّهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ: بِالْخَوْفِ، لَأَهْلَكَهُمْ؛ وَإِنَّمَا يَبْتَلِيهِمْ بِشَيْءٍ مِنْهُ؛ لِأَنَّ مَقْصُودَهُ تَحْصِيصُهُمْ وَتَطْهِيرُهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ. فَتَلَفُ الْأَمْوَالِ، وَمَوْتُ الْأَحْبَابِ، وَالْمَرَضُ، نَقْصٌ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ وَمُصَابَرَةٍ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ! وَنَحْنُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ قِسْمَانِ: قِسْمٌ جَازِعٌ سَاخِطٌ مُهْلِكٌ نَفْسَهُ بِالْأَسَى وَالْحَسْرَةِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يَصِلُ إِلَى التَّسَخُّطِ عَلَى اللَّهِ، وَلَطَمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الثِّيَابَ، وَنَفَسَ الشُّعُورَ، فَهَذَا قَدْ جَمَعَ عَلَى نَفْسِهِ مُصِيبَتَيْنِ، فَوَاتَ الْمَحْبُوبَ، وَفَوَاتَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الَّذِي رَتَّبَهُ اللَّهُ لِلصَّابِرِينَ، لَا هُوَ الَّذِي سَلِمَ مِنَ الْمَصِيبَةِ، وَلَا هُوَ الَّذِي نَالَ ثَوَابَهَا حِينَ قَدْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ.

وَقِسْمٌ رَاضٍ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، فَهَؤُلَاءِ بَشَّرَهُمْ بِبَشَارَةِ اللَّهِ لَهُمْ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَعْدُودٍ وَلَا مُقَدَّرٍ؛ جَزَاءٌ لَهُمْ عَلَى عَظِيمِ مَا صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ؛ لَأَنَّهُمْ: ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فَتَحْنُ نَمْلُوكُونَ اللَّهَ، مُدَبَّرُونَ تَحْتَ عَوْنِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ؛ فَكَانَ جَزَاؤُهُمْ: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] فَهُمْ الْمُؤَقَّفُونَ لِلْحَقِّ وَالرَّحْمَةِ! وَلِهَذَا عَجَبَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ حَالِ الْمُؤْمِنِ فَقَالَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ»^(١). وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فَاقِدٌ الرَّحْمَةِ وَالْأَحَاسِيْسِ، كَلَّا فَتِلْكَ رَحْمَةٌ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ بَدُونِ تَسَخُّطٍ وَلَا عَوِيلٍ وَلَا



اعتراضٍ على قَدَرِ الله تعالى، فِي الصَّحِيحِينَ: أَنَّ النَّبِيَّ لَمَّا دَخَلَ عَلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، جَعَلَتْ عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! فَقَالَ النَّبِيُّ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرِضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ» فَقَالَ لَهُ سَعْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟! فَقَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنِ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءُ»^(١).

أحد السلف كان أقرع الرأس، أبرص البدن، أعمى العينين، مشلول القدمين واليدين، وكان يقول: (الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلق وفضلني تفضيلاً) فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: مِمَّ عَافَاكَ؟ أَعْمَى وَأَبْرَصٌ وَأَقْرَعٌ وَمَشْلُولٌ. فَمِمَّ عَافَاكَ؟ فَقَالَ: (وَيَحْكُ يَا رَجُلُ! جَعَلَ لِي لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَبَدَنًا عَلَى الْبَلَاءِ صَابِرًا!).

فَأَيْنَ الصَّابِرُونَ عِنْدَ الْمُحَنِ؟ أَيْنَ الصَّابِرُونَ عَلَى أَذَى النَّاسِ؟ أَيْنَ الصَّابِرُونَ عَلَى الْقِيَامِ بِالطَّاعَاتِ، وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ؟ أَيْنَ الصَّابِرُونَ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ وَالشَّهَوَاتِ؟ أَيْنَ الصَّابِرُونَ عَلَى الْبَلَايَا وَالرَّزِيَّاتِ؟ رَوَى ابْنُ حَجَرٍ فِي الْإِصَابَةِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَصَابَهُ مَرَضٌ أَقْعَدَهُ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَمَا اشْتَكَى حَتَّى إِلَى أَهْلِهِ، فَكَانَتْ الْمَلَائِكَةُ تَصَافِحُهُ وَقْتَ السَّحَرِ.

وهذا هو الصَّبر الجميل، كما في قوله تعالى على لسان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، قال القرطبي: (المراد به الصَّبر الذي لا جزع فيه ولا شكوى)^(٢)، وقال ابن جريج عن مجاهد إِنَّ الْمَعْنَى: (لا أشكو ذلك لأحد)^(٣). وقال أبو حيان: (المعنى: أَتَجَمَّلُ لَكُمْ فِي صَبْرِي فَلَا أَعَاشِرُكُمْ عَلَى كَابَةِ الْوَجْهِ، وَعَبُوسِ الْجَبِينِ، بَلْ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ)^(٤).

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٥٢/٩).

(٣) تفسير القرطبي (٢٤٧/٩).

(٤) تفسير البحر المحيط (٢٩٠/٥).



قال ابن تيمية: (ذكر الله تعالى في كتابه: الصبر الجميل، والصّبح الجميل، والهجر الجميل. الصبر الجميل: هو الذي لا شكوى فيه ولا معه، والصّبح الجميل: هو الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل: هو الذي لا أذى معه).

فتسلّحوا عباد الله بالصبر، فإنه ضياء في الظلمة، ومُتَكأ عند المحنة، وتذكروا بأنكم في دار مر وابتلاء، وليست دار مقر وبقاء، ومن أتته مصيبة فليذكر أن الجنة حُفَّت بالمكاره، وليذكر صبر النبي وما لاقاه، وهو الأسوة الحسنة لكل مؤمن صابر، وليتذكر أعظم مصيبة حلّت على هذه الأمة، وهي موت النبي محمد ﷺ.

قال عليه الصلاة والسلام: «إذا أصاب أحدكم مصيبةٌ، فليذكر مصيبتَه بي؛ فإنها من أعظم المصائب»^(١).

اصبر لكلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدْ	واعلم بأنَّ المرءَ غَيْرُ مُحَلَّدٍ
أَوْ مَا تَرَى أَنَّ الْمَصَائِبَ جَمَّةٌ	وَتَرَى الْمَنِيَّةَ لِلْعَبَادِ بِمَرَصِدٍ
مَنْ لَمْ يُصَبِّ مِمَّنْ تَرَى بِمُصِيبَةٍ؟	هَذَا قِيلَ لَسْتَ فِيهِ بِأَوْحِدٍ
وَإِذَا أَتَتْكَ مُصِيبَةٌ تَشْجِي بِهَا	فَاذْكُرْ مُصَابَكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، آمَنَّا بِاللَّهِ وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ.



(١) رواه الدارمي وصححه الألباني.



الصدق (١)

الخطبة الأولى:

• إن الحمد لله، جل من رب وتعالى من إله، هو سبحانه رب كل شيء ومليكه ومولاه، وهو العلي الأعلى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له عالم السر والنجوى، والمؤمل لكشف كل بلوى، ورفع كل لأوى، سبحانه وبحمده ليس في الكون رب سواه فيدعى، وليس في الوجود إله غيره فيرجى، وليس في المألأ حكم غيره فترفع إليه الشكوى، وأشهد أن نبينا وقودتنا محمداً عبد الله ورسوله النبي المصطفى، والرسول المجتبى، والحبيب المرتضى، بلغ رسالة ربه فيما ضل وما غوى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

صلى الله عليه وعلى آله أنوار الهدى، وصحبه مصابيح الدجى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم واقتفى، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا عباد الله: خير الوصايا وصية رب البرايا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] فاتقوا الله رحمكم الله، فبالتقوى العصمة من الفتن، والسلامة من المحن.

في سير أعلام النبلاء^(٢) أن سليمان بن يسار دخل على الخليفة هشام بن عبد الملك، فقال الخليفة: (يا سليمان، من الذي تولى كبر الإفك؟ قال: عبد الله بن أبي بن سلول. فقال: كذبت، هو علي، فسكت سليمان. ثم دخل بعد ابن شهاب، فسأله هشام، فقال: هو عبد الله بن أبي، قال: كذبت، هو علي. فانتفض الزهري وتغير لونه وقال: أنا أكذب لا أبا لك؟!)

(١) منصور بن محمد الصقوع.

(٢) (٥/٣٣٩).



والله الذي لا إله غيره لو نادى مناد من السماء: إن الله أحل الكذب ما كذبت، فما زال الأمير يجلّه بعد ذلك الكلام).

الصدق -أيها الفضلاء- خلق الكرام، وخلّة أكد عليها الإسلام، هي صفة من اتصف بها نجا ومن اتصف بخلافها هوى، بالصدق تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال ومحك الأحوال، الصدق -كما قال ابن تيمية-: (أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها، الصادق ما يزال به صدقه حتى يوصله إلى الجنة، والكاذب ما يبرح به كذبه حتى يهديه إلى النار).

معشر الكرام، من خالط الناس رأى فيهم الصادق والكاذب، رأى فيهم الكاذب في أقواله فلا يحدث إلا بالكذب، إذا حدّث افترى وكذب في حديثه، وإذا واعد وعاهد لم يتم وعده، وتراه في أفعاله كاذبًا كما هو في أقواله، وذاك لا تراه إلا مبعوضًا من العباد ومن رب العباد.

ولكن الكرام النبلاء والصالحين الفضلاء لا يعرف الكذب لألستهم ولا لأفعالهم طريقًا، بل الصدق هديهم وإن كان فيه حتفهم، لعلمهم أن النجاة هي أن ينجو المرء عند رب البريات، فهم يفكرون لنجاة أنفسهم في الآخرة لا في الدنيا، لأنهم يسمعون من مقول رسولهم ﷺ التأكيد على الصدق، فصادق الإيمان لا يكذب وهو يسمع قول المصطفى ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ حَتَّى يَكُونَ صَدِيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ حَتَّى يَكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا»^(١). أي مؤمن يقدم على الكذب وهو يسمع الحديث: «إِنَّ الصِّدْقَ طَمَأْنِينَةٌ، وَالْكَذِبُ رَيْبَةٌ»^(٢)، وهو يسمع: «أربع إذا كنّ فيك فلا عليك ما فاتك في الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليفة، وعقّة في طعمة»^(٣)؛ ولهذا ضربوا في الصدق مثلاً للخلق، تجليه مواقفهم وترجمه كلماتهم.

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧).

(٢) صحيح الترغيب (٢٩٣٠).

(٣) رواه أحمد (١٠/١٣٨) وصححه أحمد شاكر والألباني في صحيح الترغيب (١٧١٨).



لما تخلف كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورجع النبي ﷺ من غزوه جاء كعب إليه، فسأله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا كعب، ما الذي خلفك؟» فقال: يا رسول الله، لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى اللَّهِ، وَاللَّهُ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ، وَاللَّهُ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أما هذا فقد صدق»^(١). وبصدقه أنجاه الله وتاب عليه وبقي من كذبوا لا يؤبه لهم.

وكان من السلف من يقول: ما يسرني أني كذبت كذبة وأن لي الدنيا وما فيها. ومنهم القائل: والله ما كذبت كذبة قط منذ بلغت. وأوصى أحدهم بنيه عند موته قائلاً: يا بني، عليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتيلاً ثم سئل عنه أقرب به، والله ما كذبت كذبه منذ قرأت القرآن^(٢).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرك، فإنه ينفعك، ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك»^(٣)، وقال: «لا تنظروا إلى صيام أحد ولا صلاته، ولكن انظروا إلى صدق حديثه إذا حدث وأمانته إذا ائتمن وورعه إذا أشفى»^(٤).

وإذا الأمور تراوحت	فالصدق أكرمها نتاجاً
الصدق يعقد فوق رأس	حليفه بالصدق تاجاً
والصدق يقدح زنده	في كل ناحية سراجاً

وقيل للقيمان الحكيم: ما بلغ بك ما نرى؟ قال: (صدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعينني).

وأما ربعي بن حراش فإنه لم يكذب منذ علم أن الكذب حرام، ولما طلب الحجاج ولديه ليرسلهما إلى الحرب اختبأ، فقيل للحجاج: (إن ربعياً لم يكذب فسله عن بنيه، فدعاه وقال له:

(١) رواه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩).

(٢) حلية الأولياء (٨٥/٦).

(٣) مدارج السالكين.

(٤) حلية الأولياء (٢٧/٣).



ما فعل ابنك يا رباعي؟ فصدقه القول وقال: هما في البيت مختبئين، فقال الحجاج: وهبناكهما لصدقك، وعفا عن ابنه^(١).

فرحم الله أولئك القوم، صدقت ألسنتهم، وأعدوا لكلماتهم عند ربهم جواباً، قال ابن دقيق: (ما تكلمت كلمة ولا فعلت فعلاً إلا وأعدت له جواباً بين يدي الله عز وجل).

معشر المسلمين: ما أجمل أن يكون الصدق رائدنا في كل أحوالنا، فإذا تكلمت فاصدق في مقالك، واعلم أن في الصدق نجاتك، وإن بدى لك غير ذلك، واذكر أن الصادقين لهم عند الله الشأن العظيم، وأن الله يسمع حديثك ويعلم صدقك من كذبك.

إذا سُئِلَ عن أحدٍ فاصدق في قولك، ولا تغش من سألك، فكم من طلاق وقع وامرأة زوجت لغير كفتها لأجل أن من سُئِلَ عنه ما صدق في قوله، أو لأجل أن الزوج ما صدق في حقيقة أمره وألبس نفسه ثوباً ليس له، فغش من تقدم إليه.

تجنب الكذب ولو لإضحاك الناس، ولا يغب عن بالك قول الرسول ﷺ: «ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له، ويل له»^(٢).

واصدق في وعودك حين تعد، فالله أثنى على إسماعيل بوفائه بوعده فقال: ﴿وَأَذْكُرِي الْأُكْتَبِ إِسْمَاعِيلُ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]، فما بال البعض يعد ولا يفي بما وعد؟! وذاك خصلة من النفاق «إذا وعد أخلف»^(٣).

وكن على حذر من الكذب في الأحلام والرؤى، وأن تري عينك ما لم تر، ففي الحديث عند البخاري: «إن من أفرى الفرى أن يري المرء عينيه ما لم تر»^(٤).

وإذا خطت يدك كلاماً في أي وسيلة مقروءة فلا تكذب فيها تكتب، فكم من كاتب في جريدة أو في موقع إلكتروني كذب كذبة فسارت بها الركبان، والنبي ﷺ أخبر أنه رأى رجلاً

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٦٠).

(٢) حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٩٩٠).

(٣) رواه البخاري (٣١٧٨) ومسلم (٥٩).

(٤) رواه البخاري (٧٠٤٣).



يشر شر شذقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، وحين سأل عنه قيل له: هذا الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق.

وحتى في عِداتك لأولادك تحر الصدق معهم، ولأن لا تعد أهون من أن تعد فتخلف، وفي الحديث عن عبد الله بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَعْدُ فِي بَيْتِنَا فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ هَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ»، فَقَالَتْ: أُعْطِيَهُ تَمَرًا، فَقَالَ هَا: «أَمَّا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تُعْطِيَهُ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكَ كِذْبَةٌ»^(١).

الصدق الخلاص من الدّنس	اصدق حـديثك إن في
خير من الكذب الخرس	ودع الكـذوب لشـأنه
إن اللسان لما عودت معتاد	عود لسانك قول الصدق تحظ به

(١) حسّنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٩٩١).

الخطبة الثانية:

• عباد الله: وإذا كان ما مضى من الحديث هو في الصدق في الأقوال فإن ثمة أنواعاً من الصدق أخرى يجدر ذكرها، وربما كانت أهم من الصدق في القول وأكد:

الصدق في النية، أن يتعامل العبد مع الله بالصدق، فلا يظهر للناس خلاف ما يبطن، ويصدق مع الله في نيته الخير وطلبه له.

والصدق في الأفعال مطلب من شرائف الأمور، فما الذي ينفع العبد أن يظهر الخشوع أمام الناس أو يظهر غيرته وصلاحه وزهده وهو بخلاف ذلك، فالؤمن الصادق هو الذي ترى سريرته كعلانيته أو أصفى، ولذا قال السلف: (إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور).

وما أجهل أن يكون المرء صادقاً مع الله في سائر أحواله، فإذا دعا ربه صدق في سؤاله، وإذا خاف الله أو رجاه أو أحبه أو عظمه صدق في ذلك، فليست الأمور بالكلام، بل بالحقائق، فكلُّ يقول: إنه يحب الله، لكنك حين تبحث عن الصادق في محبته لربه الذي يترك ما عنه نهى ويفعل أمره ولو صعب لأنه يحب ربه لا تكاد تجده إلا قليلاً، فالصادق مع الله عبدٌ يرضى عن الله في أقداره، يصبر تجاه بلاءه، يعبد ربه في جلوته وخلوته، يحب ربه من قلبه.

وجماع الأمر -أيها الكرام- أننا كلنا بحاجة إلى الصدق لتستقيم أمورنا.

فالمرابي والمعلم بحاجة إلى الصدق في تربيته، فيسعى لتخريج نشء ينفع الله به، ويربطه بمعالي الأمور، ويربي الصغار منذ صغرهم على الصدق. والداعية بحاجة إلى الصدق في دعوته، فلا يبغى بدعوته أمر دنيا، وتكون أفعاله توافق أقواله، ولا يقول إلا صدقاً، ولا يتكلم إلا بما فيه صلاح الناس. والمسلم يصدق في كلامه ووعوده، وأفعاله وقلبه وعهوده، فلا تنطق شفتاه بالكذب وإن قلّ، وطوبى لمن رأى في صحفите صدقاً، ويا خيبة من سود صحيفته بالكذب، وإذا كان الله سيسأل الصادقين عن صدقهم فما ذا سيكون حال الكاذبين؟!

اللهم طهر ألسنتنا من الكذب وسيء الأقوال، واهدنا لأحسن الأخلاق والأعمال..



العفة والعفاف (١)

الخطبة الأولى:

• إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله.

أَمَّا بَعْدُ:

فاتقوا الله تعالى -أيها المسلمون-، واعلموا أنكم إليه راجعون، وبأعمالكم مجزيون، وعليها محاسبون، وأن المصير حق إلى جنة أو نار، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَانَّهُمْ رَبُّهُمْ إِنْهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥-١٦].

عباد الله: ما طعم الطاعمون كاللحال الكفاف، وما لبسوا خيرا من رداء التقوى والعفاف.

العفاف والعفة -أيها المسلمون- سيم الأنباء وحليّة العلماء وتاج العباد والصالحاء. العفاف سلطان من غير تاج، وغنى من غير مال وقوة من غير بطش وخلق كريم وصفة نبيلة. هو عنوان الأسر الكريمة والنفوس الزكية الشريفة ودليل التربية الصالحة القويّة. هو موجب لظلّ عرش الرحمن ذي الجلال كما في حديث الذي دعت امرأه ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله. والعفة والعفاف سبب إجابة الدعاء وتجاوز الأخطار كما ورد في حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم صخرة الغار. الحرص عليه جيلة في البشر وطبع عند أصحاب



العقول وسليم الفطر. العفة -أيها المؤمنون- كف النفس عما لا يحل ولا يجمل وضبطها عن الشهوات المحرمة وقصرها على الحلال مع القناعة والرضا. إنه خلق زكي، ينبت في روض الإيمان، ويسقى بهاء الحياء والتقوى. إنه سمو النفس على الشهوات الدنيئة وترفع الهمة عما لا يليق، بل يفيض هذا الخلق بكل الخصال النبيلة، فصاحبه ليس بالهلوع ولا الجزوع ولا المنوع، كما في سورة المعارج: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَفِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥]، ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥]. إنها جنة وكرامة؛ لأن العفيف كريم على الله حيث أكرم نفسه في الدنيا عن الدنایا، فأكرمه الله في الآخرة بأعلى الدرجات وأحسن العطايا، واستحق ميراث الجنان؛ لأن الميراث للطاهرين كما في سورة المؤمنون: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١] بعد أن حقق لهم الفلاح في أول السورة. وفي صحيح مسلم لما ذكر النبي ﷺ أهل الجنة ذكر منهم: «عفيف متعفف» (١).

وحين تُعرض القصص فإن أحسنها قصة يوسف الكريم ابن يعقوب ابن خليل الله إبراهيم حين يكون العفاف سيد الموقف في ظرف تنهاوى فيه عزائم الرجال الأشداء، فضلاً عن فتى غريب نائي الأهل والديار، حين راودته التي هو في بيتها عن نفسه، ﴿وَعَلَّقَتْ الْأُتُورُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]. معاذ الله، إنها كلمة عظيمة في موقف عصيب لا يقوى عليه إلا صاحب الإيمان، فيصبر عليه السلام رغم الوعد والوعيد والسجن والتهديد، ويتجاوز المحنة، فاتاه الله الملك وعلمه من تأويل الأحاديث، وأعظم من ذلك أنه من عباد الله المخلصين. وفيه من العبر أن العفة عاقبتها الغناء والاستغناء ونور القلب والبصيرة والضياء والعلم والفراسة والتوفيق؛ ذلك أن العفة في حقيقتها مراقبة الله تعالى وخوفه، ومن راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحه وأسبغ عليه رضاه، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]، ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (١٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].



أيها المسلمون: ولاهتيام الإسلام بهذا الجانب العظيم ولامتداح الله المؤمنات بقوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] فقد حمى الله تعالى أعراض المؤمنات، وصان سمعتهن أشد صيانة لكرامتهن عند الله وحرمة جنابهن فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَذِيقُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْحَيْثُ لِلْخَيْثِ وَالْخَيْثُ لِلْخَيْثِ وَالْطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِ وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِ أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا قُولُوا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٣-٢٦].

بل إن من قدح في عرض العفيفة فقد استوجب الحد وسقوط العدالة واستحقاق صفة الفسق، ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

ثم تأملوا -رعاكم الله- كيف وصف العفيفات بالغافات، وهو وصف في محله لطيف محمود يصور المجتمع البريء والبيت الطاهر الذي تشب فيه فتياته في الأكمام بعيدات عن الدنيا والآثام، يصورهن غافات عن لوثات الطباع السافلة غائبات عن المعاني الرديئة، ثم تأمل كيف تتعاون الأقلام الساقطة والأفلام الهابطة لتمزق حجاب الغفلة هذا، ويتسابقون ويتنافسون في هتك الأستار وفتح عيون الصغار على ما يستحي منه الكبار، وصدق الله العظيم: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

أيها المسلمون: إن الحديث عن صيانة الأعراض وتركية النفوس وتطهير الطباع وتنمية دواعي العفة والطهارة ليست شعارات عاطفية أو مجرد كلمات خلقية، إنها أصل تماسك المجتمع وبنية أساس لبقائه ومقصد عظيم من مقاصد الشرع الحنيف، وانظر كيف جعل الله تعالى العفاف والأمن في آية واحدة مع توحيد الله سبحانه، وجعل إزهاق الأرواح وانتهاك الأعراض قرين الشرك، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْكُذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيُخْلَدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩].



فليس الأمرُ قابلاً للتهاون أو للمساومة، والمجتمع يجب أن يؤسس على الضمائر اليقظة والفضائل الشريفة والصيانة والحراسة المشددة من الرأي العام والقوة الحاكمة جميعاً. كما أن العجز عن ضبط العواصف والعواطف في الحدود التي شرعها الله والتذرّع بهذا العجز إلى ترك الشهوة البهيمة تنساح كيف تشاء هو سقوط بالفطرة والحلق وتمرد على الله وشرعه.

إن العالم المنفتح على الجنس المتحلل من الفضيلة بين اليوم تحت وطأة الأمراض الوبائية ويجأ من التشتت الاجتماعي والتفكك الأسري والتحلل الأخلاقي، كما تشكو نساؤه وأطفاله آلاف الحالات من الاغتصاب وتجارة الرذيلة، والتي نافست تجارة الأسلحة والمخدرات، ويسمون تجارة الرقيق الأبيض، فأين الحرية والأمان؟! وأين الطمأنينة والاستقرار في هذه الفوضى العارمة في اختلال الأخلاق والقيم؟! إن الحرية الحقيقية التي بناها الإسلام هي عندما يحس أفراد المجتمع بالأمن في حياتهم وأعراضهم، فيتحرّكون بحرية وأمن، وتنتشر الثقة والطمأنينة وحسن الظن، ويتفرغ الناس لمعاشهم وما يصلح دينهم ودنياهم، وذلك حين يترى المجتمع رجالاً ونساءً وينشؤون أجيالاً على مظاهر العفة والحشمة والورع ولزوم أمر الله تعالى، فلا شك وريبة ولا خيانة ولا خوف، إنه الأمن والطمأنينة والحرية، ولذلك في صدر الإسلام الأول لم يمنع ذلك صلاة المرأة في المسجد ومشاركتها الجيش في المعركة وطلبها للعلم ومداداة الجرحى وطلب الرزق، ولم يكن في أحكام الشرع ما يمنعها مصلحتها لها أو لغيرها، بل كله حفظ وصيانة كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. وإذا تحركت المرأة الطاهرة والرجل الطاهر في البيئة الطاهرة وفق ما رسمه الله من أحكام بعيداً عن الشبهات والملوثات فلا سبيل لجرثومة أن تنفذ.

أيها المسلمون: ولأجل هذه المقاصد السامية جاءت شريعة الإسلام بما يكفل هذه الحرية وهذا الأمن الخلقي، بل بايع النبي ﷺ نُبَاء الأنصار ليلة العقبة الأولى على التوحيد وترك الزنا كما في صحيح البخاري^(١) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي آخر المتحنة أمر

(١) رواه البخاري (٦٨٧٣).



الله تعالى رسوله ﷺ أن يبايع المؤمنين على التوحيد والعفاف، وفي الكتاب العزيز والسنة المطهرة آداب شتى للنظر والاستئذان والتستر والتكشّف والزينة وسفر المرأة وخلوتها وعوده الرجل إلى بيته وموقف المرأة من أقاربها وأقارب زوجها وحقّ الوالدين وحقوق الأولاد وآداب الاستماع والظنّ والنهي عن الاطلاع على عورات البيوت وتتبع العثرات، وهي آداب مفصلة يجب على المسلمين أن يلتزموها ويربّوا أهلهم عليها؛ ذلك أنّ من أعظم مقاصد الشريعة إقامة المجتمع الطاهر المحاط بالخلق الرفيع والمبطن بالعفة والحشمة والوقار. وحيث إنّ أعظم أبواب الشرّ وأول مدخل للشيطان هو إطلاق البصر والاختلاط لذا صارت أحكام الحجاب والقرار في البيوت والأمر بغضّ البصر للرجال والنساء، قال الحق سبحانه: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴿النور: ٣٠-٣١﴾، بل حتى في الحديث العابر بين الرجل والمرأة الأجنبية عنه: ﴿إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

إنّه سدّ لمنافذ الشيطان كما في قول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

أيها المسلمون: وحيث جاء الإسلام بكلّ ما يحفظ ويصون هذا السياج فقد حرّم كلّ ما يهتكه ويفسده، وقد علّم كلّ مسلم حرمة ما يعارضه ويناقضه من دعوات السفور والاختلاط في الأعمال والجامعات والمجالس والمؤتمرات لئلاّ يكسر حاجز الحياء وتنبذ الحشمة. ولقد علّم الراشدون أنّ التقدّم والتخلّف له أسبابه وعوامله، وإنّ إقحام الستر والاحتشام والخلق والالتزام والعفة والفضيلة وجعلها عوامل للتخلّف هو خداع مكشوف وتمريز مفصوح لا ينطلي على متبصّر. إنّ الحياة الطاهرة تحتاج إلى عزائم الأخيار، وأمّا عيشة الرذيلة فطريقها سهل الانحدار، والبيوت التي تظللها العفة والحشمة تورق بالعزّ والكرامة، أمّا البيوت التي يملؤها الفحشاء والمنكر فلن تنبت إلاّ بالذلّ والمهانة، وإذا أمر الله تعالى



بوقاية النفس والأهل من النار التي وقودها الناس والحجارة، وأخبر النبي ﷺ أَنَّ كُلَّ رَاعٍ مسؤول عن رعيته^(١)، فإنَّ المسلمَ يجب أن تكونَ له وقفةٌ لله لتجنيبِ نفسه ومن يليه ما جلبته وسائل الاتصال والبثِّ من ذبحٍ للفضيلة ونشرٍ للرذيلة وإماتةٍ للغيرة، وكيف يستسيغُ مسلمٌ هذا الغناء المدمر؟! أين الحياة؟! أين المروءة؟! أين الحفظُ والصيانة من بيوتٍ هيأت لناشئتها أجواءَ الفتنة وجلبت لها محرّضات المنكر؛ تجرّها إلى مستنقعات الفحش جرّاً وتدعّوها إلى الخطيئة دَعَا؟! ومع أَنَّ شهوةَ الجنس كشهوةِ الطّعام قد تمتلئ المعدة فتفتّر وقتاً عن طلبها إلاَّ أنَّ الذين يجيئون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لم يفتروا، بل ملّؤوا الفضاء بكلِّ أنواع المثيرات والمغريات، وتغنّوا في إثارة الشّهوات وإيقاد لهيب الغرائز في سعارِ أذهل الشيطان. وأمام هذه الأمواج المتلاطمة من الفتن الضاربة مهددة سفينة المجتمعات المسلمة؛ تعظم الأمانة والمسؤولية على المسلمين للحفاظ على زكاء مجتمَعهم وطهارة حياتهم وبما لا زالوا متميّزين به على أهل الأرض بحمد الله. ولا أحد ينكر ما صار للإعلام من مكانة خطيرة في توجيه الأمم والشعوب والسياسات وصياغة مفاهيمها وتصوّراتها وسلوكياتها. وإذا طغت الشهوات واختلطت النيات فسدت الأوضاع واضطربت الأحوال وحقّ العذاب، وتضيع الأمة إن ترك الحبل على الغارب، يعيش الناس بشهواتهم ويعبثون بأخلاقهم متجاوزين حدود الله بلا وازع ولا ضابط ولا رادع ولا زاجر، وإنها سنة من سنن الله، إذا فشا الظلم والفساد ولم ينهض من يدافعها فإنَّ سنة الله تعالى تحقّ ولا تحايي أحداً، ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

وفي هذا الباب ينبغي أن يُشكّر ويذكر بالتقدير والدعاء كلُّ جهدٍ مبذولٍ من أهل الحسبة ورجال الأمن ومن وراءهم، وكذا القائمون على تنقية المطبوعات والمواد الإعلامية وشبكة المعلومات العالمية في مدينة التقانة وغيرها، إنهم حُرّاس الفضيلة وحماة الدين والمرابطون في وجه العاصفة. ومع هذا فإنَّ التحصين من الداخل والتربية الذاتية وزرع المراقبة لله في السرِّ

(١) رواه البخاري (٧١٣٨).



والعلن مسؤولية الجميع: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعنا بسنة سيد المرسلين، أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم ولسائر المسلمين والمسلمات من كل ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، أحمده تعالى وأشكره، وأثني عليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

عَفُّوا تَعَفُّ نَسَاؤُكُمْ فِي الْمَحْرَمِ وَتَجَنَّبُوا مَا لَا يَلِيقُ بِمُسْلِمٍ
إِنْ الزَّنا دَيْنٌ فَإِنْ أَقْرَضْتَهُ كَانَ الْوفا فِي أَهْلِ بَيْتِكَ فاعلم

أيها المسلمون: إنَّ الغريزة والشهوة مطبوعة في دم الإنسان، والله تعالى هو الذي خلَقَها بأمره وعِلْمِه وحِكْمَتِه وابتلائِه لخلْقِه، وجعلها وسيلةَ البقاء البشريِّ، وهو سبحانه أعلمُ بما يُصلِحُها، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. إنَّ الإسلامَ لم يتجاهل هذه الغريزة، ولم يقتلها بالرهبانِيَّة، ولا أطغأها بالإباحيَّة، بل جعل لها شاطئاً آمناً تسبح إلى بحره وتطهر في مائه وتحيا ببقائه، إنَّه الزواج، أنبلُ صِفَةٍ عَرَفَتِها الإنسانيَّة لتكوينِ الأسرة وتربية الأولاد ونشرِ الألفةِ والرَّحمة وسكينةِ النفس في جوٍّ زَكِيِّ طهور، مع ضبطِ المشاعر وترشيدها نحوَ مكانها الصَّحيح المتَّجِج بدلاً من ضياعِها وتيهيها في العَبَث والفساد. والمسلمُ مأمورٌ ببلوغ هذا المدى حتى يتحصَّنَ بالحلal: ﴿وَلَيْسَتَّعَفُّفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣]، وفي الحديثِ المتَّفَق عليه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «يا معشرَ الشباب: مَنْ استطاعَ منكم الباءةَ فليتزوج؛ فإنَّه أغصَّ للبصر وأحصن للفرج، ومَنْ لم يستطعْ فعليه بالصَّوم؛ فإنَّه له وجاء»^(١)؛ وذلك أنَّ الصَّومَ مع تضييقِه لمجاري الشيطان فإنَّه ينمِّي روحَ المراقبة والخشية والتقوى، وهي أصولٌ وبواعثُ العِفَّة، ومن دعاءِ عبادِ الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتَنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. وحتى بعدَ الزواج فينبغي تنمية جانبِ العِفَّة والصيانة، ومنه ما يُشرع للمرأة مِنَ التَّحَبُّ لزوجها والتودُّد وحُسن التبعُّل وقصرِ عينه لئلاَّ يتطلَّعَ لغيرها. وكذلك الزوجُ، يكفي زوجته، ويشبع عاطفتها بالكلمة الطيبة

(١) رواه البخاري (٥٠٦٥) ومسلم (١٤٠٠).



والعشرة الحسنة وجبر الخواطر وسدّ مداخل الشيطان وأداء أمانة القوامه في الأهل والأولاد والقيام بأمر الله في كل شؤون الحياة. والمؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبتة، لا يأمن نفسه حتى يلتقى الله عزّ وجلّ، يعلم أنّه مأخوذٌ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه، ومن يستعفف يعفّه الله، وفي الحديث: «احفظ الله يحفظك»^(١)، أي: في نفسك ودينك وأهلك وذريتك، ومن كرم عند الله فلن يخزيه ولن يسوؤه. أسأل الله تعالى لي ولكم الهدى والتقى والعفاف والغنى.

ثمّ اعلموا - رحمكم الله - أنّ الله تعالى أمركم بأمرٍ بدأ فيه بنفسه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].
اللهم صلّ وسلّم وزد وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وأزواجه وذريته وصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



(١) رواه أحمد (٢٣٣/٤) وصححه أحمد شاكر.



العفو والصفح (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أكمل علينا الدين، وأتم علينا النعمة، وجعل أمتنا خير أمة، وبعث فينا رسولاً منا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، أحمده على نعمه الجمّة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون لمن اعتصم بها خير عصمة، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله ربه للعالمين رحمة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً تبقى، وسلاماً يترى إلى يوم الدين.

أما بعد:

يا أيها المسلمون: اتقوا الله؛ فإن تقواه أفضل مكتسب، وطاعته أعلى نسب: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

خرج عمر بن عبدالعزيز ذات ليلة إلى المسجد ومعه رجل من الحراس، فلما دخل عمر المسجد مرّ في الظلام برجل نائم، فأخطأ عمر وداس عليه، فرفع الرجل رأسه إليه، وقال: أجنون أنت؟ فقال: «لا»، فتضايق الحارس وهمّ أن يضرب الرجل النائم فمنعه عمر، وقال: «دعوه، إنما سألني فأجبته!».

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلى من طبعه الغضب

أيها المسلمون: يتفاوت الناس في مكارم الأخلاق ومقامات الإحسان وجميل السجايا والخصال، وإن العفو عن المسيء في أمر المعاش، وعن المقصر في أدب الصحبة وحقوق المخالطة، والإغضاء عن زلته، والتجافي عن هفوته، والتغافل عن عثرته، واحتمال سقطته من أجل الصفات وأنبال الخصال؛ يقول جل في علاه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

(١) لم يتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

وقال جل في علاه: ﴿وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَبِيرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال جل في علاه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ [الشورى: ٣٩-٤٣].

فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو؛ قال إبراهيم النخعي رحمه الله: كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفوًا. رواه البخاري.

والصفح أقرب للتقوى، والصفح أكرم في العقبي، والتجاوز أحسن في الذكرى؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه»^(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر: «ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر الله لكم»^(٢).

أيها المسلمون: الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، مرتبة عالية، وخصلة شريفة، لا يقدر عليها إلا الصابرون المهتدون الموفقون؛ يقول جل في علاه: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُرِّيٌّ عَظِيمٌ ﴿٣٥﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال في صفة رسول الله ﷺ: «ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح»^(٣). فصلوات الله وسلامه عليه.

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) صحيح الجامع (٨٩٧).

(٣) رواه البخاري (٤٨٣٨).



وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مُحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» (١).

لا يبلِّغ المجد أقواماً وإن كَرُمُوا حتى يذلوا وإن عَزُّوا لأقوام لا يَشْتُمُوا فترى الألوان مُسْفِرَةً لا صفح ذلٌ ولكن صفح أحلام

أيها المسلمون: لا عافية ولا راحة ولا سعادة إلا بسلامة القلب من وساوس الضغينة، وغواشي الغل، ونيران العداوة، وحسائك الحقد، ومن أمسك في قلبه عداوة، وتربص الفرصة للنقمة، وأضرم الشر لمن أساء إليه، تكدر عيشه، واضطربت نفسه، ووهن جسده، وأكل عَرَضُهُ، والعافية إنما هي في التغاضي والتغافل، وقد قيل: (في إغضائك راحة أعضائك)، وقيل: (الأديب العاقل هو الفطن المتغافل)، وقيل للإمام أحمد - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: (العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في التغافل، فقال: العافية عشرة أجزاء، كلها في التغافل).

ويقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من هم العداوات

يقول جل في علاه: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فتعافوا بينكم، وتجاوزوا عمن أساء إليكم ابتغاءً لوجه الله تعالى، ورغبةً في ثواب العفو وجزاء الصفح، واخرجوا من ضيق المناقشة إلى فسحة المسامحة، ومن حزورة المعاصرة إلى سهولة المعاشرة، واطووا بساتن التقاطع والوحشة، وصلوا جبل الأخوة، وروموا أسباب المودة واقبلوا المذرة؛ فإن قبول المذرة من محاسن الشيم، وإذا قدرتم على المسيء فاجعلوا العفو عنه شكرًا لله للقدرة عليه.

فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: كم نعو عن الخادم؟! فصمت رسول الله ﷺ، ثم أعاد عليه الكلام فصمت، فلما كان في الثالثة قال: «اعفُ عنه كل يوم سبعين مرة» (٢).

(١) رواه مسلم (٢٣٢٨).

(٢) صحيح أبي داود (٥١٦٤).



وعن مالك بن نضلة الجُشَمي قال: قلت: يا رسول الله: الرجل أمرُ به فلا يقريني ولا يضيفني فيمربي، أفأجزيه؟! قال: «لا، أقره»^(١).

﴿إِنْ يُبَدُّوْا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوْهُ أَوْ تَعْفُوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

جعلني الله وإياكم من أهل العفو والإحسان والصفح والغفران، وعفا عنا جميعاً بمنه وكرمه وهو العفو الغفور الكريم المنان.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة؛ فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) صحيح الترمذي (٢٠٠٦).



الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشأنه.

وأشهد أن نبينا وسيدنا محمداً عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله وراقبوه، وأطيعوه ولا تعصوه، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أيها المسلمون: كم رأينا بين الأزواج والإخوان والأقارب والجيران من المحن والإحـن، والفتن والدخن، والدعوى والخصومات، والمضادة والمحاددة، والغضاضة والنفرة، والشر والفتنة، حتى شاع الطلاق وكثرت القطيعة، وتصرمت أواصر القربى؛ فاتقوا الله -أيها المسلمون-، وراعوا حق القربة والرحم والجوار، وكفوا عن المنازعة والقطيعة، وعالجوا الأمور بما هو لشمـل القـرابـة أجمع، ولطريق الفرقة أقطع، وكونوا كما قال الأول:

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جداً

إذا قد حو لي نار حرب بزندهم قدحت لهم في كل مكرمة زندا

وإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقد

والحلم من أرقى الأخلاق وأرفعها، حتى قيل: الحلم أرفع من العقل؛ لأن الله اتصف به

فقال -جل ثناؤه-: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، قال أكثم بن صيفي: (دعامة العقل

الحلم، وجماع الأمر الصبر).



والحلم يغلب الشجاعة بمقتضى قول النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة؛ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١). وقال معاوية لعمر بن الأهتم: (أي الرجال أشجع؟ قال: من رد جهله بحلمه). وقال: (والحليم نادر في الناس؛ لأن شهوة النفس تأبى إلا الانكسار لها)، حتى قال الأصمعي: (لا يكاد يجتمع عشرة إلا فيهم مُقاتل أو أكثر، ويجتمع ألف ليس فيهم حليم).

شتم رجل عمر بن ذر، فقال: (يا هذا لا تغرق في شتمنا ودع للصلح موضعاً، فإني أمتُ مشائمة الرجال صغيراً، ولن أحييها كبيراً، وإني لا أكافئ من عصى الله في أكثر من أن أطيع الله فيه). وكان الأحنف بن قيس التميمي رَحِمَهُ اللهُ تعالى ممن يضرب به المثل في الحلم حتى يقال: (أحلم من الأحنف)، ويذكر أن رجلاً خاصمه فقال: لئن قلت واحدة لتسمعن عشرًا، فقال له الأحنف: (لكنك إن قلت عشرًا لم تسمع واحدة).

ومن أقواله رَحِمَهُ اللهُ: (من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ورب غيظ قد تجرعه مخافة ما هو أشد منه، وهذا يدل على أن العلماء يتحملون القليل من السفه والجهل بدءًا لما هو أكبر منه)، ولذا كان الأحنف إذا عجبوا من حلمه قال: (إني لأجد ما تجدون؛ ولكني صبور). وما أجمل رد الإمام الشعبي على رجل غضب عليه فأسمعه كلامًا جارحًا، فقال له الشعبي رَحِمَهُ اللهُ: (إن كنت صادقًا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك). إن مثل هذا الرد يدحض الشيطان، ويزيل الخلاف، بل يحمل المخاصم على الندم والتخل، وهذا أبلغ في الردع، وأسلم في الدين من مقابلة الجهل بالجهل، والسفه بالسفه، ومن قدر على مكافأة من أساء إليه فذلك أعظم في ردعه وتأديبه.

سب رجل علي بن الحسين رَحِمَهُ اللهُ تعالى فرمى له بقميصه كانت عليه وأمر له بألف درهم، قال بعضهم: (جمع له خمس خصال محمودة: الحلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل مما يبعده من الله عزَّ وجلَّ، وحمله على الندم والتوبة ورجوعه إلى المدح بعد الذم، اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا، فاتقوا الله ربكم وتزينوا بالحلم، فإنه من صفات عباد الرحمن).

(١) رواه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩).



قال ابن الأثير متحدثاً عن صلاح الدين الأيوبي: (وكان رَحْمَةُ اللَّهِ حليماً حسنَ الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره، ولا يُعلمه بذلك، ولا يتغير عليه. وبلغني أنه كان جالساً وعنده جماعة، فرمى بعض المالِك بعضاً بسرموز فأخطأته، ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته، ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه؛ ليتغافل عنها).

فَقَابِلُوا الْإِسَاءَ بِالْإِحْسَانِ تُنْصَرُوا؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنْ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنْ لِي قَرَابَةٍ أَصْلَهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَيَسْتِئُونِ إِلَيَّ، وَأَحْلَمَ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تَسْفَهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهْرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(١). ومعنى: فَكَأَنَّمَا تَسْفَهُمُ الْمَلَّ؛ أَي فَكَأَنَّمَا تَطْعَمُهُمُ الرَّمَادَ الْحَارَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، وقال جل وعلا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدْوًا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

أيها المسلمون: إن ثمره الاستماع والاتباع، فكونوا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، جعلني الله وإياكم ممن علم فعمل وأخلص فثبت على الحق.

ثم اعلّموا أن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه، وثنى بملائكته المسبحة بقدسه، وآية بكم - أيها المؤمنون - من جنه وإنسه، فقال قولاً كريماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].





الأدب والذوق الرفيع^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله بلطفه تنكشف الشدائد، وبالتوكل عليه يندفع كيد كل كائد، أحمده سبحانه وأشكره وأسأله المزيد من فضله وكرمه، بفضلِهِ ولطفِهِ تتواصل النعم وجميع العوائد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له في كل شيء آية تدل على أنه الواحد، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله خيار من خيار كريم الأصل سيل الأماجد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله السادة الطيبين الطاهرين أهل المكارم والمحامد، وعلى أصحابه الغر الميامين انعقدت على فضلهم المعاهد، والتابعين ومن تبعهم بإحسان من كل عابد، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله - رحمكم الله -؛ فليس أطيب من العافية، ولا أغنى من القناعة، ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

أيها الناس: الدنيا دار عمل لا دار كسل، ويوم تقوم الساعة لا فوز إلا بالطاعة، ومن كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ، ومن أصلح أمر آخرته صلح له أمر دُنياه، والناس لن يعطوك أو ينفعوك إلا بما قُدر لك، ولن يضرّوك أو يمنعوك إلا بما قُضيَ عليك، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].



أيها المسلمون:

قيل لبعض أهل الفضل: هل قرأت (أدب النفس) لأرسطو؟ فأجاب بعزّة وثقة: بل قرأت أدب النفس لمحمد ﷺ.

الله أكبر! كتاب ربنا مليء بالتوجيهات والآداب في شؤون الحياة والأحياء، شرباً وأكلًا، وقولاً وفعلًا، واستئذانًا ومُحادثات، ولباسًا ومُعاملات، وضبطًا للمواقيت والمواعيد، ومثل ذلك وتفصيلاته في كتب الصّحاح والسُّنن، في سُنّة المصطفى ﷺ وسيرته. كيف ونبينا محمد ﷺ بُعث لِيَتِمَّ صالح الأخلاق ومكارمها؟

والأحكام والتشريعات حينما كانت تنزّل تنزّل مُتكاملة في بناءٍ من حُسن الخلق متين، وسدادٍ في السلوك جميل، وذوقٍ في التعامل رفيع.

معاشر المسلمين: أدب النفس، ورفعة الذّوق، وجمال التعامل من أجلّ ما وهب الله عبده من نعم، ومُراعاة المشاعر، وحُسن المعاملة مقصدٌ شرعيٌّ من مقاصد الدين عظيم. الذّوقُ مسلكٌ لطيفٌ، وتصرفٌ حميدٌ يحملُ معاني الأدب، وعالي الرّقة، وحُسن المعشر، وكمال التهذيب، وحُسن التصرف، وتجنّب ما يُجرّج أو يجرّح من فعلٍ أو قولٍ أو إشارة. والناسُ تُحبُّ لِيَنَ الجانب، باسط الوجه، والقلوبُ تُقبلُ على من تواضع لها، فالواجهةُ بالوجه الجميل، والمُصافحةُ بالكفِّ الكريم، والتحدّثُ باللسان المُهذّب يعطِفُ القلوب، ويُمهّدُ السبيل لقبول كل ما يُقدّم من علمٍ ونُصح، ونقدٍ وتوجيه.

إخوتي في الله: وإن من علامات الإيمان وعُنوان السعادة: أن يُرزق العبدُ ذوقًا راقياً، وتهذيباً رقيقاً ليستمتع بالحياة، ويحترم المشاعر، ويدخل السُّرورَ على نفسه وعلى الآخرين من الأقربين والأبعدين، والحياءُ شُعبةٌ من الإيمان.

وهل رأيتم أرفع ذوقًا وأرقى سلوكًا من أسوتنا وقُدوتنا وسيّدنا نبينا محمد ﷺ؟! ألم تقرأوا في سيرته أن الأمة كانت تأخذُ بيده عليه الصلاة والسلام فتنتقل به حيث شاءت؟ وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمُصافحة، ولا ينزعُ يده حتى يكون



الرجل هو الذي ينزِعُ يده، ولا يصرف وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرف وجهه. «ولم يرَ مُقدِّماً رُكِبَتْه بين يدي جليسه»^(١).

ويقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما التَقَمَ أحدُ أذنِ رسول الله ﷺ يعني: يُناجيه - فيُنحِّي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي يُنحِّي رأسه^(٢)، وكان ضحكُه تبسُّماً^(٣).

معاشر الأجيّة:

أما تعليماتُ ديننا وأحكامه وتشريعاته وتوجيهاته فلها في ذلك من الدقائق واللطائف ما لا ينقضِي منه العَجَب، وفي عرضٍ واستعراضٍ للعبادات الكبرى في الإسلام يستبينُ للناظر والمتأمل متانةُ الأواصر التي ترتبطُ فيها العباداتُ بالأخلاق والسلوك والتهذيب.

عباداتٌ هي أركانُ الدين وقوامه، مُختلفةٌ في مظهرها، مُتَّفقةٌ في جوهرها، هي مدارجُ الكمال، ومراقِي الطُّهر، وسجايَا الكرم.

فالصلاةُ تنهى عن الفحشاء والمنكر، وفي الصلاة مظاهرُ الذوق ورفيع الأدب؛ من أخذ الزينة عند المسجد، والطيب، والمشى بسكينة ووقار، وتسوية الصفوف وسدَّ الفرج، وتجنُّب أكل الثوم والبصل، وكل ما له رائحة كريهة.

ولقد قال المصطفى ﷺ لمتخطي الصفوف: «اجلس فقد آذيت»^(٤).

فإذا كنت - يا عبد الله - تُريد تحصيلَ الفضيلة في عبادتك فإياك أن يترتَّب على ذلك إيذاءُ إخوانك.

أما الزكاة فقد قال فيها - عزَّ شأنه -: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. وتُخفي الصدقة وتُبدِّيها حسب الأحوال، مما يُحافظُ على أدب النفوس ويتجنَّب جرحها وإيذاءها، ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

(١) ضعيف الترمذي (٢٤٩٠) وحسنه ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح (٢٨٦/٥).

(٢) صحيح أبي داود (٤٧٩٤).

(٣) صحيح الترمذي (٣٦٤٢).

(٤) صحيح أبي داود (١١١٨).



بل إن مفهوم الصدقة في ديننا أوسع من التصدق بالمال؛ فتبشُّمك في وجه أخيك صدقة، وإرشاد الضالَّ صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة، وبصرُك للرجل رديء البصر صدقة.

أما الصيام فصيامٌ عن الزُّور كلّ قولاً وعملاً، «ومن لم يدع قولَ الزُّور والعملَ به والجهلَ فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه»^(١). وإنما الصيامُ عن اللغو والرفث، «وإن سابه أحدٌ أو شاتمهُ فليقل: إني صائمٌ»^(٢).

والحجُّ زادُ التقى، ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ رَزَقَ فِيهِ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، في الحج عليكم بالسكينة، وإياكم والغلو، واجتنبوا إيذاء إخوانكم في مواطن الزحام، في النفير من المشاعر، ورمي الجمار، والطواف، وتقبيل الحجر الأسود، والسعي.

معاشر الأحيّة:

يعجزُ بعضُ أصحابِ العبادات والكُربات - وفَقَّهم الله وتقبَّل منهم - يعجزون أن يربطوا بين حُسن التعبُد وحُسن الخُلُق وسُمُو الذُّوق، فترى هذا المُتعبِّد - حفظه الله - يحرِّص على العبادات في أوقاتها وهيئاتها، لكنَّه قد يرتكبُ أعمالاً يابأها الخُلُق الكريم، ومن لم تُزكَّه عبادته وتهدِّبه ديانته فما الذي حصَّله يا ترى؟! وخبرُ المُفلس عند أهل الإسلام معلوم، وهو من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ، ويأتي وقد شتمَ هذا، وقذَفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفَكَ دَمَ هذا، وضربَ هذا. وحيثُ يُدِّ يكونُ القصاصُ؛ فأين حسناته؟!

وهل يبدو تقيًّا من بدا كالحِجِّ الوجه، بادِي الشَّرِّ، قريبَ العدوان؟! وآيةُ المنافق ثلاث: «إذا حدَّث كَذِب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإن صَلَّى وصامَ وزعمَ أنه مسلمٌ»^(٣).

(١) رواه البخاري (٦٠٥٧).

(٢) رواه البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١).

(٣) رواه مسلم (٥٨).



ومن مطلوب العبادات ومقاصدها: ألا تختلف القلوب، ولا تُكدر النفوس، «سووا صفوفكم، ولينوا في أيدي إخوانكم، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم»^(١)، «والمؤمن بحسن خلقه يُدرِك درجة الصائم القائم»^(٢).

معاشر المسلمين:

ومما يتجلى فيه مظاهر الذوق والأدب الرفيع في ديننا: آداب الأكل من غسل اليدين، والأكل مما يليه، ولا ينفخ في الطعام، ولا يتنفس في الإناء، ولا يفعل ما يستقدر أو يستنكر أو يستكره قولاً وفعلًا وإشارة، وكل من الطعام المباح ما اشتهت، والبس من اللباس ما يشتهي الناس.

دُعِيَ نبينا محمد ﷺ إلى ضيافة عند رجل، فيقول له عليه الصلاة والسلام: «لقد دعوتنا خمسة، وهذا تبعنا، فإن شئت قبلته وإن شئت أرجعته»^(٣). فقال الرجل: قبلناه من أجلك يا رسول الله.

هذا - وربكم - هو الأدب، وهذا هو الذوق في أسمى صورته ومعانيه.

ومن دلائل الأدب العالي والذوق الرفيع: آداب الزيارات والاستئذان من جميع الأعمار، من البالغين والأطفال، من طرق الباب من غير عنف، وعدم الوقوف مقابل الباب؛ فإنما جعل الاستئذان من أجل البصر، وتخير أوقات الزيارة، ﴿وَلَنْ قِيلَ لَكُمْ أَنْزِعُوا فَأَنْزِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]، والجلوس حيث يجلسه صاحب البيت أو حيث ينتهي به المجلس حسب الأحوال.

والقوم أعلم بعورات بيوتهم، ولا يُقيم أحدًا من مجلسه ليجلس فيه، وفسحوا يفسح الله لكم، ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾ [المجادلة: ١١]. ولا يتناجى اثنان إلا بإذن الثالث؛ فإن ذلك يُجرئه، ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَضَوْا﴾ [النور: ٥٩]، والذين لم يبلغوا يستئذنون في

(١) رواه مسلم (٤٣٢).

(٢) صحيح أبي داود (٤٧٩٨).

(٣) رواه البخاري (٥٤٣٤).



العورات الثلاث: من قبل صلاة الفجر، وحين وضع الثياب من الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء.

وفي أدب الاجتماعات والتشاور وإدارة الجلسات يأتي التوجيه القرآني: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ أُوتِيَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

ومن اللياقة في آداب الحوار والجيران: ألا يطّلع على داره، ولا يتبع نظره فيما يحمله، ويعضّ طرفه عن حرّمه، ويستترّ ما ينكشف من عورته.

ومن زار مريضاً فمن الكياسة: أن يُخفّف الجلوس، ويدعو بالعافية؛ فإن المريض يُعاد، والصحيح يُزار.

ومما تتجلى فيه اللباقة واللياقة وحسن الذوق: قيادة المركبات، ومراعاة إيقافها في مواقفها، والتزام قواعد المرور، وضوابط السير، وحسن الوقوف المنظم صفوفاً، وحسن استخدام المرافق العامة والمحافظة عليها ونظافتها وصيانتها وعدم العبث بها والتعدي عليها.

ناهيك بما أنعم الله به على أهل هذا الزمان من وسائل الاتصال وما يجب من مراعاة الأدب في استعمالها محدثته وإرسالاً واستقبالاً.

ومن أبرز علامات الذوق وأرفعها وأعلاها: الحياء حين يتحرّج عن فعلٍ ما لا ينبغي، ويترفع عما لا يليق.

تأملوا هذه الصورة النبوية الرفيعة، يقول أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان رسول الله ﷺ أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه»^(١).

نعم، إن من الذوق الرفيع: أن يخجل الإنسان أن يؤثر عنه سوء، وأن يحرص على بقاء سمعته نقيّة من الشوائب بعيدة عن الإشاعات، يذود عن سمعته ظنون العباد.

(١) رواه البخاري (٦١٠٢) ومسلم (٢٣٢٠).



ومن هذه الآداب: معرفة حقوق أصحاب الحقوق، ومنزلة أصحاب المنازل، وإيتاء كل ذي فضل فضله؛ فللغلام مع من يكبره مُعاملة، وللطالب مع مُعلِّمه مُعاملة، وللولد مع والده مُعاملة، وللسلطان منزلته، وللعالِم مقامه.

أيها المسلمون:

هذه بعض التصرفات والمسالك التي يستبين فيها حُسن تصرُّف الرُّجل وكياسته ولباقته، وقد قال أهل الحكمة: (الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب؛ بل إن من قعد به حسبه نهض به أدبه).

والأدب وسيلةٌ إلى كل فضيلة، وذريعةٌ إلى كل شريعة. يقول أبو جعفر المنصور: (إن أحببت أن يكثر عليك الشاء الجميل بغير نائلٍ فאלقهم ببشرٍ حسن).

والذوق الرفيع - عباد الله - ليس ضعفاً؛ فالرُّجل الكريم يُفضَّل أن يُريقَ دمه على أن يُريقَ ماء وجهه، والعاقِل في حضرة الرُّجال يُحكِّمُ سلوكه، ويضبطُ تصرُّفه، يتكلَّم بقدر، ويتصرَّف بذوق، وإن تمعَّر الوجه، واهتزاز المشاعر في بعض المواقف دليلٌ سموٌّ كامنٌ وطبعٌ كريم.

مُستحَكُّمُ الأدب من أي الأقطار أتيتَه قابلكَ بكرمِ فعالٍ، وحُسنِ مقالٍ. ورُبَّ قولٍ أشدُّ من صولٍ، ومن حصافة عقل المرء أن يكون الاستماعُ أحبَّ إليه من النطق.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

[لقمان: ١٨-١٩].

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، ويهدي محمد ﷺ.

وأقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنبٍ وخطيئة؛ فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رفعَ قدرَ ذوي الأقدار، أحمده سبحانه وأشكره برحمته وفضله، وحكمته وعدله تنفدُ مصاريقُ الأقدار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يخلقُ ما يشاء ويختار، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبدُ الله ورسوله البشيرُ النذيرُ، والمُصطفى المختار، صلى الله وسلّم وبارك عليه، وعلى آله الطيبين الأطهار، وعلى أصحابه السادة الأخيار، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ ما تعاقبَ الليل والنهار، وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أيها المسلمون:

العاجزُ من عجزَ عن سياسة نفسه، مسكينٌ من جفَّ ذوقه، وغلظَ طبعه، فلا تسأل عما يُحدثه في نفسه والناسِ من أذى وشرخٍ وشقاءٍ، لا يُراعي مشاعر، ولا يأنفُ من مُواجهات، جهولٌ نرَق، يُقلِّبُ المواجع، وينشرُ المعايِب.

وابن القيم رحمه الله يصفُ أمثالَ هذا فيقول: (فمخالطتهُ حمى الروح، ثقیلٌ، بغیضٌ لا يُحسِنُ أن يتكلّمَ فيفيدك، ولا يُحسِنُ أن يُنصتَ فيستفيد منك، ولا يعرفُ نفسه فيضعها موضعها).

إن للثرثرة ضجيجاً يذهبُ مع الرشد، وثمة فئة ممن يتصدّرون المجالس، يجزمُ مُستمعهم أنهم لا يتحدثون من وعيٍ يقظٍ، ولا فكرٍ عميقٍ، ولا ذوقٍ رفيعٍ؛ بل ربما ظنَّ الظان أن لديهم انفصاماً بين الأتران وهذا الكلام المتناثر، وما استقام قلبُ عبدٍ حتى استقام لسانه. والعياذُ بالله من أناسٍ يسطون ألسنتهم بالسوء، يتسقطون الأخبار، ويتتبعون العورات، همزةُ لمزة، «وإن أبغضَ الرجال إلى الله: الألدُّ الخصم»^(١).

وآفةُ ذي الحِلْم: طيشُ الغضب، ومن ساءَ أدبه ضاعَ نسبُه، والغريبُ من لا أدبَ له، وشرُّ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة من تركه الناس اتقاءً فحشه.

(١) رواه البخاري (٤٥٢٣) ومسلم (٢٦٦٨).



ألا فاتقوا الله - رحمكم الله -؛ واعلموا أن الأدب خير ميراث، فإن الرجل النبيل لا يفقد خلقه مع من لا خلق له، وهل تكون المداراة إلا مع السفهاء وأصحاب الطباع الشرسة والوجوه الصفيقة، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

هذا، وصلُّوا وسلِّموا على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة: نبيكم محمد رسول الله؛ فقد أمركم بذلك ربكم، فقال في محكم تنزيله - وهو الصادق في قوله - قولاً كريماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد الحبيب المصطفى، والنبي المجتبي، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وارض اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليٍّ، وعن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعننا معهم بعفوك وجودك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين، اللهم أعز الإسلام والمسلمين، اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، واخذل الطغاة والملاحدة وسائر أعداء الملة والدين.

اللهم وأبرم لأمة الإسلام أمر رُشدٍ يعز فيه أهل الطاعة، ويهدى فيه أهل المعصية، ويؤمّر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، إنك على كل شيء قدير.

اللهم أصلح أحوال المسلمين، واحقن دماءهم، وولّ عليهم خيارهم، واجمع على الحق والهدى والسنة كلمتهم، وانصرهم على عدوك وعدوهم.

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

عباد الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فاذكروا الله يذكركم، واشكروه على نعمه يزدكم، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون.





حق المسلم على المسلم

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله وفق من شاء من عباده إلى طريق السعادة، أحمده سبحانه وأشكره وقد أذن للشاكرين بالزيادة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أرجو بها الحسنى وزيادة، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله عبد ربّه حقّ العبادّة، صلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أهل الشرف والعزّ والسيادة، والتابعين ومن تبعهم بإحسان، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

أيها الناس: اتقوا الله واعلموا أن من أعظم مقاصد الشريعة، ومن أجل أهداف الإسلام، أن يؤلّف بين القلوب، وأن يجمع بين الصفوف، وأن يوحد الكلمة، وأن يرأب الصدع، وأن يزيل أسباب الخلاف والتدابير والتقاطع، وإذا لم يتم ذلك في واقع المسلمين، وفي حياة الأمة؛ فيجب أن نعلم - جميعاً - أننا ما التزمنا بالإسلام، وما اهتدينا بنور القرآن، وما تشرّفنا بالسير على هدي رسول الأنام ﷺ يقول الله تعالى ممتناً على هذه الأمة: ﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣] فسبحان من ألّف بين هذه القلوب، وسبحان من وحد بين هذه الأجناس، وسبحان من جمّع بين هذه الألوان واللغات والعادات.



جمع الله بين بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وعليّ القرشي، في وحدة وألفة وترابط أخوي، لم يعرف التاريخ له مثيلاً.

والله تبارك وتعالى يأمرنا بالاعتصام بحبله جميعاً، وينهانا عن التفرق والتشردم والتحزب، وعن موجبات ذلك من العصبية القبلية، أو التعصب للون، أو الجنس، أو اللغة، فكل هذه العصبية موضوعة في الإسلام، قد جعلها النبي ﷺ تحت قدميه.

فلماذا يغض بعضنا بعضاً، ولماذا يحسد بعضنا بعضاً، ولماذا يغتاب بعضنا بعضاً، ولماذا هتكت الأعراض، والتقاطع والتدابير والتباغض، والله عز وجل يقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

أيها المسلم:

اعلم: أنك لن تنال رضوان الله عز وجل ولا رحمة الله تبارك وتعالى وعفوه ومغفرته، إلا بمحبتك لأخيك المسلم، وبره ومساعدته؛ فالله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، وإن رحمة الله عز وجل تنتزل بمساعدة الإخوان، وتقديم العون لهم، ومحاولة التيسير على المعسرين وأهل الحاجة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، ويقول النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، مَنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربةً فرّج الله عنه بها كربة من كُرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ سُلَامَى [السُّلَامَى: أصله عظام الأصابع وسائر الكف، ثم استعمل في سائر عظام البدن ومفاصله] من الناس عليه صدقة كُلَّ يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو

(١) رواه البخاري (٩٨/٣) كتاب المظالم باب (٣). ومسلم (١٩٩٦/٤) كتاب البر والصلة رقم (٥٨).



ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»^(١).

ويقول النبي ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحبّوا، أولاً أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(٢).

وإفشاء السلام معناه التواضع لعباد الله، والمحبة لهم، ومسالمتهم، وعدم إضرار شيء في نفسه لهم، ويوم يتخلى الناس عن السلام، ويوم يستهينوا بهذه الشعيرة العظيمة من شعائر الدين، فيمر بعضهم على بعض بلا سلام ولا تحية، تظهر الضغائن، ويتشر الحقد والحسد والبغض بين الناس، وهذا من فساد ذات البين الذي حذر منه نبينا ﷺ بقوله: «إياكم وفساد ذات البين؛ فإن فساد ذات البين الحالقة؛ لا أقول تحلق الشعر وإنما تحلق الدين»^(٣).

فعليك أيها العبد المسلم أن تُخرج من قلبك كلّ حقد، وكل حسد، وكل بغضاء تجدها لأحد من المسلمين، إذا طرحت نفسك على الفراش، ووكلت أمرك إلى خالقك فاسأل الله عزّ وجلّ أن ينزع من قلبك كل غشٍّ وضغينة، وحسد وبغضاء.

عباد الله:

أراد النبي ﷺ أن يبين لأصحابه فضل محبة المسلمين، وعدم إضرار شيء لهم، وسلامة الصدر تجاههم، فبينما هو جالسٌ مع أصحابه ذات مرة، إذ قال ﷺ لهم: «يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة»؛ فطلع رجلٌ من الأنصار، يتساقط ماء الوضوء من لحيته، وقد علّق نعليه في شماله، فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ: «يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة»؛ فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ: «يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة»؛ فطلع ذلك الرجل على مثل مرتبته الأولى، فلما قام رسول الله ﷺ اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال لذلك الرجل: إني خاصمت أبي فأقسمت

(١) رواه البخاري (٢٢٤/٣) كتاب الجهاد باب (٧٢، ١٢٨). ومسلم (٦٩٩/٢) كتاب الزكاة رقم (٥٦).

(٢) رواه مسلم (٧٤/١) كتاب الإيمان، رقم (٩٣).

(٣) رواه الترمذي (٥٧٢/٤) كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٠٨) قال الترمذي: (حديث صحيح غريب).

وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٢٦٨٣).



ألا أدخل عليه ثلاث ليالٍ، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تحلّ يميني فعلت، فقال: نعم؛ فكان عبد الله بن عمرو بن العاص يحدث أنه بات معه ليلة - أو ثلاث ليالٍ - فلم يره يقوم من الليل بشيء، غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله وكبّر حتى يقوم لصلاة الفجر، فيسبغ الوضوء، قال عبد الله: غير أني لا أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث ليال كدتُ أحترق عمله، قلت: يا عبد الله، إنه لم يكن بيني وبين والدي غضب وهجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات في ثلاث مجالس: «يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة»؛ فطلعت أنت تلك الثلاث مرات، فأردتُ آوي إليك، فأنظر عملك، فلم أركَ تعمل كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله - ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. فانصرفْتُ عنه، فلمَّا وُلِّيتُ دعاني؛ فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي غلاً لأحدٍ من المسلمين، ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله بن عمرو: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق^(١).

أيها المسلمون:

لينظر كلُّ منّا في قصة هذا الرجل، وليأخذ منها العبرة والعظة، ما الذي بلغ بهذا الرجل تلك المنزلة الرفيعة، ما الذي جعله من المشهود لهم بالجنة والفضل، وهو لا زال يعيش على ظهر هذه الدنيا؟ ما أعماله؟ ما عبادته؟ ما جهاده؟ ما هو السر الذي تفوق به؟ إن الذي بلغ بهذا الرجل تلك المنزلة هو سلامة الصدر لإخوانه المسلمين، ينام وليس في قلبه غشٌّ ولا حسد ولا بغضاء لأحد، وهذا ليس بالأمر اليسير؛ ولذلك قال عبد الله بن عمرو: «هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق».

إن من الناس من يتصدّق ولكنه حقود، ومنهم من يدعو لكنه حسود، ومنهم من يقوم الليل ويقوم النهار، ولكنه يؤذي جيرانه، ويأكل لحوم إخوانه المسلمين، ويقع في أعراضهم. مَاذَا التَّقَاطُعُ فِي الْإِسْلَامِ يَبْنِيكُمْ وَأَنْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانُ

(١) رواه أحمد (١٦٦، ٣٥٦) والنسائي في اليوم والليلة رقم (٨٦٣) وابن السني في اليوم والليلة رقم (٧٥٤). قال الحافظ العراقي في تحريج الإحياء (١٨٧/٣): (رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين).



إن اليهود والنصارى وأعداء الدين يختلفون فيما بينهم؛ ولكنهم يتفقون على حرب الإسلام والمسلمين، أما أهل الإسلام فمشارب وأساليب وأهواء وجماعات وأحزاب، ولا نراهم يتفقون حتى على حرب أعدائهم من أهل الإلحاد وفرق الكفر والزندقة!! (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير).

لقد بين الرسول ﷺ حق المسلم على المسلم، فقال: «المسلم أخو المسلم» ولك أن تتصور حقوق أخيك عليك، وما يجب عليك تجاهه: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا». ويشير إلى صدره ثلاث مرات، «بحسب امرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه»^(١).

ما أعظم تلك الحقوق، وما أجل هذه التوجيهات، لا يظلم المسلم أخاه؛ لأن عاقبة الظلم وخيمة، ولذلك فإن الله عزَّ وجلَّ حرَّم الظلم على نفسه، ولا يخذل المسلم أخاه بأن يترك إعانته ونصره والدفاع عنه في موطن يستطيع أن ينصره فيه، ولا يحقر المسلم أخاه بأن يستهزئ به، ويستهين به، ويستقله ويستصغر شأنه، فهذا كله ليس من أخلاق المؤمنين.

فيا مَنْ يجلس في مجالس الغيبة والنميمة، ويا من يقضي وقته في هتك الأعراض والتفكُّ بالحرَمات، أما تعرف أنك تحارب الله؟! أما تعرف أنك تعلن الحرب على جبار السماوات والأرض؟! أما تعرف أنك تهدم في صرح هذه الرسالة الخالدة؟! اتق الله في نفسك، اتق الله في مصيرك، واعلم بأننا أمة واحدة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، واعلم بأن الله عزَّ وجلَّ سوف يقتصُّ منك لا محالة، وسوف يأخذ من حسناتك؛ لتُجعل في موازين من اغتبت وظلمت وشتمت، حتى إذا فנית حسناتك، أخذ من سيئاتهم؛ لتُجعل في ميزانك، حتى تُطرح في النار^(٢): ﴿لَا تَلْبِسْ اللَّهَ بِالَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَهُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

إن هناك من يتخذ أساليب في الدعوة والتربية تضر ولا تنفع، وتفرق ولا تجمع، إنهم يتحزَّبون ضد إخوانهم، ولا يتلمسون العذر لغيرهم، ويشكِّكون في مصداقية الآخرين

(١) رواه مسلم (٤/١٩٨٦) كتاب البر والصلة، رقم (٣٢).

(٢) ورد بذلك الحديث الصحيح. انظر صحيح مسلم (٤/١٩٩٧) كتاب البر والصلة رقم (٥٩).



ونياتهم، مما يعمل على تفريق الأمة، وتمزيقها إلى جماعات وأحزاب متعادية، والذي ينبغي أن يعامل المسلم معاملة تتفق مع الأحكام الشرعية والآداب المحمدية، لكونه ما زال مسلماً، فله ما للمسلم من الحقوق، وعليه ما عليه من الواجبات.

كيف يتحد أهل الباطل ضدنا، ويكوّنون صفّاً واحداً في حزبنا، مع أنهم أعداء فيما بينهم، ثم نتعادي نحن ونتقاتل ونتباغض!!

أيها الناس: ينبغي كذلك أن لا تتشتت الأسر، وتقطع الأرحام، لخصومات سلفت، وشجارات سبقت، لئلا يحل الفساد فيما بيننا: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]. إن من الأرحام من يحقد على رحمه، ويتعرض له بالكيد والدسائس، ولذلك فقد قست القلوب، وجفّت العيون، وقلّت الأرزاق، وذهبت البركة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فأين نحن من قول النبي ﷺ: «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمّمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»^(١).

فأين هذا من أناس جعلوا السلام على المعرفة والمكانة، فلا يسلم أحدهم إلا على الكبار، والنبي ﷺ يقول: «إذا لقي أحدكم أخاه؛ فليسلم عليه»^(٢).

وبين النبي ﷺ أن السلام لا يكون على المعرفة، ولا يكون على المكانة، فروى عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(٣).

(١) رواه مسلم (١٧٠٥/٤) رقم (٢١٦٢).

(٢) رواه أبو داود (٣٥١/٤) رقم (٥٢٠٠) قال الألباني: (رواه بإسنادين أحدهما صحيح) كما في المشكاة رقم (٤٦٥٠).

(٣) رواه البخاري (١٣/١)، ومسلم (٦٥/١) رقم (٣٩).



فالسلم هو شعار المحبة والود الذي أقامه رسولنا ﷺ وحثَّ على إرسائه وتثيته في قلوب اتباعه وأمتة من بعده، وعند البخاري موقوفاً على عمار بن ياسر، أنه قال: «ثلاثٌ من جمعهنَّ فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلم للعالم، والإنفاق من الإقتار»^(١).

وبذل السلم للعالم - هنا - يتضمن تواضع العبد، وأنه لا يتكبر على أحد؛ بل يبذل السلم للصغير والكبير، لمن عرف ومن لم يعرف.

ومن حق المسلم على أخيه أيضاً إجابة دعوته، ومن الدعوات ما تكون واجبة، ومنها ما تكون مستحبة، ومنها ما يجرم إجابتها، فأما التي هي واجبة فالدعوة إلى وليمة الزواج، ما لم يكن هناك منكر، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «إذا دعى أحدكم إلى وليمة فليأتها»^(٢). والوليمة هي وليمة العرس، وفي لفظ في الصحيح أيضاً: «إذا دعى أحدكم أخاه فليجب، عرساً كان أو نحوه»^(٣).

قال أهل العلم: هذا الأمر للوجوب، أي يجب عليك أن تجيب الداعي ما لم يكن هناك منكر، أو شيء يخالف الشرع.

عباد الله: إن من الناس من يدعو إلى وليمته وطعامه على قوم، ويترك الفقراء والمساكين - وهم أحق بالدعوة من هؤلاء - وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «شرُّ الطعام طعام الوليمة؛ يُمنَعُها مَنْ يأتها، ويُدعى إليها مَنْ لم يأتها»^(٤). فشرُّ الولائم التي للرياء والسمعة، يُدعى إليها الأغنياء، ويُمنع منها الفقراء.

وهناك من الناس أيضاً من لا يجيب الداعي إلا إذا علم أنه من الأغنياء، وسوف يقدم كذا وكذا، فهذا - أيضاً - مخالفٌ لهدي الإسلام؛ لأن النبي ﷺ وهو خير البشر كان يقبل

(١) رواه البخاري (١٢/١) معلقاً، وقد وصله عبد الرزاق في المصنف رقم (١٩٤٣٩).

(٢) رواه البخاري (١٤٣/٦)، ومسلم (١٠٥٢/٢) رقم (١٤٢٩).

(٣) رواه مسلم (١٠٥٣/٢) رقم (١٤٢٩).

(٤) رواه البخاري (١٤٤/٦)، ومسلم (١٠٥٤/٢) رقم (١٤٣٢).



دعوة كل أحد، وكان يقول ﷺ: «لو دعيت إلى ذراعٍ أو كراعٍ لأجبت، ولو أهدني إليّ ذراعٌ أو كراعٌ لقبلت»^(١).

ويقول ﷺ أيضًا: «يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارةً لجارتها ولو فرسن شاة»^(٢).
عباد الله: أقول ما تسمعون وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كلِّ ذنب فاستغفروه وتوبوا إليه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه البخاري (١٢٩/٣).

(٢) رواه البخاري (١٢٩/٣)، ومسلم (٧١٤/٢) رقم (٩٠) والفرسن: عظم قليل اللحم وموضع الحافر في الإبل.



الخطبة الثانية:

الحمد لله المعروف بالإحسان المحمود بكل لسان، الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان، والصلاة والسلام على رسول السلام على رسول الإسلام، وهادي الأنام، أفضل من صلى وصام، وطاف بالبيت الحرام، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

عباد الله: ومن حقوق المسلم على أخيه أداء النصيحة إليه، فالنصيحة واجبة عند أهل العلم، وقد قال ﷺ: «الدين النصيحة، قالوا: لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

والنصيحة من نصره المسلم لأخيه وعدم خذلانه، وقد قال، ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قلنا يا رسول الله ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: ترده عن الباطل، فإن ذلك نصره»^(٢).

فالواجب علينا أن نتناصح فيما بيننا، والإنسان لا يسلم من الخطأ والنسيان، ونحن جميعاً يعترينا الخطأ في كثير من تصرفاتنا، فالواجب على الأخ الناصح إذا رأى أخاه قد أخطأ في قضية أو مسألة أو اجتهد أو تصرف، أن يذهب إليه وينصحه، ولن يجد من أخيه إلا الحب والدعاء والبشر والاستقبال الحسن.

أما أن ينتقد إخوانه وينال منهم في المجالس، ويتعرض لأعراضهم، ثم يهرب من أداء النصيحة إليهم في وجوههم؛ فإن هذا من الغش لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين.

ومن علامة المؤمن، أنه يتلطف في نصحه، فيذهب إلى أخيه، ويأخذه على انفراد، ويسر إليه بالنصيحة، ولا يشهر به أمام الناس، لأنه لا ينبغي من وراء ذلك إلا رضا الله عز وجل.

(١) رواه مسلم (٧٤/١) رقم (٥٥).

(٢) رواه البخاري (٩٨/٣) من حديث أنس واللفظ له، ومسلم (١٩٩٨/٤) رقم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.



ومما يروى عن الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله:

تَعَمَّدَنِي بِبُصْحِكِ فِي انْفِرَادٍ وَجَنَّبَنِي النَّصِيحَةَ فِي الْجَمَاعَةِ
فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ مِنَ التَّوْبِيخِ لَا أَرْضَى اسْتِمَاعَهُ
فَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ أَمْرِي فَلَا تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَهُ

عباد الله: ومن حق المسلم على أخيه أن يشمّته إذا عطس؛ فقد ورد في الحديث: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه: يرحمك الله، فإذا قال: يرحمك الله، فليقل: يهديك الله ويصلح بالك»^(١).

وعن أنس: «أنه عطس عنده رجلان، فشمت أحدهما، ولم يشمت الآخر، فقال الذي لم يشمته: عطس فلان فشمتته، وعطست فلم تشمتني، فقال: هذا حمد الله، وأنت لم تحمد الله»^(٢).

وروى أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه، فإن لم يحمد الله فلا تشمتوه»^(٣).

أيها المسلمون: ومن حق المسلم على أخيه عيادته إذا مرض، وعيادة المرضى من الأمور التي تزرع المحبة والألفة بين المسلمين، ولذلك فقد جاءت الأحاديث الصحيحة مبينة فضل زيارة المرضى منها ما رواه مسلم عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من عاد مريضاً لم يزل في خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ»^(٤).

(١) رواه البخاري (١٢٥/٧) وأحمد (٣٥٣/٢).

(٢) رواه البخاري (١٢٥/٧)، ومسلم (٢٢٩٢/٤)، رقم (٢٩٩١)، والترمذي (٧٨/٥) رقم (٢٧٤٢)، وابن ماجه (١٢٢٣/٢) رقم (٣٧١٣).

(٣) رواه مسلم (٢٩٩٢/٤) رقم (٢٩٩٢)، وأحمد (٤١٢/٤).

(٤) رواه مسلم (١٩٨٩/٤) رقم (٢٥٦٨) وخُرْفَةُ الْجَنَّةِ: بساتينها.



وقد عاد عليه الصلاة والسلام أصحابه ودعا لهم؛ سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عاده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ودعا له^(١). وعاد عليه الصلاة والسلام جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوجده مُغْمًى عليه فتوضأ عليه الصلاة والسلام وصبَّ عليه الماء؛ فاستفاق^(٢).

أيها المسلمون: إن حقوق المسلمين على إخوانهم لا تنقطع ولا تنتهي حتى بعد الموت، فللمسلم حقوق على إخوانه حتى بعد أن يصبح جثثاً، وتصعد روحه إلى بارئها.

فمن حقوقه بعد وفاته: اتباع جنازته، والصلاة عليها، ومواصلة بالدعاء بالمغفرة والرحمة، فهذه هي أخوة الإسلام، وهذا هو ميثاق الإيثار، وقد قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من شهد الجنازة حتى يصليَّ عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان»، قيل: وما القيراطان؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين»^(٣). وانظر إلى عظم الأجر وجزيل الثواب مع أن العمل هينٌ والمشقة محدودة.

أيها الناس: إن حقوق المسلمين كثيرة، لا نستطيع في هذه الدقائق أن نستوعبها، وإذا لم يستطع أحد منا أن يقوم بكل ما عليه تجاه أخيه من حقوق، فعليه أن يكفَّ شرَّه عن عباد الله، فلا يغتاب أحداً، ولا ينال من عرض أحد، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحجرات: ١٢]. وقد بلغ الحسن البصري أن رجلاً قد اغتابه، فأتى بطبق، ووضع فيه رطباً، ثم قال لخدمته: (اذهب إليه وقل له: أهدي لنا حسناته، وأهدينا له رطباً!!).

وأتى رجل إلى جعفر الصادق، فسبَّ رجلاً من المسلمين في مجلسه، فقال له جعفر الصادق: (أيها الرجل.. أقاتلت الروم؟ قال: لا. فقال له: أقاتلت فارس؟ قال: لا. قال:

(١) انظر: صحيح البخاري (٦/٧)، ومسلم (١٢٥٣/٣) رقم (١٦٢٨).

(٢) رواه البخاري (١٤٩/٨)، ومسلم (١٢٣٤/٣).

(٣) متفق عليه.



أجاهدت الكفار؟ قال: لا. فقال: سبحان الله!! يسلم منك الروم وفارس واليهود والنصارى، ولا يسلم منك المسلمون!!).

فاتق الله أيها المسلم في أعراض المسلمين، فعرض المسلم أمره عظيم، وشأنه خطير، فكيف يزين لك الشيطان أن تتحدث في أعراض إخوانك، فتعدّل هذا، وتجرح ذاك، وتشتتم هذا، وتسب هذا، وقد يكون هذا الذي سببت وشتمت أفضل منك وأتقى منك الله عز وجل.

فأين نحن من أبي الدرداء الذي كان يدعو في السحر لسبعين من أصحابه، وأين نحن من الإمام أحمد وقد رأى ابن الشافعي فقال له: (أبوك من الذين أدعو لهم كل يوم!!).

هذا وصلوا وسلموا على مَنْ أَمَرَكم الله بالصلاة والسلام عليه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقد قال ﷺ: «من صلى عليّ صلاة، صلى الله عليه بها عشراً»^(١).



(١) رواه مسلم (٢٨٨/١) رقم: (٣٨٤).



الوفاء بحق الوالدين (١)

الخطبة الأولى:

• إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]. أما بعد: فإن خير الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي رسول الله ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

أما بعد:

أيها المسلمون: إن الوفاء لمن أعظم وأشرف ما يتصف به الناس، ولذا مدح الله الموفين؛ ولو كان الوفاء دارًا لكان بر الوالدين أعلاها، ولو كان الوفاء جسدًا لكان بر المرء بوالديه رأس هذا الجسد، ولو كان الوفاء قبيلة فإن برك بأبيك وحدبك على والدتك شيخ هذه القبيلة وأعظمها فخارًا.

أي عباد الله! أي مشاعر أرق، وأي فضل بعد فضل الله أحق، من رد الجميل، والاعتراف بالفضل لأعظم صاحب فضلٍ عليك؟ ألم ترَ أنها سببُ خروجك من العدم (واللا شيء) إلى



الوجود؟ والكريم يشكر من تسبب في المعروف له ولو من غير قصد. ألسنت ترى يا أخي أن من فتح عليك باباً عظيماً من الرزق، ولنقل: عدة ملايين من الريالات بكلمة قالها وهو غافل، ألسنت ترى أن من جميل العشرة، وحسن التصرف واللياقة، أن يُحشى له منها شيء؟! تجد الكريم طيب النفس يرى ذلك حقاً واجباً، وتجد البخيل اللئيم يقول: وما الذي صنع؟ إنما الجهد والمال لي، والرزق كله لي، فلو كان فوق هذا الربح الذي أجراه الله على يديه إليك سبب في إنقاذ حياتك من الموت، هل يُجازي هذا المرء أن تُعطيه الدنيا وما عليها؟! فكيف، وهو لا يريد إلا لطفك، وحسن العهد منك، وطيب الأحدث، وفي بعض الأحيان: السلامة من الأذى!. كيف بمن يسعد لنجاحك، ويطرب لأولادك، ويجهد لإعطائك، ويدأب لفلاحك، ويدعو الله بكرة وعشياً بحفظك وسلامتك، ويشعر بسرور الغنى إن دخل القرش جيبيك، ويتلذذ بنعيم السعادة إن أسعد الله بيتك، وتقر عينه بمعافاتك، فهل يجزي هذا أن تحمله على رأسك، أو تنفق عليه من مالك، أو أن تدعو له في صلاتك؟! لا يجزي ولد والده بشيء، ولو فعل وفعل، إلا أن يكون، كما قال الحبيب المصطفى ﷺ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه»^(١). وهذا بابٌ قد أغلق على الناس منذ زمن؛ فلا يجزي ولدٌ والديه بشيء الآن البتة، ولو جزاهما عليه الدنيا بحذافيرها!.

ألم تر أنهما أنفقا عليك في وقتٍ لا تملك لنفسك فيه كسباً؟ وهشاً لك وفرحاً بمقدمك وأنت لا تملك فلساً؟ وقسماً لك من طعامهما وهما لا يريدان منك رداً؟ فقل لي برُّك: هل تُقارن إحسانها بإحسانِ مُحسنٍ من البشر؟! ألم تر أنك إن اتبعتهما بإحسانٍ ألحقت بمنزلتهما في الجنة، فالوالد يُحْدُبُ على بنيه، ويبحث عنهم، ولا تتم سعادته -حتى في الجنة- إلا بهم. ولو سُئل الابن: من تشتهي أن يكون معك؟ لاشتهدى زوجته وولده! فالآباء يطلبون الأبناء، والأبناء يطلبون أبناءهم، ولا عكس!.



ألم تر أنها يريدان لك الحياة والسلامة، وبعض الأولاد قد يُريد لها الضرر، أولست تسمع عن عقوق الأبناء؟ فأين منه تقصير الآباء؟! أما إن الوالدين قد يُقصران، وقد يظلمان أو يجوران، ولكن تبقى في فطرة الله في خلقه أنه مهما ارتكس الآباء في تقصيرهم تجاه أبنائهم، فإنهم لن يبلغوا مقدار ما يفعلهُ الأبناء ويصلوا إليه من عقوقهم وتقصيرهم، إلا ما شذ، والشاذ لا حُكم له.

أغرى امرؤ يومًا غلامًا جاهلاً بنقوده كيما ينال به الوطرُ
قال: ائتني بفؤاد أمك يا فتى ولك الدراهم والجواهر والدرر
فمضى وأغرز خنجرًا في صدرها والقلب أخرجه وعاد على الأثر
لكنه من فرط سرعته هوى فتدحرج القلب المعقّر إذ عثر
ناداه قلب الأم وهو معقّر ولدي حبيبي هل أصابك من ضرر؟
فكأن هذا الصوت رغم خنوه غضب السماء به على الولد انهمر
فارتد نحو القلب يغسله بما أجرت دموع العين من سيل العبر
ويقول يا قلب انتقم مني ولا تغفر فإن جريمتي لا تغفر
واسئل خنجره ليقتل نفسه طعنا فيبقى عبرة لمن اعتبر
ناداه قلب الأم كُف يدًا ولا تذبح فؤادي مرتين على الأثر

ألست توافقني، يا عبد الله: كم نحن بحاجة إلى خلق الوفاء، وإلى الازدياد في التوفية بالبر، وإلا كان المرء جبارًا قاسيًا، غليظًا عاصيًا؟! قال عيسى ﷺ وهو يُعَدُّ من نعم الله عليه وهو في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٣٠-٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۚ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَّلَتْهُ ۚ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۚ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٦].



الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ أَفِي لَكُمْ أَنْ تُعَدِّنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنَى وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ [الأحقاف: ١٥-١٩]. وعن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، قال: كان ابنُ عمر يطوف، فرأى رجلاً يطوف حاملاً أمَّهُ وهو يقول:

إني لها بغيرُها المذلل
إن دُعِرت ركاها لم أذعر
أخجلُها، وما حملت أكثر
أثرى جزئها يا ابنَ عمر؟

فقال: «لا، ولا زفرةً واحدة». وفي رواية: «ولا بطلقةً واحدة من طَلقاتِ الولادة، ولكن قد أحسنت، والله يُثيبك على القليل كثيرًا».

فأسعد قلبها أيها الموفق في حياتها، وبعد المات بصلاحك، وبرِّك وإحسانك، وبدعائك وتحنُّانك، عسى الله أن يجعلك في زمرة البارين، وأن يجعل لك من ذريتك من يبرِّك من بعد برِّك بأبويك، فلا وصفة لاستجلاب البرِّ مثل سابق البرِّ.

أخي المسلم: أكرم أبويك، وتحنَّ، وتذلَّل لهما، وأطعهما في غير معصية، إذ معروف الباري سبحانه عليك أكبر، وهو بالبر قبلهما أولى وأجدر. واعلم أن رضا الله في رضا الوالدين، وأن سخط الله في سخط الوالدين، كما جاء عن النبي ﷺ^(١). بل إنهما من أوسع أبواب دخول الجنة، فانت -إن بررتَهما- تُوافقُ فطرتك، وتُرضي ربَّك، وتكتسب حمد الناس، وتحسن العاقبة في الدنيا، وفوق ذلك تدخلُ الجنة. ألا إنها الغنيمة العظيمة! فاستثمر غنيمتك، أو أضعها، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الوالدُ أوسطُ أبواب الجنة، فإن شئت فأضِع هذا الباب أو احفظه»^(٢). أما إذا زاد البر واتصل، وعُرف به الإنسان، فإنه يسبق الآخرين إلى الجنة؛ فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ:

(١) صحيح الجامع (٣٥٠٧).

(٢) صحيح الترمذي (١٩٠٠).



«دخلت اللجنة فسمعتُ فيها قراءةً، فقلتُ: من هذا؟ قالوا: حارثة بن النعمان، كذلككم البرّ! كذلككم البرّ!» وكان أبرّ الناس بأمه^(١).

أيها المسلمون: إن من حقوق الوالدين على أبنائهم: الإحسان إليهما، فقد قرّن الله الإحسان إليهما بعبادته فقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١]. قال الشيخ السعدي رحمه الله في تفسيره: (أي: أحسنوا بالوالدين إحساناً، وهذا يعمُّ كلَّ إحسان قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة، لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهْيٌ عن ضده).

وللإحسان ضدان: الإساءة، وهي أعظم جُرماً، وتركُ الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول... وتفاصيل الإحسان لا تنحصر بالعد، بل تكون بالحد) اهـ. عن أبي مُرّة مولى أم هانئ بنت أبي طالب أنه: «ركب مع أبي هريرة إلى أرضه بالعقيق، فإذا دخل أرضه صاح بأعلى صوته: عليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أمّاه! فتقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. يقول: رحمك الله كما ربيتني صغيراً. فتقول: يا بني! وأنت فجزاك الله خيراً ورضي عنك، كما بررتني كبيراً»^(٢). ومن حقوق الوالدين على أبنائهما: الإنفاق عليهما عند حاجتهما لذلك، بل إن الشريعة جعلت المال مال الوالد، فكأن الابن فيه يأتي بالتبع: فعن جابر بن عبد الله أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي مالاً وولداً، وإن أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال: «أنت ومالك لأبيك»^(٣). ونقل الإمام ابن قدامة رحمه الله عن ابن المنذر أنه قال: (أجمع أهل العلم على أن نفقة الوالدين الفقيرين اللذين لا كسب لهما ولا مال واجبةٌ في مال الولد). اهـ.

(١) السلسلة الصحيحة (٩١٣).

(٢) صحيح الأدب المفرد (١١).

(٣) صحيح ابن ماجه (١٨٧٠).

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، له الحمد والمجد والكبرياء، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ضد ولا أشباه، وأشهد أن محمدًا عبدُ الله ورسوله، النبي المصطفى، والرسول المجتبي، صلى عليه الله، وسلّم تسليمًا. أما بعد:

أيها المسلمون: ومن حقوق الوالدين على أولادهم: وجوب الطاعة في المعروف، وفي هذا قصّ لنا النبي ﷺ قصة عجيبة، تبين أن طاعة وإجابة الوالدين تُقدّم حتى على نوافل العبادة. فعن أبي رافع عن أبي هريرة أنّه قال: «كَانَ جُرَيْجٌ يَتَعَبَّدُ فِي صَوْمَعَةٍ فَجَاءَتْ أُمُّهُ -قَالَ حُمَيْدٌ: فَوَصَفَ لَنَا أَبُو رَافِعٍ صِفَةَ أَبِي هُرَيْرَةَ لَصِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُمُّهُ حِينَ دَعَتْهُ كَيْفَ جَعَلَتْ كَفَّهَا فَوْقَ حَاجِبِهَا ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا إِلَيْهِ تَدْعُوهُ- فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ أَنَا أُمُّكَ كَلِّمْنِي، فَصَادَقْتُهُ يُصَلِّي فَقَالَ اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ، فَرَجَعَتْ ثُمَّ عَادَتْ فِي الثَّانِيَةِ فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ أَنَا أُمُّكَ فَكَلِّمْنِي، قَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا جُرَيْجٌ وَهُوَ ابْنِي وَإِنِّي كَلَّمْتُهُ فَأَبَى أَنْ يُكَلِّمَنِي؛ اللَّهُمَّ فَلَا تُمِثَّهُ حَتَّى تُرِيَهُ الْمُؤْمِسَاتِ. قَالَ: وَلَوْ دَعَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُفْتَنَ لَفُتِنَ، قَالَ: وَكَانَ رَاعِي ضَاأٍ يَأْوِي إِلَى دَيْرِهِ -قَالَ- فَخَرَجَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْقَرْيَةِ فَوَقَعَ عَلَيْهَا الرَّاعِي فَحَمَلَتْ، فَوَلَدَتْ غُلَامًا، فَقِيلَ لَهَا: مَا هَذَا؟ قَالَتْ: مِنْ صَاحِبِ هَذَا الدَّيْرِ، قَالَ: فَجَاءُوا بِفُتُوسِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ فَنَادَوْهُ فَصَادَفُوهُ يُصَلِّي فَلَمْ يُكَلِّمَهُمْ -قَالَ- فَأَخَذُوا يَهْدُمُونَ دَيْرَهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ نَزَلَ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا لَهُ: سَلْ هَذِهِ -قَالَ- فَتَبَسَّسَ ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَ الصَّبِيِّ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: أَبِي رَاعِي الضَّأْنِ. فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْهُ قَالُوا: بُنِيَ مَا هَدَمْنَا مِنْ دَيْرِكَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. قَالَ: لَا وَلَكِنْ أَعِيدُوهُ تُرَابًا كَمَا كَانَ»^(١).

لقد علم سلف الأمة فضل الوالدين، فعاملوهم بالبر والإحسان، وبالغوا في إكرامهم وطاعتهم، اعترافًا منهم بالجميل، وحذرًا من غضب الربّ الجليل، ومما يروى عنهم في ذلك رَجَهُمُ اللَّهُ:

(١) رواه البخاري (١٢٠٦) ومسلم (٢٥٥٠).



كان محمد بن المنكر يضع خذّه على الأرض ثم يقول لأمه: (قومي ضعي قدمك على خذي).

وقال عروة بن الزبير: «ما برّ والده من شد الطرف إليه».

ولما مات عمر بن ذر قالوا لأبيه ذر: كيف كانت عشرته معك؟ قال: (ما مشى معي قط في ليلٍ إلا كان أمامي، ولا مشى معي في نهار قط إلا كان ورائي، ولا ارتقى سطحاً قط كنت تحته).

وروي عن علي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يخشى أن يأكل مع أمه على مائدة، ف قيل له في ذلك فقال: «أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها، فأكون قد عققتها».

وعن محمد بن سيرين: بلغت النخلة في عهد عثمان بن عفان ألف درهم، فعمد أسامة إلى نخلة فعقرها فأخرج جمارها - فأطعمه أمه، فقالوا له: ما يملكك على هذا، وأنت ترى النخلة قد بلغت ألف درهم؟!

قال: «إن أُمي سألتني ولا تسألني شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتها».

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ أبرّ من كانا في هذه الأمة بأمهما: عثمان بن عفان، وحارثة بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فأما عثمان فإنه قال: ما قدرت أن أتأمل أُمي منذ أسلمت. وأما حارثة، فإنه كان يفلي رأس أمه، ويطعمها بيده، ولم يستفهمها كلاماً قط تأمر به، حتى يسأل من عندها بعد أن يخرج، ما أرادت أُمي؟!».

قال محمد بن المنكر: (بات أخي يصلي، وبثُّ أغمز قدم أُمي، وما أحبُّ أن ليلتي بليته!!).

كان كهمس رجلاً عابداً، وكان يعمل في الجصّ كل يوم بدانقين، فإذا أمسى اشترى به فاكهة، فأتى بها إلى أمه. ورأى مرة عقرباً في البيت، فتبعها ليقتلها، فدخلت في جحرٍ، فأدخل يده خلفها فكانت تلدغه، ف قيل له: كيف تُدخل يدك في الجحر؟ قال: «خفتُ أن تخرج فتجيء إلى أُمي فتلدغها».

وكان حيوة بن شريح - وهو أحد أئمة المسلمين - يقعد في حلقة يعلم الناس، فتقول له أمه: «قم يا حيوة، فألق الشعر للدجاج، فيقوم ويترك المجلس ويفعل ما أمرته أمه!!».



واستسقت أم مسعر ماءً منه بعض الليل، فذهب فجاء بقربة ماء، فوجدها قد غلبها النوم، فثبت في مكانه والشربة في يده حتى أصبح. قال بعض العلماء: (من وقر أباه طال عمره، ومن وقر أمه رأى ما يسره، ومن أخذ النظر إلى والديه عقهما).

ومن حقوق الوالدين: الدعاء لهما، كما كان يقول الصالحون: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]. فهكذا علّم الله عباده أن يقولوا، وأن يدعوا لأبائهم وأمهاتهم بالرحمة، أحياء وأمواتاً. قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: (ادْعُ الله لوالديك بالرحمة، وقل: ربّ ارحمهما، وتعطف عليهما بمغفرتك ورحمتك، كما تعطف عليّ في صغري فرحمني وربّياني صغيراً، حتى استقلتُ نفسي واستغنيتُ عنهما). اهـ.

وقال النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١). فبروا -يا عباد الله- آباءكم تبرّكم أبناءكم، وبادروا حياتهم بالبرّة، يُحْتَمِ لَكُمْ وَلَهُمْ -إن شاء الله- بالمسرة، واتقوا الله؛ إن الله كان عليكم رقيباً.

زُرْ وَالِدَيْكَ وَقِفْ عَلَى قَبْرَيْهِمَا	فَكَأَنِّي بِكَ قَدْ نُقِلْتُ إِلَيْهِمَا
لَوْ كُنْتَ حَيْثُ هُمَا وَكَانَا بِالْبَقَا	زَارَاكَ حَبُوءًا لَا عَلَى قَدَمَيْهِمَا
كَانَا إِذَا سَمِعَا أُنَيْنَكَ أَسْبَلَا	دَمْعُهُمَا أَسْفًا عَلَى خَدَّيْهِمَا
وَتَمَنَّى لَوْ صَادَفَاكَ رَاحَةً	بِجَمِيعِ مَا يَحْوِيهِ مُلْكُ يَدَيْهِمَا
فَنَسِيتَ حَقَّهُمَا عَشِيَّةً أُسْكِنَا	تَحْتَ الثَّرَى وَسَكَنْتَ فِي دَارَيْهِمَا
فَلْتَلَحِّقْ نَهْمَهَا غَدًا أَوْ بَعْدَهُ	حَتَّمَا كَمَا لَحِقَا هُمَا أَبْوَيْهِمَا
وَلْتَنْدَمَنَّ عَلَى فِعَالِكَ مِثْلَهَا	نَدِمَا هُمَا نَدَمًا عَلَى فِعْلَيْهِمَا
بُشْرَاكَ لَوْ قَدَّمْتَ فِعْلًا صَالِحًا	وَقَضَيْتَ بَعْضَ الْحَقِّ مِنْ حَقَّيْهِمَا
وَقَرَأْتَ مِنْ آيِ الْكِتَابِ بِقَدْرِ مَا	تَسْطِيعُهُ وَبَعَثْتَ ذَاكَ إِلَيْهِمَا
فَاَحْفَظْ حُفْظَتَ وَصِيَّتِي وَاعْمَلْ بِهَا	فَعَسَى تَنَالِ الْفَوْزَ مِنْ بَرِّهِمَا





حقوق الأبناء على الآباء (١)

الخطبة الأولى:

• الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَرَضَ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ حُسْنَ تَرْبِيَةِ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ، وَجَعَلَ الْأَوْلَادَ وَالْأَحْفَادَ وَالزَّوْجَاتِ، وَالْإِخْوَةَ الصَّغَارَ وَالْأَخَوَاتِ، أَمَانَةً فِي يَدِ الْقَائِمِينَ عَلَيْهِمْ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمَانَاتِ، يُسْأَلُونَ عَنْهُمْ يَوْمَ الدِّينِ كَمَا يُسْأَلُونَ عَنْ سَائِرِ الْوَاجِبَاتِ. نَحْمَدُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فاتقوا الله عباد الله، فالتقوى وصية الله للأولين والآخرين، ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

عِبَادَ اللَّهِ: مَنْ رُزِقَ السَّالَ وَالْوَلَدَ، فَقَدْ رُزِقَ خَيْرًا عَظِيمًا، وَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ عَلَى نِعْمَتِهِ زَادَهُ مِنْهَا، وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا [نوح: ١٠-١٤]، وَمَنْ وَقَارَ اللَّهِ تَعَالَى الْقِيَامُ بِحُقُوقِ هَذِهِ النِّعْمَةِ؛ لِأَنَّهُ عَنْ ذَلِكَ يَكُونُ مَسْئُولًا.

صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا» (٢).

أَخِي الْمُسْلِمَ: كَمَا عَلِمْتَ حُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ وَوَاجِبَ بَرِّهِمَا وَطَاعَتِهِمَا، فَاعْلَمْ أَنَّ لِأَوْلَادِ حُقُوقًا عَلَى وَالِدَيْهِمْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَدَاؤُهَا، وَأَدَابًا يَلْزِمُهُمُ الْقِيَامُ بِهَا:

(١) عبدالله القرعاوي.

(٢) رواه البخاري (٢٥٥٨) ومسلم (١٨٢٩).



فَالأَوَّلُ مِنْ ذَلِكَ: تَعْلِيمُهُمُ الْعَقِيدَةَ الصَّحِيحَةَ السَّليمة، وغرس محبة الله تعالى وخشيته ومراقبته في قلوبهم، فهذا أول الفلاح وأصله وأساسه، وهو ترسيخ لمبادئ الفطرة وصدق الإيمان، وقد قال ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ - وَفِي رِوَايَةٍ: «وَيُشْرِكَانِهِ» - كَمَا تَتَّبِعُونَ الْإِبِلَ، فَهَلْ تَجِدُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا»^(١). وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَهُوَ عَلَى الْمِلَّةِ، حَتَّى يُبَيِّنَ عَنْهُ لِسَانُهُ»^(٢).

الثَّانِي: أَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَحَمْلُهُمْ عَلَى الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَحْنِيبُهُمُ الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ، وَالْمَفَاسِدَ وَالشُّرُورَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦].

وَلِقَوْلِهِ ﷺ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»^(٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ بِلَفْظٍ: «عَلِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلَاةَ ابْنَ سَبْعٍ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا ابْنَ عَشْرِ»^(٤).

الثَّالِثُ: حُسْنُ تَرْبِيَّتِهِمْ، وَتَأْدِيبُهُمْ بِتَعْلِيمِهِمُ الصَّدَقَ وَالْأَخْلَاقَ الْجَمِيلَةَ وَمَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَمَجَالِسَةَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَذَكَرَ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لَهُمْ، وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْكُذْبِ وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ، وَمَجَالِسَةَ أَهْلِ الْبَطَالَةِ وَاللَّعِبِ وَالسُّوءِ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦] قَالَ: «عَلِّمُوا أَهْلِيكُمْ الْخَيْرَ»^(٥).

الرَّابِعُ: وَجُوبُ النِّفَقَةِ عَلَى الْأَوْلَادِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، أَيْ:

(١) رواه البخاري (٦٥٩٩) ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٨).

(٣) صحيح أبي داود (٤٩٥).

(٤) صحيح الترمذي (٤٠٧).

(٥) صحيح الترغيب (١١٩).



﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ﴾ - وَهُوَ الْآبُ - ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ أَيُّ: طَعَامُ الْوَالِدَاتِ، ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أَيُّ: لِبَاسُهُنَّ، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَيُّ: بِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أُمَّتَاهُنَّ فِي بَلَدِهِنَّ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا إِقْتَارٍ. وَلِقَوْلِهِ ﷺ: «خُذِي مِنْ مَالِهِ مَا يَكْفِيكَ وَوَلَدِكَ بِالْمَعْرُوفِ»^(١).

الخامس: العدل والمساواة بين الأولاد من بنين وبنات في العطاء والهبة والمحبة، ونحو ذلك من أنواع المفاضلة بينهم؛ لما في الصحيحين عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إني نحلّت ابني هذا - أي أعطيته - غلاماً كان لي. فقال رسول الله ﷺ: «أكل ولدك نحلته مثل هذا؟»، فقال: لا. فقال رسول الله ﷺ: «فأرجعه». وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: «أفعلت هذا بولدك كلهم؟!»، قال: لا. فقال ﷺ: «اتقوا الله واعدّوا في أولادكم»^(٢).

السادس: تحسين الاسم، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ غيّر اسم عاصية، وقال: «أنت جميلة»^(٣).

السابع: العقيقة، أي الذبيحة عن المولود؛ لقوله ﷺ: «عن الغلام شاتان متكافئتان - أي متساويتان سناً وشبهاً - وعن الجارية شاة»^(٤).

الثامن: المبادرة بالختان؛ لأنه في زمن الصغر أفضل؛ لقوله ﷺ: «الفطرة خمس: الختان...» الحديث^(٥).

فاتقوا الله - عباد الله -، وأدّوا ما أوجب الله عليكم من الحقوق، فإن بعض الناس لا يهتم من بنيه إلا أن يكونوا موظفين أو تجاراً أو محترفين، يكتسبون المال ولا يبالون بهم إذا جمّعوا المال؛ أصالحين كانوا أم أشراراً، وقد يما قيل: أشبع ولدك وأحسن أدبه، وأجمع له أدباً ولا تكتسب له ذهباً.

(١) رواه البخاري (٧١٨٠) ومسلم (١٧١٤).

(٢) رواه البخاري (٢٥٨٧) ومسلم (١٦٢٣).

(٣) رواه مسلم (٢١٣٩).

(٤) صحيح ابن ماجه (٢٥٧٧).

(٥) رواه البخاري (٦٢٩٧) ومسلم (٢٥٧).

وَالْأَبْنَاءُ وَرَثَةُ آبَائِهِمْ طَبَائِعَ وَآثَارًا، وَكَمَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أَوْلَادُكَ فَكُنْ أَنْتَ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا
فَإِنَّمَا الْوَلَدُ سِرٌّ أَبِيهِ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ
شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا عِلْمًا نَافِعًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، إِنَّهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ.
بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَنَفَعَنِي وَإِيَّاكُمْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ،
أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ وَلِسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرُوهُ وَتُوبُوا
إِلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.



• الخُطْبَةُ الثَّانِيَّةُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ جَعَلَ التَّقْوَى خَيْرَ زَادٍ، أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ وَأَشْكُرُهُ، وَالشُّكْرُ وَاجِبٌ لَهُ عَلَى كُلِّ الْعِبَادِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم، وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.
أَمَّا بَعْدُ:

فَيَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ: أَخَوْفُ مَا يُخَافُ عَلَى الصَّغِيرِ سُكُوتُ مُرَبِّهِ عَلَى قَبِيحِ فِعَالِهِ، وَفُحْشِ لِسَانِهِ، وَإِعْطَاؤُهُ كُلَّ مَا يُحِبُّ، وَاسْتِغْرَافُهُ فِي اللَّعِبِ، وَتَفْضِيلُهُ عَلَى إِخْوَانِهِ، وَمُرَافَقَةُ الْأَشْرَارِ فِي الشَّارِعِ وَالْدَّارِ، وَعَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُوا وَلَكِنْ اسْأَلُوا عَنْ أَقْرَانِهِ.
وَالطُّفْلُ شَاشَةٌ بَيَضَاءُ، يَنْقُشُ الْمُرَبِّي مَا يَشَاءُ عَلَيْهَا مِنْ أَلْوَانِهِ؛ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَشْكُو إِلَيْهِ عُقُوقَ ابْنِهِ، فَأَحْضَرَ عُمَرُ الْوَلَدَ، وَأَتَبَهُ عَلَى عُقُوقِهِ لِأَيِّهِ وَنَسْيَانِهِ لِحُقُوقِهِ، فَقَالَ الْوَلَدُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: أَلَيْسَ لِلْوَلَدِ حُقُوقٌ عَلَى أَبِيهِ؟ قَالَ عُمَرُ: «بَلَى». قَالَ: فَمَا هِيَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ عُمَرُ: «أَنْ يَتَّقِيَ أُمَّهُ، وَيُحْسِنَ اسْمَهُ، وَيَعْلَمَهُ الْكِتَابَ - أَيُّ الْقُرْآنِ -». قَالَ الْوَلَدُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنْ أَبِي لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؛ أَمَّا أُمِّي فَإِنَّهَا زَنْجِيَّةٌ كَانَتْ لِمَجُوسِيٍّ، وَقَدْ سَمَّانِي جُعَلًا، وَلَمْ يَعْلَمْنِي مِنَ الْكِتَابِ حَرْفًا وَاحِدًا. فَالْتَفَتَ عُمَرُ إِلَى الرَّجُلِ، وَقَالَ لَهُ: «جِئْتَ إِلَيَّ تَشْكُو عُقُوقَ ابْنِكَ، وَقَدْ عَقَقْتَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْقَكَ، وَأَسَاتَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يُسَيَّءَ إِلَيْكَ».

فَاتَّقُوا اللَّهَ - عِبَادَ اللَّهِ - فِي أَوْلَادِكُمْ؛ فَقَدْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: (وَقَدْ اسْتَنْبَطَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا؛ حَيْثُ أَوْصَى الْوَالِدَيْنِ بِأَوْلَادِهِمْ، فَعَلِمَ أَنَّهُ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ عُمَرَ قَالَ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحَلَّبَتْ تَذْيِيبَهَا، تَسْعَى إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِطَنْهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟!»، قَالُوا: لَا، يَا



رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «فَوَاللَّهِ: اللَّهُ أَزَحَمُ بَعَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا»^(١)، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، قَالَ: إِنَّمَا سَأَلَهُمُ اللَّهُ الْأَبْرَارَ، لِأَنَّهُمْ بَرُّوا الْآبَاءَ وَالْأَبْنََاءَ، كَمَا أَنَّ لَوَالِدَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا، كَذَلِكَ لَوَلَدُكَ عَلَيْكَ حَقٌّ.

إِخْوَتِي فِي اللَّهِ: اتَّقُوا اللَّهَ فِي أَوْلَادِكُمْ، وادعوا لهم بالصلاح، وَلَا تَيَأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَإِنْ طَالَ النَّصْحُ فَلَا تَقْنَطُوا، فَإِنَّ الْهُدَايَةَ بِيَدِ اللَّهِ، وَقَدْ يَكُونُ تَأْخِيرُ هِدَايَةِ الْوَلَدِ نَوْعٌ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ لِلْوَالِدِينَ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَأْتِي بِرُّهُ وَخَيْرُهُ بَعْدَ مَمَاتٍ وَالِدِيهِ أَخَوْجُ مَا يَكُونُ الْوَالِدُ إِلَيْهِ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٢).

ولدي يا نبضةً في خافقي	ولدي يا فلذةً من كبدي
ولدي يا كوكباً أرقبُه	كي أرى فيه ضياءَ الفرقد
إن سألْتُ الله يوماً أن أرى	في خريف العمر أذكى مشهد
فشبابٌ صادقٌ في طاعةٍ	طاهرَ النظرة، معصوم اليد
أو سألْتُ الله يوماً أملاً	قبل أن ألقى الردى في مرقدي
فلذتي يخشعُ في محرابه	ويُباري النجم عند السُّودد

وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْأَوْلَادُ: لَا تَجْعَلُوا الْقِسْوَةَ الَّتِي قَدْ تَطَرَّأَ مِنْ وَلَدِيكُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَذْرًا لِلْعُقُوقِ، وَالْجَفَاءِ وَنَكَرَانِ الْجَمِيلِ، فَإِنْ لَهَا حَقًّا لَا يَبْلُغُهُ بَرَكَمُ مَهْمَا كُنْتُمْ بِهِمْ بَرَّةً، ذَلِكَ حِينَ عَجَزَكُمْ وَضَعْفَكُمْ فِي صَغُرِكُمْ، ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، وَلِيَنْظُرَ كُلُّ امْرِئٍ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ قَبْلَ أَنْ يَطْلُبَ مَا لَهُ مِنَ الْحَقُوقِ، وَالْمَوْفُوقِ مِنَ وَفْقٍ لِلْبِرِّ وَالصَّلَةِ وَسَلَمٍ مِنَ الْعُقُوقِ.

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٦٣١).



﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾
[الأحزاب: ٥٦]، فَأَكْثَرُوا عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاةِ يُعْظِمَ لَكُمْ رَبُّكُمْ بِهَا أَجْرًا، فَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»^(١).



(١) رواه مسلم (٣٨٤).



الهدى الملائم في الزواج والولائم^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي لا إله إلا هو، المتوحد بالجلال لكمال الجمال تعظيماً وتكبيراً، المتفرد بتصريف الأحوال على التفصيل والإجمال تقديرًا وتدبيرًا، المتعالي بعظمته ومجده، الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، سبحانه لا يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، لا توارى منه سماء سماء، ولا أرض أرضا، ولا جبل ما في وعره، ولا بحر ما في قعره: يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله إلى جميع الثقلين الإنس والجن بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الأتقياء الطيبين، الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله حقَّ التقوى، فتقوى الله طريقُ الهدى، ومخالفُها سبيلُ الشقاء. أيها المسلمون: الأسرةُ أساسُ المجتمع، منها تنفرد الأمم والشعوب، نواةُ بنائها الزَّوجان، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]. والشريعة مبناهَا على الحِكم ومصالح العباد، دَعَتِ الشَّبَابَ لإِعْفَافِ أَنْفُسِهِمْ بِالزَّوْجِ، قال عليه الصلاة والسلام: «يا معشرَ الشَّبَابِ، مِنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغْضَّ لِلْبَصْرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصِّيَامِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ»^(٢).

(١) عبدالمحسن القاسم.

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠).



حثَّ الدِّين على اختيار الزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ ذاتِ الخُلُقِ الرَّاقِي والتعامل الهادي، لا ترفعُ صوتًا ولا تؤذي زوجًا. والسؤال عن حالِ الخاطب والمخطوبة أمرٌ لازم لبيان ما قد يخفى في أحدهما من مثالبٍ قاذحة، وعلى المسؤول الصدق في الجواب والبيان بكلِّ وضوح وأمانة لإبداء خوافي المحاسن والمساوي، وكتمانٌ معاييب أحدهما عند السؤال ضربٌ من الغشِّ للمسلمين.

وإذا عزم الخاطبُ على الخطبة أبيع له النَّظر إلى مخطوبته بحُضور محرِّمها ودون خلوة بها، من غير تدليسٍ عليه في زينةٍ أو تجمل، يقول المصطفى ﷺ: «إذا خطبَ أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظرَ إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»^(١).

وليحذر الخاطب قبل العقدِ الخلوة بمخطوبته أو الحديث معها بمهاتفة الاتصال أو لباسِ المخطوبة خاتمًا أو مسَّ جسدها أو الخروج بها من دارها، فإنَّ ذلك من المعاصي وركضة من الشَّيطان يغوي بها الخاطبين، وكثيرًا ما تبدد أحلامُهما بتلك السيئات.

والإسلام دين عدلٍ وقصد، أمر الشباب بالزَّواج، وحثَّ على تيسير مهره، وإذا قلَّ المهرُ علَّت المرأة، وشرُفت عند الزوج مكانتها وزادت بركتها، وأثرياء الصَّحابة لم يغالوا في مهورهم، يقول عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تزوجتُ على وزنِ نواةٍ من ذهب، ولما علم النبي ﷺ عن صداقه قال له: «بارك الله لك»^(٢).

والمهر حقٌّ للمرأة لا يجوز للأبَاء أو الأولياء اختصاصُهم به، قال سبحانه: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ فِحْلَةً﴾ [النساء: ٤].

وجمال المرأة في سترها، وبهاؤها في حياتها، ورونقها في عفافها، والإسلام جاء أمرًا بستر المرأة، وبعض النساء يقعن في المحرمات في مواطن فرح، فتجوز لنفسها ما ضاق من اللبس، وأخرى تلبس ما رقق منه مما لا يستر جسدها، ومنهن من تبدي شيئًا من ساقها وفخذها، ومنهن من لا تستر أعلى جسدها، يزين لهنَّ الشيطان سوء عملهنَّ.

(١) حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٨٢).

(٢) صحيح النسائي (٣٣٧٢) وأصله في البخاري (٣٧٨١).



والمرأة لا يحل لها أن تبدي للمرأة إلا ما أبيح كشفه أمام محارمها من الرجال مما جرت العادة بكشفه في دارها من الرأس واليدين والعنق والقدمين، ولا تبدي المرأة عند النساء أكثر من ذلك.

ومن النساء الجاهلات من تكشف عورتها لامرأة أخرى لإزالة خوافي شعر جسدها، وهذا منكرٌ غليظ، فيه اطلاعٌ على العورات وخديعةٌ للزوج وضياح لحقه في غيبته، عليها تهديدٌ من رب العالمين، يقول عليه الصلاة والسلام: «أيما امرأة وضعت ثيابها في غير بيت زوجها فقد هتكت سترها فيما بينها وبين الله»^(١).

هذا بالإضافة إلى ما يترتب على ذلك من وقوع فيما يُخشى من الشر والضرر، كالعين والسحر ونحوه مما يتسبب به الاطلاع على ما أمر الله بستره من العورات رحمة منه وحكمة، والله الحكمة البالغة والحجة الدامغة..

والدين وسطٌ في الإنفاق بين الإسراف والتقتير، يُعلن النكاح ولا يقع في المحذور، ومن النساء من تتباهى في زينة الملبس والتبرج والتجمل، تبدد الأموال وتهدر الأوقات بشهرة زائفة أو رياءٍ محقوت.

واحذري أيها المرأة من الخيلاء في الملبس، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «بينما رجلٌ يمشي في حلةٍ تعجبه نفسه مرَّ رجلٌ رأسه يختال في مشيته إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»^(٢).

والمرأة المسلمة متميزة بزيئها وملبسها وشعرها، بعيدة عن تشبهها بالرجال أو غير المسلمين، وتشبهها بغير جنسها يعرضها للوعيد، فقد لعن رسول الله ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال، ولكل جنسٍ من الرجال والنساء خصائصه وأحواله وملبسه وزينته. المرأة تفخر بأنوثتها، والرجل يعتز برجولته، وفي التقليد ضعفٌ في النفس وعدمٌ رضا بالخصائص ونقصٌ في إدراكِ حكمة الخالق.

(١) صحيح ابن ماجه (٣٠٣٦).

(٢) رواه البخاري (٥٧٨٩) ومسلم (٢٠٨٨).



وحوجبُ العينين زينةً من ربِّ العالمين، وبعضُ النساءِ تعمدُ إلى إزالةِ بهاءِ وجهها وجمالِ عينيها بتنفِ حواجبها، وقد لعن الله مَنْ أزالَتْ شعرَ حاجبها، يقول النبي ﷺ: «لعن الله النامصةَ والمتنمصةَ»^(١).

وبعضُ الناسِ لضعفٍ في النفسِ مولعٌ بالتقليد، يضاهي غيره حتى في أفراحه، والرجلُ محرَّم عليه رؤيةُ المرأةِ الأجنبية في النكاح وغيره، ودخول الزوج ليلةَ الزفاف على النساءِ الأجانب وجلسه على علوٍّ مع زوجته وهو يتطلّع إلى نساءِ المسلمين بكاملِ زينتهن منكرٌ ذليل، يقول النبي ﷺ: «يَاكُمْ والدخول على النساء»^(٢).

وجلسُ الزوج مع زوجته أمامَ النساءِ تقليدٌ مقيت، دافعه الهوى، وظاهره الخيلاء، وثمرته الشقاء، فما حالُ الزوجين أمامَ النساءِ وهنَّ ينظرنَ إليهما؟! والناظر للزوجين من الحضور ما بين شامتٍ في الخلقة، وما بين حاسدٍ على النعمة، تقول فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «خيرٌ للمرأة أن لا ترى الرجالَ ولا يراها الرجال».

وإرخاءُ ذيلٍ طويلٍ يُحمَل خلفَ الزوجة ليلةَ زفافها تشبهُ بغيرِ المسلمين، حرامٌ عليها فعله.

والمعازِف والغناء لا تدني من الربِّ، ومن أسبابِ قسوةِ القلب، حجابٌ كثيف عن الرحمن. وما يفعله بعضُ الناسِ من المعازِف ليلةَ النكاح جحودٌ لنعمةِ الله وعصيانٌ له، ومن السَّرف استئجار عازفةٍ للغناء لعصيان ربِّ العالمين في دُجى السَّحر زمنِ نزولِ العظيم جَلَّالُهُ إلى السَّماء الدنيا، والعُباد في محاريبهم.

والمسلمُ حرامٌ عليه حضورٌ مناسبةٍ فيها منكر، يقول الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا تدخلُ وليمةً فيها طبلٌ ومعازِف). وفي أحكام الإسلام غنيةٌ عن الحرام، وديننا أباح ضربَ الدفِّ للنساءِ خاصةً في وقتٍ من الليل بكلامٍ لا محذور فيه.

(١) صحيح الجامع (٥٠٩٤).

(٢) رواه البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢).



والتصوير من كبائر الذنوب، موجبٌ للْعنة والغضب، قال عليه الصلاة والسلام: «لعن الله المصوِّرين والمصوَّرات»^(١) والمصوِّر أشدَّ الخلق عذاباً، قال ﷺ: «أشدَّ النَّاس عذاباً يوم القيامة المصوِّرون»^(٢).

وتصوُّيرُ النِّساءِ يَجْنِي مَفسادَ وخيمة، وقد تسري صوْرُ النِّساءِ إلى غير المحارم من الرِّجال، فتنهار بذلك بيوت، والأبُّ اللَّيب من يمنعُ زوجَتَه وبناته من ورود أماكن التصوير.

والعدْلُ في المأكَل والمَشْرَب وعدم البَذخ فيه دأْبُ الفضلاء، سنَّةُ خيرِ البشر، تصِفُ صفِيَّةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وليمتَه بقولها: أُولم النبي ﷺ على بعض نِساءِه بمَدَّين من شعير.

ومن مجانبَةِ الصَّواب أن تكونَ مَبذَّرًا في الزَّواج، شحيحًا في البذل في أوجُه الخيرات. وتكرار ولائم مناسبات النِّكاح في ظاهرها أفراح، وفي حقيقتها على الزَّوج أتراح، للخطبةِ وليمةٌ، وفي يوم إلباس المخطوبة خاتماً من قبل خاطبها مأدبة، مع أن مَسَّ يدها محرَّم، وليلة عقد النِّكاح دعوة، وفي ليلة الزَّفاف مأكَل ومشارب متنوِّعة، إرهاقٌ لمؤوِّنة الزَّوج، هل مَنْ يسعى لبناء بيتٍ زوجيَّةٍ مُحاطٍ بالسَّتر والعفاف تُستنزَفُ أمواله أم تخفَّف عنه الأعباء لإضافةِ لبنةٍ صالحةٍ في المجتمع؟! والاكتفاء بوليمة واحدة ليلة الزفاف أحبُّ للزوجين وأسلم وأكمل وأوفق.

والله عزَّ وجلَّ جعل الليلَ لباساً والنومَ سُبَاتاً، والنبي ﷺ كان يكره النومَ قبل العشاء والحديثَ بعدها. متفق عليه.

ولحظات الفرح يُظهر التعبير عنها من غير سَهَر فاحش، وإعلان النِّكاح لا حاجة إلى امتداده إلى السَّحر، وساعاتُ في الليل غنيَّةٌ عن جميعه.

(١) رواه البخاري (٥٣٤٧).

(٢) رواه البخاري (٥٩٥٠) ومسلم (٢١٠٩).



أيها المسلمون: فَمَنْ أَسَّسَ بِنْيَانَهُ عَلَى التَّقْوَى أَزْهَى وَأَرْبَى، وَمَنْ أَحَاطَهُ بِالْمَحْرَمَاتِ أَذِنَ بِحُلُولِ الشَّقَاءِ، وَالزَّوْجَانِ يَسْتَوِيَانِ فِي لَظَى الْعَصِيَانِ لَيْلَةً زَفَافَهُمَا، يَقُولُ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِنِّي لِأَعْصِي اللَّهَ فَأَرَى ذَلِكَ فِي خَلْقِ امْرَأَتِي وَدَابَّتِي).

والمراة الحاذقة لا تزلزل بيتها بمعصية الله أوّل ليلتها، فالذنوب تعسر الأمور، وتوحش القلب بين الزوجين، وكلّما كان الزواج أقرب إلى الصواب كان أحرى بالتوفيق.

وجملة المخالفات في النّكاح داعيها عُقْدَةُ الشّعور بالعجز والنقص، وبعض الناس قد لا يدرك حقيقة النّكاح، يظنّ أنّ من مستلزماته البذخ والتفنّن في المأكّل والتّباهي في الملابس، وليس الأمر كذلك، بل النّكاح عقدٌ موثّق غليظ بين زوجين، لا يُشَاب بخطيئة، ولا يعرّض للانهيار بمعصية.

وعلى الآباء أن لا يُرخوا العنان للنساء لارتكاب المعاصي بما يزيد النّكاح عقبات. والمراة مستضعفة، إن لم تُؤخذ بيد وليّها جنحت مع نفسها لهواها، وعلى النساء الإذعان لأوامر الله وعدم الوقوع في المحرّمات، وعلى المراة أن تشتغل بمعالي الأمور لإصلاح قلبها في طاعة ربّها، فموطنها أمٌّ وراعية أسرة وموجهة، ينبغي أن تُعلي من فكرها، وترقى باهتماماتها، فاليوم عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفّعني الله وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كلّ ذنب، فاستغفروه إنّّه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشأنه، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه.

أما بعد:

أيها المسلمون: الإسلام هو منبع الحضارة والشُّؤدَد، والتمسُّك به يثمر الرُّقيَّ والتقدُّم، يبني الأمَم، وينشئ الأجيالَ بأمثل السُّبُل، يسر مسالك النِّكاح ودروب المودَّة بزواج سعيد يبهج الزوجين وأهلها، ويسرُّ المجتمع بأكملِه.

يختار الزوج امرأة ذات دين وخلقٍ راقٍ وأدبٍ رفيع، وإذا تقدَّم خاطبٌ كفءً متَّسماً بالدين والخلق لم يردَّ، وبعدَ استشارةٍ لذوي النَّهى واستخارةٍ وعزمٍ على الاختيار يرى الخاطبُ مخطوبته بحضورٍ محرِّمها. ومع انشراح صدرٍ وتوكلٍ يُعقد النِّكاح، وفي ليلة الزِّفاف فرحٌ معتدل، لا مباهاة فيه ولا مفاخرة، يُعلن فيه النِّكاح ويدعى إليه ويصنع طعاماً بقدرهم، لا إسراف فيه ولا تبذير، وتُزفُّ المرأة إلى زوجها، والمرأة الواعية ذات العقلِ الرَّاجح والروح السامية تسعى إلى منع المحرِّم في زواجها لعلَّها أن المعصية لها أثرٌ على حياتها مع زوجها. والإسلام يسرُّ النِّكاح وسهَّل أبوابه على الشُّباب، النبي ﷺ تزوج صفية وهو في سفر، يقول أنس رضي الله عنه: «حتَّى إذا كان بالطريق جهَّزتها له أم سليم، فأهدتها له في الليل، فأصبح النبي ﷺ عروساً».

ومن قبائح الصَّنائع تأخير الأب تزويج ابنته مع تقدُّم الكفء لها، أو حجبها على أحد دون غيره بلا رضا منها، فأين الرفق بالقوارير؟ وأين الرفق بالأهل؟ وأين المشورة؟ وأين التوازن التربوي؟

واعلم أيها الأب الذي يؤخر زواج ابنته بلا طائل؛ أن ابنتك مستضعفة في دارك، منعها حياؤها من إبداء مكنونِ نفسها، تصبح أسيفةً وتمشي حزينه، تتألم من دخول بوابة العنوسة، والمرأة زهرة لها زمن قصيرٌ ثم تذبل، ومن الهدى القويم تزويجها في سنٍّ مبكرة، ولا غضاضة



في عَرَض الرَّجُل ابنتَه أو أختَه على الرَّجُل الصالح، وهذا من تمام الرَّعاية والقيام بالولاية، وعمرُ الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَرَض ابنتَه حفصة على عثمان فردّها وما غَضِب، فعرضها على أبي بكر فردّها وما أيس، فعرضها على النبي ﷺ فتزوَّجها. رواه البخاري.

ومنعُ الآباء الخاطَبَ ذا الدين والخلق مخالِفُ لأمرِ الشريعة، يقول النبي ﷺ: «إذا جاءكم مَنْ ترضون دينَه وخلقه فزوَّجوه، إلّا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد عريض»^(١).

فالرشد في اتِّباع الهدى، واللبيب من رجا السعادة من أبواب الطاعة، والسعادة في مرضاة الله تعالى واتباع رسوله، جعلنا الله وإياكم من أهلها.

ثم اعلّموا أنّ الله أمركم بالصلاة والسلام على نبيّه فقال تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلّ وسلّم على نبيّنا محمد، وارض اللهم عن خلفائه الراشدين.





الحقوق الزوجية (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، أمر ووصى، وشرع فأحكم، وهو العليم الخبير، أحمدته سبحانه وأشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا معقب لحكمه وإليه المصير، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، أنار السبيل، وأوضح الطريق، وهدى إلى النهج القويم، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى حق التقوى، فبالتقوى كل حبل يقوى.

أيها المسلمون: في أحضان الأسرة المتماسكة الملتزمة بأحكام الله تنمو الخلال الطيبة، وتنشأ الخصال الكريمة، ويعيش الصبية الصالحون حيث تفسو المودة، وتنتشر الرحمة في جنبات هذا البيت الكريم، متمثلًا فيه قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

إن المودة والألفة هي قوام الأسرة، وإن أجلى مظاهرها وأوضح أسبابها حسن العشرة، ولزوم الطاعة، والتواصي بين الزوجين بالخير، وجميل الخلق، فأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخير المؤمنين خيرهم لنسائهم، والمرأة إذا صلت خمسه، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبوابها شئت.

عباد الله: إن من أسباب سعادة الزوجين قيام كل منهما بما يجب عليه نحو صاحبه، فقيام الزوج بالواجب عليه، وقيام المرأة بالواجب عليها، يكفل للبيت السعادة والهناء بتوفيق من الله.



والله جل وعلا في كتابه العزيز قد بين للزوجين الواجب على كل منهما فقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فأخبر تعالى أن للزوجة حقاً كما أن عليها واجباً، وللزوج حق كما أن عليه واجباً.

فالحق الواجب على الزوج نحو امرأته الإنفاق عليها، كسوتها، التعامل معها بالمعروف، كفُّ الأذى، حسن العشرة، وقد سأل رجل النبي: «ما حق امرأة الرجل عليه؟ قال: أن تطعمها إذا طمعت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبّح، ولا تهجر إلا في الفراش»^(١)، فهذه خمس خصال:

أولاً: أمره أن يطعمها إذا طعم، فيوفر لها الطعام، وأمره أن يوفر لها الكسوة، ثم نهاه عن ضربها في الوجه؛ لأن الضرب في الوجه فيه إهانة وإذلال، ووجه الإنسان أشرف أعضائه الظاهرة، فلا يجوز تشويهه بضربه، ويمكن الأدب في غير ذلك، ونهاه أن يقبّح أي: أن يقول كلمة قبيحة، نحو: قبّحك الله أو غيره من الألفاظ البذيئة، فإن الألفاظ السيئة تجرح القلب أعظم من الضرب، ولذا يقول الله جل وعلا: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

ونهاه عن الهجران إلا في الفراش، بمعنى: إذا أراد هجرها هجرها بترك المبيت معها، وأما هجر بترك الكلام والمحادثة فهذا نهى عنه النبي، فبقاؤها معه من دون حديث صاحبها للآخر يزيد في الجفاء، ويبعد كلاهما عن الآخر، فإن الأحاديث الودية مما يكسب القلب محبة ومودة من كل منهما لصاحبه.

وأما إذا دخل وخرج، لا يكلمها ولا يلتفت إليها، لا يسمع منها قولاً، ولا يُسمعها قولاً، فهذا أمر نهى عنه النبي، لأنه يحدث تصدّعاً في الحياة الزوجية، وبعد كل منهما عن الآخر، والله تعالى يقول أيضاً: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وقال: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّعَعْدُوْا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَنْجِدُوا إِلَيْتِ اللَّهِ هُزُوا﴾ [البقرة: ٢٣١].

(١) صحيح أبي داود (٢١٤٢).



فانظر إلى أن ربنا جل وعلا أرشد الزوج إذا طلق المرأة، وأراد العود إليها، فليكن بقصد الإصلاح، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُمْ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربين انقطاع العدة، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بمعنى: استرجعوهن لتكون الرجعة بالمعروف أي: ناوياً العشرة بالمعروف، لا جاعلاً الرجعة سبباً للعذاب والألم، ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فدعها تنقضي عدتها، ولعل الله أن يعوضها خيراً ويعوضك خيراً.

وأما إمساك لأجل الإضرار والظلم والعدوان، فهذا نهى الله عنه بقوله: ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣١] أي: لا تمسكوهن وتراجعوا المرأة ضراراً لأجل أن تعتدي عليها، أو أن تظلمها وتسيء إليها، فذاك محرم في شريعة الإسلام، والعدوان قد نهى الله عنه، ولا يحل للرجل أن يعتدي عليها بالإيذاء والإضرار، فذاك أمر لا يليق بالمسلم السامع والمطيع لله ورسوله.

ونبينا قد أرشد الأزواج -أيضاً-، أرشد الزوج إلى المعاملة الحسنة مع المرأة، فأخبرهم أن من كمال الإيمان حسن الخلق، فقال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخيركم خيركم لأهله»، «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»^(١).

فإن حسن الخلق وحسن التعامل يدل على كمال الإيمان وقوته، وسوء العشرة وسوء المعاملة وعدم الوفاء يدل على نقص في الإيمان، ولذا قال نبينا: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»، ثم قال: «وخيركم خيركم لأهله»، وخير الناس من كان خيره لنسائه، التعامل الحسن، والقيام بالواجب، والبعد عن كل ما يكدر صفو العشرة وينغصها.

ويبين في موضع آخر أن الرجل يجب أن يكون المستحتمل للأخطاء، ويجب أن يكون الصبر والتحمل من أخلاقه، فهو أقوى من المرأة تحملاً، والمرأة ضعيفة، وقد يكون منها الخطأ، لكن تحمّل الرجل وصبره هو المطلوب منه، فإنه القيم عليها، وما دام القيم فلا بد من صبر وتحمل، فيقول: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر»^(٢).

(١) صححه الألباني في كتاب الإيمان لأبي عبيد (٢٨).

(٢) رواه مسلم (١٤٦٩).



لا يبغضها ويكرهها فإنه قد يكون فيها خلق غير مناسب، ولكنها تشتمل على خلق طيب أيضًا، وهكذا حال الإنسان، فالكمال في المخلوق غير ممكن، لا من الرجل ولا من المرأة، فإن كرهت منها خلقًا من الأخلاق فلا بد أن ترتضي منها خلقًا غيره، وأما إذا كنت تعاتب على كل نقص، وتريد الكمال في كل الأحوال، فذاك طلب المستحيل، ومن كثر عتابه قل أصحابه.

ويبين أيضًا ذلك بوضوح جلي فيقول فيما ترويه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «خيركم خيركم لأهله» ثم قال: «وأنا خيركم لأهلي»، فمحمد خير الناس لأهله، صبرًا وتحملًا وإكرامًا ومعاملة بالحسنى، آلى شهرًا منهم لما حصل منهم ما حصل، ومع هذا كان يعاملهم بالحسنى، وتخبر عائشة لما سئلت: ماذا كان يفعل في بيته؟ قالت: كان في حاجة أهله، فهو من أحسن الناس خلقًا، وأحسنهم تعاملًا صلوات الله وسلامه عليه أبدًا دائمًا إلى يوم الدين.

وهو أرشد الأزواج إلى أمر عظيم، وهو أن المرأة من طبيعتها الضعف وقلة القيام بالواجب المطلوب، إن من طبيعتها الضعف فقال: «استوصوا بالنساء خيرًا، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته فلا يزال به عوج، فاستوصوا بالنساء»^(١).

فهذا توجيه للرجل أنه لفت نظره إلى تركيبة المرأة الضعيفة، وربما يكون منها سوء في شيء من الأخلاق، أو قلة قيام بواجب، فلا تنظر إليها إلا نظر من يعرف وضعها وحالها، وأنت إذا أردت أن تقيم الاعوجاج فإن ذلك يستحيل عليك.

وأخبر أيضًا أن المرأة خلقت من ضلع، وأنها لا تستقيم لك على طريقة واحدة، إذا تعود نفسك على الصبر والتحمل وعدم الضجر مما عسى أن تجده من بعض أخلاقها، لتنتظم الحياة الزوجية، ويتربى الأطفال في حضن الأبوين، في محبة ومودة وقيام بالواجب.

(١) رواه البخاري (٣٣٣١) ومسلم (١٤٦٨).



أيها المسلمون: ونبينا إذ وجّه الأزواج إلى هذه الأخلاق العالية والصفات الطيبة، أرشد أيضاً النساء الزوجات إلى ما يجب عليهن نحو الأزواج، فأخبر المرأة المسلمة أن رضا زوجها عنها من أسباب دخولها الجنة،

فيقول مبيناً أن المرأة إذا قامت بحق زوجها نالت الثواب العظيم، فيقول: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت بعلها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت»^(١)، هذا وعد من رسول الله لتلك المرأة المؤمنة المصلية الصائمة الحافظة فرجها، المطيعة زوجها، أنها تخير أي باب من أبواب الجنة تدخل منه، فضلاً عن الله وكرماً وجوداً.

أيتها المرأة المسلمة: ولكن رسول الله حذرنا من العصيان والتمرد على الزوج، ورتب على هذا وعيداً شديداً ترتد منه فرائض المرأة المؤمنة التي تحاف الله وتتقيه، فيقول: «إذا دعا الرجل امرأته للفراش فلم تجبه، فبات ساخطاً عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح»^(٢).

هذا وعيد شديد للمرأة إذا عصت زوجها، وخالفت أمره، فإنها متوعدة بأن تلعنها ملائكة الرحمن حتى تصبح، وعيد شديد في غاية القسوة والشدة، مما يدعو المرأة المؤمنة إلى السمع والطاعة وبذل المعروف لزوجها والقيام بحقه.

ويوجه المرأة المسلمة إلى الطاعة للزوج فيقول: «لو كنت امرأةً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها»^(٣).

أيتها المرأة المسلمة: إنك راعية في بيت زوجك، يقول: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، الرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته، المرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته، الخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته»^(٤).

(١) صحيح الجامع (٦٦٠).

(٢) رواه البخاري (٣٢٣٧) ومسلم (١٤٣٦).

(٣) السلسلة الصحيحة (٣٣٦٦).

(٤) رواه البخاري (٨٩٣).



ويقول مبيناً فضل المرأة المستقيمة على الخلق الكريم لما قيل له: أي النساء خير؟ قال: «التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها وما لها بها يكره»، فتحفظ عرضها، وتصون فراش زوجها، وتحفظه في ماله فلا تتعدى على ماله بغير حق؛ لأنها راعية ومؤتمنة، فمن لازم ذلك حفظ حقوق الزوج بكل المعنى.

فلنتق الله في أنفسنا، ولنطبق شرع الله علينا، لننال السعادة والخير، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا يَقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الاسراء: ٩].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.
أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى حق التقوى.

أيتها المرأة المسلمة: إن من أسباب مودة الزوج لك -أيضاً- أن تكوني امرأة صالحة مصلحة، تسعين في جمع الكلمة، ولم الشعث، وجمع شتات الأسرة، فلا تكوني امرأة سيئة، وامرأة سيئة الخلق، لا تكوني امرأة ساعية بالشر بين الزوج وأهله، ومفرقة بينه وبين أولاده، أو مفرقة بينه وبين أبويه.

فبعض النساء الصالحات هي خير على البيت وبركة عليه، تراعي من هو أكبر سناً من أب وأم، وتراعي حق الأولاد للزوج من غيرها، وتسعى في جمع الكلمة، وأن يكون البيت بيتاً فيه ارتباط وتعاون وصلة بعضهم ببعض، فهي ليست نمامة، ولا مغتابة، ولا شريرة، ولكنها المرأة المؤمنة، هي بركة على زوجها وعلى البيت الذي تحل فيه.

فأم الزوج لها احترام، وأبو الزوج له احترام، والزوج له احترام، والأولاد من غيرها لهم احترام، فهي إذاً مصدر خير وصلاح، ونعمة ورحمة، تلك المرأة الصالحة التي إن فُقدت ذكرت، وإن ماتت تُرْحَمَ عليها، وذُكرت بالخير في كل خصالها.

ولا يليق بالمرأة المسلمة أن تكون سيئة الخلق، سريعة الغضب، تجلس مع زوجها فتلمي عليه كل سوء، وتحسن له كل قبيح، تدعوه إلى القطيعة للأبوين، وإلى ظلم الأولاد، وتحمل إليه غيبة ونميمة، حتى تملأ قلبه حقداً على الأبوين وعلى الأولاد من غيرها، بل قد يتعدى شرها إلى القطيعة بين الرجل وأهل بيته ورحمه.

فكوني -أختي المسلمة- على خلاف ذلك، اتقي الله وأحسني لمن هو عندك، فإن الإحسان والمعروف لن يُنسى ولن يُعدم، وستجدين غباً ذلك في زوجات الأولاد وتعاملهن معك، وأما إن قدمت الشر والبلاء؛ فإن العواقب السيئة ستلحق بك شئت أم أبيت.



قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ عَنْ زوجته حينما ماتت: (مكثت عندي ثلاثين سنة، والله ما اختلفت أنا وهي في كلمة!).

ويا أيها الزوج: حيال تلك المشاكل التي قد تحدث في البيوت أحياناً يجب أن تتحلّى بالصبر والحلم والأناة، لا تنقاد لوساوس المرأة، ولا تنقاد أيضاً إلى ما قد يُفترى عليها من غيرها، فكن متوازناً، للأبوين حق البر والإحسان، وللزوجة حق القيام بالواجب.

فكن في اتزان في الأمور، وعالج القضايا بحكمة وبصيرة، وحلم وأناة، وتروّ في الأمور، وصبر على الأشياء، وحاول تضييد الجراح، وحاول تناسي كل الأمور، وحاول الربط بين الجميع بحكمة وبصيرة، فإن ذلك واجبك، والمسلم إذا ابتلى تحلى بالصبر، والصبر طريق للخير.

أسأل الله أن يوفق الجميع لما يرضيه، وأن يعيننا وإياكم على القيام بما أوجب علينا، إنه على كل شيء قدير.





صلة الرحم^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً، وأوجب صلة القربى وأعظم في ذلك أجراً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فاطر السموات العلى، ومنشئ الأراضين والثرى، أحمده جل وعلا على ما أوى، واشكره تعالى على ما أسدى، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أعظم الناس قدراً وأرفعهم ذكراً، صلى الله وأصحابه أولي الفضل والنهى، وعلى التابعين وسلم تسليماً كثيراً..

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله حقَّ التقوى، فبتقوى الله تُستجلبُ النعم، وبالبُعد عنها تحلَّ النقم. أيها المسلمون: يهدف الإسلام إلى بناء مجتمع إسلامي متراحم متعاطف، تسوده المحبة والإخاء، ويهيمن عليه حب الخير والعطاء.

والأسرة وحدة المجتمع، تسعد بتقوى الله ورعاية الرِّحم، اهتمَّ الإسلام بتوثيق عُراها وتشبيث بنيانها، فجاء الأمر برعاية حقِّها بعد توحيد الله وبرِّ الوالدين، قال جلَّ وعلا: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]. وقُرئت مع أفراد الله بالعبادة والصلاة والزكاة، عن أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: أخبرني بعملٍ يدخلني الجنة، قال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصلِّ الرِّحم»^(٢)

(١) عبدالمحسن القاسم.

(٢) رواه البخاري (١٣٩٦) ومسلم (١٣).



أُمِرَت الْأُمَمُ قَبْلَنَا بِصَلَةِ أَرْحَامِهَا، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ٨٣]، وَدَعَا إِلَى صَلَاتِهَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ فِي مَطْلَعِ نَبَوْتِهِ، قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ: قَدِمْتُ مَكَّةَ أَوَّلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «نَبِيٌّ»، قُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي اللَّهُ»، قُلْتُ: بِمَ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ وَأَنْ يُوحَّدَ اللَّهُ»^(١)

وَسَأَلَ هِرْقُلَ أَبَا سَفْيَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا يَقُولُ لَكُمْ؟ قَالَ: يَقُولُ: «اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَةِ^(٢).

وَأَمَرَ بِهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوَّلَ مَقْدَمِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ أَيُّ: ذَهَبُوا إِلَيْهِ فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامَ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(٣). وَهِيَ وَصِيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِصَلَةِ الرَّحِمِ وَإِنْ أَدْبَرْتَ»^(٤).

صِلَةُ ذَوِي الْقُرْبَى أَمَارَةٌ عَلَى الْإِيمَانِ، «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُصِلْ رَحِمَهُ»^(٥). وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ كَفَّارَ قَرِيشٍ عَلَى قَطِيعَةِ رَحِمِهِمْ فَقَالَ عَنْهُمْ: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠].

الْقِيَامُ بِهَا بَرٌّ بِالْوَالِدَيْنِ وَإِنْ كَانُوا أَمْوَاتًا، فَعَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ لَقِيَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ طَرِيقٍ مَكَّةَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ، وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ، وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ ابْنُ دِينَارٍ: فَقَلْنَا لَهُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ! إِنَّهُمْ الْأَعْرَابُ وَإِنَّهُمْ يَرْضَوْنَ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨٣٢).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧) وَمُسْلِمٌ (١٧٧٣).

(٣) صَحِيحُ الْجَامِعِ (٧٨٦٥).

(٤) صَحِيحُ التَّرْغِيبِ (٢٥٢٥).

(٥) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦١٣٨) وَمُسْلِمٌ (٤٨).



باليسير. فقال عبد الله: إن أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب، وإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أَبْرَّ الرِّصْلَةِ الولدُ أَهْلٌ وُدٌّ أَبِيهِ»^(١).

خلق الله الرحم، وشقق لها اسمًا من اسمه، ووعد ربُّنا جَلَّ وعلا بوصلي مَنْ وصلها، ومَنْ وصله الرحيمُ وصله كُلُّ خيرٍ ولم يقطعه أحد، ومن بتره الجبار لم يُعَلِّه بشرٌ وعاش في كَمدٍ، ﴿وَمَنْ يُمْنِ اللَّهِ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

والله يُبقي أثرَ واصلِ الرحم طويلاً، فلا يضمحلُّ سريعاً كما يضمحلُّ أثر قاطعِ الرحم، قال النبي ﷺ: «قال الله للرحم: أما ترضين أن أصل من وصلك وأن أقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك»^(٢)، «والرحمُ معلقة بالعرش تقول: مَنْ وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»^(٣).

صلةُ الرحم تدفع بإذن الله نوائبَ الدهر، وترفع بأمرِ الله عن المرء البَلَايا، لما نزل على المصطفى ﷺ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] رجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: «زملوني»، فأخبرها الخبر، وقال: «قد خشيتُ على نفسي»، فقالت له: كلا والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف^(٤).

أمر الله بالرفقة بهم كما نرأف بالمسكين، قال عز وجل: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦]. حقُّهم في البذل والعطاء مقدَّم على اليتامى والفقراء، قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَلِيتِمَىٰ وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥]. السخاءُ عليهم ثوابٌ مضاعفٌ من ربِّ العالمين، قال عليه الصلاة والسلام: «الصدقةُ على المسكين صدقة، وعلى القريب صدقةٌ وصلة»^(٥).

(١) رواه مسلم (٢٥٥٢).

(٢) رواه البخاري (٥٩٨٧) ومسلم (٢٥٥٤).

(٣) رواه مسلم (٢٥٥٥).

(٤) رواه البخاري (٦٩٨٢).

(٥) صحيح الترغيب (٨٩٢).



وَأَوَّلُ مَنْ يُعْطَى مِنَ الصَّدَقَةِ هُمُ الْأَقْرَبُونَ مِنْ ذَوِي الْمَسْكَنَةِ، تَصَدَّقْ أَبُو طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِبِسْتَانِهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ»، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ عَلَى أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ^(١). يَقُولُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَأَنْ أَصِلَ أَخًا مِنْ إِخْوَانِي بِدَرَاهِمٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِعِشْرِينَ دِرْهَمًا».

الْبَاذِلُ لَهَا سَخِيَّ النَّفْسِ كَرِيمَ الشَّيْمِ، يَقُولُ الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَا مَاتَ ذُو قَرَابَةٍ لِي وَعَلَيْهِ دِينَ إِلَّا وَقُضِيَ عَنْهُ دِينُهُ).

الْجَارُ مِنْ ذَوِي الْأَرْحَامِ أَخْصُ بِالرَّعَايَةِ وَالْعَنَايَةِ مِنْ غَيْرِهِ، قَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: ٣٦].

دَعَوْتُهُمْ وَتَوَجُّيْهِهُمْ وَإِرْشَادُهُمْ وَنُصْحُهُمْ أَلْزَمُ مِنْ غَيْرِهِمْ، قَالَ جَلُّ وَعَلَا: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وَإِكْرَامُ ذَوِي الْقَرَابَاتِ مَأْمُورٌ بِهِ عَلَى أَنْ لَا يَكُونَ فِي التَّقْدِيمِ بَخْسٌ لِأَحَدٍ أَوْ هُضْمٌ لِآخَرِينَ، قَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

فِي صِلَةِ الرَّحِمِ ثَمَرَاتٌ هِيَ أَسْسٌ فِي بِنَاءِ الْحَيَاةِ؛ مَحَبَّةُ الْأَهْلِ، بَسْطُ الرِّزْقِ، بَرَكَةُ الْعُمُرِ، يَقُولُ ﷺ: «صِلَةُ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ، مَثْرَاءٌ فِي الْمَالِ، مَنَسَاءٌ فِي الْأَثَرِ»^(٢)، وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(٣)، قَالَ ابْنُ التَّيْنِ: (صِلَةُ الرَّحِمِ تَكُونُ سَبَبًا لِلتَّوْفِيقِ وَالطَّاعَةِ وَالصِّيَانَةِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، فَيَبْقَى بَعْدَهُ الذِّكْرُ الْجَمِيلُ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ).

صِلَتُهَا عِبَادَةٌ جَلِيلَةٌ مِنْ أَخْصِ الْعِبَادَاتِ، يَقُولُ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ: (مَا مِنْ خُطْوَةٍ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ خُطْوَةٍ إِلَى ذِي الرَّحِمِ). ثَوَابُهَا مُعْجَلٌ فِي الدُّنْيَا وَنَعِيمٌ مَدَّخَرٌ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَطِيعَ اللَّهُ فِيهِ أَعْجَلَ ثَوَابًا مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ»^(٤).

(١) رواه البخاري (٢٧٥٢) ومسلم (٩٩٨).

(٢) صحيح الترغيب (٢٥٢٠).

(٣) رواه البخاري (٥٩٨٦) ومسلم (٢٥٥٧).

(٤) السلسلة الصحيحة (٩٧٨).



والقائمُ بحقوقِ ذوي القربى موعودٌ بالجنة، يقول عليه الصلاة والسلام: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطانٍ مُقسط، ورجلٌ رحيماً رقيقُ القلب بكل ذي قُربى ومسلم، ورجلٌ غنيٌّ عفيف متصدّق»^(١).

بصلتهم تقوى المودة وتزيدُ المحبة وتتوثقُ عرى القرابة وتزول العداوة والشحناء، فيها التعارف والتواصل والشعور بالسعادة.

صلة الرحم والإحسان للأقربين طرقها ميسرة وأبوابها متعددة، فمن بشاشة عند اللقاء ولين في المعاملة، إلى طيب في القول وطلاقة في الوجه، زيارات وصالات، مشاركة في الأفراح ومواساة في الأتراح، وإحسان إلى المحتاج، وبذل للمعروف، نصحتهم والنصح لهم، مساندة مكروهم وعبادة مريضهم، الصفح عن عثرتهم، وترك مضاربتهم. ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك، والمعنى الجامع لذلك كله إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر.

صلة الرحم أمانة على كرم النفس وسعة الأفق وطيب المنبت وحسن الوفاء، ولهذا قيل: مَنْ لم يصلح لأهله لم يصلح لك، وَمَنْ لم يذب عنهم لم يذب عنك. يقدم عليها أولو التذكرة وأصحاب البصيرة، ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أَولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

وقطعة الرحم من كبائر الذنوب، متوعد صاحبها باللعة والثبور، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾^(٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿[محمد: ٢٢-٢٣]. التدابر بين ذوي القربى مؤذن بزوال النعمة وسوء العاقبة وتعجيل العقوبة، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنة قاطع»^(٢)، قال ابن حجر: (القاطع للرحم منقطعٌ من رحمة الله).

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) رواه البخاري (٥٦٣٨).

عقوبتها معجّلة في الدنيا قبل الآخرة، يقول النبي ﷺ: «ما من ذنبٍ أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من البغي أي: الظلم وقطيعة الرحم»^(١). وهي سببٌ للذلة والصغار والضعف والتفرق، مجلبة للهم والغم.

قاطع الرحم لا يثبت على مؤاخاة، ولا يرجى منه وفاء، ولا صدق في الإخاء، يشعر بقطيعة الله له، ملاحقٌ بنظرات الاحتقار مهما تلقى من مظاهر التبجيل. لقد كان الصحابة رضي الله عنهم يستوحشون من الجلوس مع قاطع الرحم، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «أخرج على كل قاطع رحمٍ لما قام من عندنا»، وكان ابن مسعود رضي الله عنه جالساً في حلقة بعد الصبح فقال: «أنشد الله قاطع رحمٍ لما قام عنا فإننا نريد أن ندعو ربنا؛ وإن أبواب السماء مُرتجة أي: مغلقة دون قاطع الرحم». وكلّ رحم آتية يوم القيامة أمام صاحبها، تشهد له بصلته إن كان وصلها، وعليه بقطيعة إن كان قطعها.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني الله وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه إنه غفور رحيم.

(١) صحيح الترمذي (٢٥١١).



الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي أحاط بكل شيء علماً وهو على كل شيء شهيد، أحاط علمه بالظاهر والخفي والقريب والبعيد، أحمده سبحانه وأشكره وهو الولي الحميد، وأصلي وأسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم في هديهم الرشيد.

أما بعد:

أيها المسلمون: إن الروابط تزداد وثوقاً بالرحم، وقربك لا يملك على القرب ولا ينسأك في البعد، عزّة عزُّ لك، وذلكه ذلُّ لك، ومعاداة الأقارب شرّ وبلاء، الرّاح فيها خاسر، والمتصرّ مهزوم.

إنّ ذوي الرّحم غير معصومين، يتعرّضون للزلل، ويقعون في الخلل، وتصدّر منهم الهفوة، ويقعون في الخطأ والتقصير، وسوء التصرف والتدبير، فإن بدر منهم شيء من ذلك فالزم جانب العفو معهم، فإنّ العفو من شيم المحسنين، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وقابل إساءتهم بالإحسان، واقبل عذرهم إذا أخطؤوا، لقد فعل إخوة يوسف مع يوسف ما فعلوا، وعندما اعتذروا قبل عذرهم وصفح عنهم الصفح الجميل، ولم يوبّخهم، بل دعا لهم وسأل الله المغفرة لهم، قال: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

غُصّ عن الهفوات، واعفُ عن الزلات، وأقل العثرات، تجنّ الودّ والإخاء واللين والصفاء، وتحقق فيك الشهامة والوفاء. داوم على صلة الرّحم ولو قطعوا، وبادر بالمغفرة وإن أخطؤوا، وأحسن إليهم وإن أساءوا، ودع عنك محاسبة الأقربين، ولا تجعل عتابك لهم في قطع رحمتك منهم، وكُن جواد النفس كريم العطاء، وجانب الشحّ فإنّه من أسباب القطيعة، قال عليه الصلاة والسلام: «إياكم والشحّ؛ فإنّ الشحّ أهلك من كان قبلكم؛ أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»^(١)

(١) السلسلة الصحيحة (٢/٥١٣) وأصله في مسلم (٢٥٧٨).



إنَّ مُقَابَلَةَ الْإِحْسَانِ بِالْإِحْسَانِ مَكَاوُفَةٌ وَمَجَازَاةٌ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ مَنْ يَتَفَضَّلُ عَلَى صَاحِبِهِ، وَلَا يُتَفَضَّلُ عَلَيْهِ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ مَنْ إِذَا قَطَعْتَ رَحْمَهُ وَصَلَهَا»^(١).

قِيلَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَيْرِيزٍ: مَا حَقَّ الرَّحِمُ؟ قَالَ: (تُسْتَقْبَلُ إِذَا أَقْبَلْتَ، وَتُتْبَعُ إِذَا أَدْبَرْتَ)، وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصْلَهُمْ وَيَقْطَعُونَنِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيَسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَلَيْهِمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَنْ كَانَ كَمَا تَقُولُ فَكَأَنَّمَا تَسْفُهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(٢).

قِيلَ لِأَبِي حَازِمٍ: (مَا الْقَرَابَةُ؟ قَالَ: الْمَوْدَةُ. قِيلَ: فَمَا الرَّاحَةُ؟ قَالَ: دُخُولُ الْجَنَّةِ، وَقَالَ: الْمَوْدَةُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى الْقَرَابَةِ، وَالْقَرَابَةُ تَحْتَاجُ إِلَى الْمَوْدَةِ).

فَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَحِمٍ لَهُ عِدَاوَةٌ فَلْيَبَادِرْ بِالصَّلَةِ، وَلْيَعْفُ وَلْيَصْفَحْ، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وَإِنَّ لِحَسَنِ الْخُلُقِ تَأْثِيرًا فِي الصَّلَةِ، وَالزَّمْ جَانِبَ الْأَدَبِ مَعَ ذَوِي الْقُرْبَى، فَإِنَّ مَنْ حَفِظَ لِسَانَهُ أَرَاخَ نَفْسِهِ. وَلِلْهَدْيَةِ أَثَرٌ فِي اجْتِلَابِ الْمَحَبَّةِ وَإِثْبَاتِ الْمَوَدَّةِ وَإِذْهَابِ الضَّغَائِنِ وَتَأْلِيفِ الْقُلُوبِ، وَالرَّأْيُ الَّذِي يَجْمَعُ الْقُلُوبَ عَلَى الْمَوَدَّةِ كَفُّ مَبْذُولٍ وَبِرٌّ جَمِيلٌ، وَإِذَا أَحْسَنْتَ الْقَوْلَ فَأَحْسِنِ الْفِعْلَ لِيَجْتَمَعَ مَعَكَ فَصَاحَةُ اللِّسَانِ وَثَمَرَةُ الْإِحْسَانِ.

ثُمَّ اْعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَمْرَكُمُ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى نَبِيِّهِ، فَقَالَ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَزِدْ وَبَارِكْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ خَلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ...



(١) رواه البخاري (٥٩٩١).

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٨).



فأما اليتيم فلا تقهر^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله.. الحمد لله خلق الأرض والسموات، والله أكبر أحسن تدبير الكائنات، والحمد لله قدر الأرزاق والأقوات، والله أكبر أنزل الماء من المعصرات.. والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى.. أحمده سبحانه وأشكره على جزيل العطايا والهبات.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. له الأسماء الحسنى والصفات، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله.. بلغ الرسالة وأدى الأمانة حتى ارتفعت به الملة الأعلام والرايات، صلى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه.. حققوا في دين الله أعلى وأغلى المكتسبات والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم البعث من الممات.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عزَّ وجلَّ فاتقوا الله -رحمكم الله- فتقوى الله خير زاد ليوم المعاد.. اتقوه فيما أمر واتقوه فيما نهى عنه وزجر، زينوا بواطنكم بالتقوى والإخلاص والتوبة كما زينتم أبدانكم بجميل اللباس والمظهر، وتذكروا باجتماعكم الأكبر يوم العرض الأكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

جعلني الله وإياكم ممن ذُكر فتذكر وغفر لنا ذنوبنا ما تقدم منها وما تأخر؛ فهو الكريم الجواد يقبل التوبة عن عباده ويغفر لمن استغفر.

أيها المسلمون: لقد أمر الإسلام بالتكافل، ورتب على ذلك أجوراً عظيمة، من ذلك تفقد الأراامل وكفالة الأيتام. إن إعانة اليتيم وكفالاته سعادة ونعمة للمُعطي، فإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وإن الصدقة تطفئ الخطيئة، وتطفئ غضب الرب.



فاليتم ضعيف لكنه قوي؛ إذ يقودك إلى الجنة صبي ضعيف، فافرح بأن فتح الله لك باب خير، واسعد بإحسانك إلى اليتامى والحنو عليهم، وقضاء حاجاتهم، واحذر احتقارهم، فبحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، وهل كان النبي إلا يتيماً؟ وكم من يтим صار في قادم أيامه مهاباً عظيماً؟ ومن فقد رعاية والده بغير يُتم وجب على المجتمع الإحسان إليه وإحاطته بالرعاية والتربية، فكيف بيتيم الأب والأم، والراحمون يرحمهم الرحمن.

أيها المسلمون: لقد وبّخ جل وعلا من لم يكرم يتيماً: ﴿لَا يَلْأَلُ وَلَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧]. وقَرَن دَعَاهُ -وهو قَهْرُهُ وظلمه- قرن ذلك بالكذب بيوم الدين: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ﴾ ① ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١-٢]، ونهى الله صفوة خلقه عليه الصلاة والسلام أن يقهر أحداً منهم: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩]، أي لا تذله ولا تنهره ولا تهنه، ولكن أحسن إليه وتلطّف به. ونهى عن قرب مال اليتيم إلا بالحسنى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ولا يتولى أموالهم إلا القوي الأمين. ونهى عليه الصلاة والسلام الضعيف من صحابته أن يتولى على شيء من أموالهم فقال: «يا أبا ذر: إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال اليتيم»^(١). وأكل ماله من السبع المهلكات؛ قال عليه الصلاة والسلام: «اجتنبوا السبع الموبقات»، وذكر منهن: «وأكل مال اليتيم»^(٢). ومن أكل ماله بغير حق أجج في بطنه ناراً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]. وإذا رَشَدَ أُعطي ماله وافيّاً من غير بخس أو إخفاء لشيء منه: ﴿فَإِنْ أَسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ [النساء: ٦].

أيها المسلمون: اليتيم يأتي إلى الدار بالخيرات، وتنزل بحلوله البركات، ويلين به القلب من الزلات، سأل رجل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: كيف يرق قلبي، قال: (ادخل المقبرة وامسح

(١) رواه مسلم (١٨٢٦).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٦) ومسلم (٨٩).



رأس اليتيم. وأطيب المال ما أعطي منه اليتيم)، قال عليه الصلاة والسلام: «إن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المال المسلم ما أعطي منه المسكين واليتيم وابن السبيل»^(١).

وقد كان النبي ﷺ قدوة في كفالة الأيتام، فاتخذ عليه الصلاة والسلام أكثر من عشرة أيتام يحوطهم برعايته وعنايته، فكان لهم أباً رحيماً مشفقاً محباً لهم. ومن كفل يتيماً كان معه في الجنة، قال عليه الصلاة والسلام: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين»^(٢). قال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ: (حق على كل من سمع هذا الحديث أن يعمل به، ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك).

واقفتي الصحابة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - أثر النبي ﷺ، فكان تحت الخلفاء الراشدين أيتامٌ في بيوتهم، وكفل نساؤهم أيتاماً من البنات في بيوتهنّ، كأم المؤمنين عائشة وميمونة وزوجة ابن مسعود - رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ -، وكان ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا رأى يتيماً مسح رأسه وأعطاه شيئاً. وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ارحم اليتيم، وأذنه منك، وأطعمه من طعامك».

أيها المسلمون: اليتيم محفوظ بحفظ الله: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]. وإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يخلق عن عبده باباً إلا ويفتح له برحمته وفضله أبواباً غيره، واليتيم قد يكون طريقاً للعلو والشموخ، فقد كان في الأمة من فقدوا آباءهم فأصبحوا فيها عظماء، لقد حفل التاريخ بأناس عاشوا اليتيم، ولكنهم ملؤوا الدنيا علماً وجهاداً ودعوة وعبادة.

نشأ أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يتيماً، وكان يرعى لقومه الغنم، ثم لازم النبي ﷺ فكان راوية الإسلام، يخبر عن نفسه فيقول: نشأت يتيماً، وهاجرت مسكيناً، وكنت أجيراً لابنة غزوان بطعام بطني وعقبة رجلي، أحذو بهم إذا ركبوا، وأحتطب إذا نزلوا، فالحمد لله الذي جعل

(١) رواه البخاري (١٤٦٥) ومسلم (١٠٥٢).

(٢) رواه البخاري (٥٣٠٤) ومسلم (٢٩٨٣).



الدين قوامًا، وجعل أبا هريرة إمامًا. والإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ صاحب الصحيح يتيماً، وقرأ على ألف شيخ، فصنّف أصح كتاب في الحديث، فكان هذا اليتيم نعمة على هذه الأمة.

والإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ فَقَدَ أباه وهو دون العامين، فنشأ في حجر أمه في قلة من العيش وضيق من الحال، فحفظ القرآن وجالس في صباه العلماء فساد أهل زمانه. قال الحميدي: سمعت الشافعي يقول: (كنت يتيماً في حجر أمي، ولم يكن عندها ما تعطي المعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أقوم على الصبيان إذا غاب، وأخفف عنه). فأني شيء كان الشافعي بعد ذلك؟! قال الإمام أحمد: (كان الشافعي كالشمس للدين، وكالعافية للناس).

والإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ نشأ يتيماً على العفاف والصلاح في حضن عمته، فحملته إلى العلماء، فصنف ووعظ، قال رَحِمَهُ اللهُ عن نفسه: (أسلم على يدي أكثر من مائتي ألف). قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (ولا أعلم أحداً صنف في الإسلام أكثر من تصانيفه).

والزبير بن العوام رَحِمَهُ اللهُ الذي عده عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بألف فارس، كان نتاج تربية أمه صفية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بعد أن مات أبوه وهو صغير، وكانت أمه صفية تضربه ضرباً شديداً وهو يتيماً، ف قيل لها: قتلته، أهلكته! قالت: إنما أضربه لكي يدبَّ ويَجْرَّ الجيش ذا الجلب

فماذا كان بعد؟! قال الثوري: (هؤلاء الثلاثة أحد نجدة الصحابة: حمزة، وعلي، والزبير. وعن عروة قال: كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف: إحداهن في عاتقه، إن كنتُ لأدخل إصبعي فيها، ضُرب اثنتين يوم بدر، وواحدة يوم اليرموك. ولا تنسَ أنه اليتيم الذي كانت أمه تضربه!).

والإمام الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ مات والده وهو صغير، فرَبَّته أمه. نقل الذهبي في ترجمته عن العباس بن الوليد قال: (ما رأيت أبي يتعجب من شيء تعجَّب من الأوزاعي، فكان يقول: سبحانك تفعل ما تشاء! كان الأوزاعي يتيماً فقيراً في حجر أمه تنقله من بلد إلى بلد، وقد جرى حلمك فيه أن بلغته حيث رأيته. يا بني! عجزت الملوكة أن تؤدب نفسها وأولادها، وأدب الأوزاعي نفسه!).



وغير هؤلاء كثير، كانوا أيتامًا، كالسيوطي وابن حجر والثوري والقاسم بن محمد، وغيرهم من السلف عاشوا اليتيم، لكنهم أناروا الدنيا بالعلم والفهم، ولم يكن اليتيم عائقًا لهم عن النهوض، بل ربما كان دافعًا لهم.

وإذا أردت أمثلة حاضرة قريبة فهي غير قليلة أيضًا، أمثال: صديق حسن خان، وعبد الرحمن السعدي، ومحمد الأمين الشنقيطي، وعبد العزيز بن باز رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وسيد الأيتام نبينا محمد ﷺ، توفي والده وأمه حامل به، ثم تقلّب في أحضان متوالية من أمه إلى جده إلى عمه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦].

قالوا: (اليتيم)

فما جَ عطُرُ قصيدي وتلفتت كلما تعظيما
وسمعت منها حكمةً أزليةً أهدت إلي كتابها المرقوما
حسبُ اليتيم سعادةً أن الذي نشر الهدى في الناس عاش يتيما!

محمد ﷺ.

أيها المسلمون: وإذا فقد اليتيم أباه تضاعف واجب الأم نحوه؛ فأما موسى رعت ابنها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ واصطفاه الله نبيًا: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ﴾ [١٢] ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى آوِيهِ﴾ [القصص: ١٢-١٣]، وزكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ كفّل مريم: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]، ومريم أحسنت تربيته لابنها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واختاره الله رسولاً.

والإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ مات والده وهو حمل في بطن أمه، وعاش حياة فقر وفاقة، فحضنته أمه وأدبته وأحسنت تربيته، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (كانت أُمِّي توقظني قبل الفجر بوقت طويل وعمري عشر سنوات، وتُدْفِئ لي الماء في الشتاء، ثم نصلي أنا وإياها ما شئنا من صلاة التهجد، ثم تنطلق بي إلى المسجد في طريق بعيد مظلم موحش لتصلي معي صلاة الفجر في المسجد، وتبقى معي حتى منتصف النهار تنتظر فراغي من طلب العلم وحفظ القرآن). بصبر هذه الأم على اليتيم أخرجت عالماً من علماء المسلمين وأئمتهم.



ويجب على الأم والأوصياء والأولياء الإحسان إلى اليتيم والرفق به في التربية والرحمة، وأن لا يقتصر على الشفقة والعطف والإنفاق فحسب، بل يكون بالتوجيه الحسن والتعليم النافع؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وأول ما يوجه إليه اليتيم حفظ كتاب الله العظيم، فهو العاصم والحافظ والمخرج من الفتن، ثم طلب العلم الشرعي، وحفظ الحديث والفقه وغيرهما، ومجالسة العلماء ولزوم الصحبة الصالحة، مع صرفه عن أسباب الفتن.

وعلى من يرعى يتيمًا أن يراقب ربه في ذلك الضعيف، وأن يخلص في عمله مع الله، فالإخلاص ييسر العمل ويكسوه حلاوة، وعليه أن لا ييخل بابتسامة وأن يبذل له ويرحمه، ويقلل عشرته، ويحسن ولايته، قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: (كن لليتيم كالأب الرحيم).

أيها المسلمون: واليتيم طفل اليوم وهو رجل المستقبل، والله يكافئك على كل ما تعمله من تربيته وإحسانه، ويجازيك على ذلك الجزاء الأوفى، ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفَعَنِي الله وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:
أيها المسلمون: الله عزَّ وجلَّ جابر كسر اليتيم، ورافع قدره، ومن كُتب عليه اليُتم وهو ضعيف، فالجنة مأوى المستضعفين من المؤمنين، قال عليه الصلاة والسلام: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟! كل ضعيف مستضعف، لو أقسم على الله لأبره»^(١)

اليتيم فرد من أفراد الأمة، ولبنة من لبناتها، غير اليتيم يرعاه أبواه، يعيش في كنفهما تظله روح الجماعة، يفيض عليه والداه من حنانها، ويمنحانه من عطفها، ما يجعله بإذن الله بشراً سوياً، وينشأ فيه إنشاءً متوازناً، أما اليتيم فقد فقدَ هذا الراعي، ومال إلى الانزواء، ينشد عطف الأبوة الحانية، ويرنو إلى من يمسح رأسه، ويخفف بؤسه، يتطلع إلى من ينسيه مرارة اليتيم وآلام الحرمان.

كم من أم لا يتام يحوم حولها صبيتها وعينهم شاخصة نحوها، لعلهم يجدون عندها إسعافاً. إن اليتيم إذا لم يجد من يستعاض به حنان الأب المشفق والراعي الرافق، فإنه سيخرج نافر الطبع، وسيعيش شارد الفكر، لا يحس برابطة، ولا يفيض بمودة، وقد ينظر نظر الخائف الحذر، بل قد ينظر نظر الحاقد المتربص، وقد يتحول في نظراته القائمة إلى قوة هادمة.

أيها المسلمون: من خيار بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُحسَّن إليه، إن خفض الجناح لليتامى والبائسين دليل الشهامة، وكمال المروءة، صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وتحفظ من المحن والبلايا.

إن كنت تشكو قسوة في قلبك فأذن منك اليتامى، وامسح على رؤوسهم، وأجلسهم على مائدتك، وألن لهم جانبك، إذا رجوت أن تتقي لفتح جهنم فارحم اليتامى وأحسن إليهم، فإن الإحسان إليهم يفرج كُرب الآخرة، وإطعامهم سبب لدخول الجنة: ﴿وَيُطْعَمُونَ اَلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ (٩) ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ (١٠) فَوَقَّهُمْ اللَّهُ سَرْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿[الإنسان: ٨-١١].

(١) رواه البخاري (٤٩١٨) ومسلم (٢٨٥٣).



لقد تخرج الذين عندهم أيتام من أصحاب رسول الله ﷺ حين سمعوا القوارع في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، فعزلوا طعام الأيتام وشرابهم، فصاروا يأكلون منفردين، ويعيشون منعزلين، وامتنع آخرون من كفالة اليتيم تخرجاً وتعففاً، وكان هذا موضع حرج آخر، فسألوا رسول الله ﷺ، فنزل القرآن مجيباً لهم: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وكم من نُّظار على أوقاف، وأوصياء على أيتام انزلقوا في الشبهات، ثم ترقوا إلى المحرمات، فغلبتهم أطماعهم حتى أصبح واحد منهم غنياً من بعد فقر، قاسياً من بعد لين، فويل لهم، ثم ويل لهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وفي الحديث: «أربعة حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها: مدمن الخمر، وآكل ربا، وآكل مال اليتيم، والعاق لوالديه». وقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أُحَرِّجُ عَلَيْكُمْ حَقَّ الضعيفين: اليتيم، والمرأة»^(١).

أيها المسلمون: وهناك يَتَم من نوع آخر، معه أبواه لكنه يعيش حياة الغفلة، وأعداد هؤلاء يتضاعف مع مرور الأيام وكثرة المشاغل والملهيات، فالأب مشغول في وظيفته أو تجارته أو سهرته أو سفرته، والأم كذلك قد تركت ولدها للخادمة، وأصبحت مشغولة بين السوق والوظيفة، وبين الأزياء والموضة، وحين يكبر الولد وينتهي من رعاية الخادمة ويملك الخروج من المنزل ولو مع صغر سنه، فإنه يلتقم ثدي الشارع، ويختاره سكناً بدل البيت، ليقطع فيه جُل الوقت. هذا يسمى يَتيم التربية!

ليس اليتيم من انتهى أبواه من	هم الحياة وخلفاه ذليلاً
فأصاب بالدنيا الحكيمة منها	وبحسن تربية الزمان بديلاً
إن اليتيم هو الذي تلقى له	أمّاً تخلّت، أو أباً مشغولاً

(١) صحيح ابن ماجه (٢٩٨٢).



إننا لا نطلب من الرجل ولا من المرأة أن يتركوا أشغالهم التي يطلبون منها لقمة العيش مطلقاً، لكننا نقول لهم: إن فترة الغياب الطويل عن الأولاد لها أثر كبير؛ ولذا كان من الضروري على الزوجين تخصيص أوقات كافية للجلوس مع أبنائهم، واصطحابهم، وحل مشكلاتهم، وإشراكهم معهم في الحياة.





حقوق الجار (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله خلق وأمر، وملك فقهر، وأراد فقدّر، أحده سبحانه وأشكره وهب وأعطى، وأغنى وأقنى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الحمد في الآخرة والأولى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله صفوة الأخيار وقُدوة الأبرار، صَلَّى الله وسلّم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه أهل الفضل والتقى، ما وهّنا لما أصابهم في سبيل الله وما ضَعُفُوا وما استكاثُوا، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله- واعبدوه، اجتمعوا على الرحمة والمحبة والطاعة، ولا تتفرّقوا على الشّحناء والهوى والمعصية.

أيها المؤمنون: ما منا إلا ويعيش بين الناس ويخالطهم، ولا غنى لأحد منا عن الناس من حوله؛ ولهذا فإن اقتراب الناس بهذه الصورة مظنة لهضم الحقوق بينهم أو ظلم بعضهم لبعض، فتختلط الأموال، ويطنى أهل النفوذ والقوة على من لا نفوذ له ولا سلطان؛ لذلك جاءت الشريعة من لدن حكيم حميد، فأوجبت حقوقاً شرعية يطالب بها أهل الإسلام، ويؤاخذون على منعها أو التقصير فيها، ومن تلك الحقوق حق الجوار.

والجار هو كل من جاورك سواء كان جواره لك في مسكن أو دكان أو عمل أو غيرها، واعلموا أن الجيران ثلاثة: جار مسلم قريب، فهذا له ثلاثة حقوق: حق الإسلام، وحق القرابة، وحق الجوار.



وجار مسلم ليس بقريب، فهذا له حقان: حق الإسلام، وحق الجوار.

وجار كافر، أبقت له الشريعة حقَّ الجوار.

وللجوار أهمية عظيمة في الدين يا عباد الله، وذلك لأنه:

أولاً: وصية الله عزَّ وجلَّ ورسوله، فقد أمر الله بالإحسان إلى الجار في نسق عشرة أوامر في كتابه، فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْبَخَارِيُّ: «ذِي الْقُرْبَى: الْقَرِيبُ، وَالْجُنُبُ: الْغَرِيبُ، وَالْجَارُ الْجُنُبُ يَعْنِيكَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ». وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَّثُهُ» (١).

ثانياً: أن إساءة الجوار من عادات الجاهلية التي بعث الله نبيه ﷺ لتغييرها، ويتضح هذا من جواب جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنجاشي حين سأله عن هذا الدين الجديد، فقال له جعفر: «أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجَوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَقَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ؛ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصَدَقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِّمَاءِ، وَهَيَّأَنَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ وَأَمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا» (٢).

(١) رواه البخاري (٦٠١٥) ومسلم (٢٦٢٥).

(٢) رواه أحمد (١٨٠/٣) وصححه أحمد شاكر، وصححه الألباني في فقه السيرة (١١٥).



ثالثا: أن الإحسان إلى الجار والقيام بحقه سبب للتفاضل بين الناس، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ»^(١).

رابعا: أن الإحسان إلى الجار والقيام بحقه سبب لمغفرة الذنوب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَشْهَدُ لَهُ ثَلَاثَةُ أَبْيَاتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الْأَذْنِينَ بِخَيْرٍ إِلَّا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ قَبِلْتُ شَهَادَةَ عِبَادِي عَلَى مَا عَلِمُوا وَغَفَرْتُ لَهُ مَا أَعْلَمُ»^(٢).

خامسا: أن الإحسان إلى الجار والقيام بحقه سبب للثناء والمدح في الدنيا، وعكسه موجب للذم والعقوبة. ذكر ابن إسحاق أن حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ يَهْجُو حِيَا مِنْ الْعَرَبِ غَدَرُوا بِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَتَلُوهُمْ عَلَى مَاءٍ يُقَالُ لَهُ الرَّجِيعُ:

إِنْ سَرَكَ الْغَدْرُ صَرْفًا لَا مَزَاجَ لَهُ فَأَتِ الرَّجِيعَ فَسَلْ عَنْ دَارِ لِحْيَانِ
قَوْمٍ تَوَاصَوْا بِأَكْلِ الْجَارِ بَيْنَهُمْ فَالْكَلْبُ وَالْقِرْدُ وَالْإِنْسَانُ مِثْلَانِ
لَوْ يَنْطِقُ التَّيْسُ يَوْمًا قَامَ يَخْطُبُهُمْ وَكَانَ ذَا شَرَفٍ فِيهِمْ وَذَا شَانِ

سادسا: وما يدل على أهمية حق الجار أن الله عَظَّمَ الْخَطِيئَةَ فِي حَقِّ الْجَارِ، فعن الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «مَا تَقُولُونَ فِي الزَّانَا؟» قَالُوا: حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرَةِ نِسَوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةٍ جَارِهِ»، قَالَ: فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي السَّرِقَةِ؟» قَالُوا: حَرَّمَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهِيَ حَرَامٌ، قَالَ: «لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ»^(٣).

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني (١٩٤٤).

(٢) حسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣٥١٦).

(٣) صحيح الترغيب (٢٥٤٩).



سابعاً: أن الجار الصالح من أسباب سعادة العبد، وعكسه من أسباب شقائه، فعن سلمان قال رسول الله ﷺ: «أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربع من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق»^(١).

عباد الله: إن الله جعل للجار حقوقاً شرعية على جيرانه، فإذا قام بها المسلمون بينهم سادت روح الألفة والمحبة والتسامح، واكتملت في المجتمع المسلم صفاته المثالية التي تعلقو المجتمع بصبغة إسلامية رائعة تميزه عن باقي المجتمعات. فمن حقوق الجار:

أولاً: كف الأذى عنه، وهذا الحق واجب على المسلمين، فلا يجوز لهم بحال إيذاء أحد من الناس ما دام مسلماً، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ»^(٢)، وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذَكِّرُ مِنْ كَثَرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي النَّارِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذَكِّرُ مِنْ قَلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَنْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ»^(٣)

ومن صور إيذاء الجار عباد الله حسده وتمني زوال النعمة عنه، أو السخرية به واحتقاره، أو إشاعة أخباره وأساره بين الناس، أو الكذب عليه وتنفير الناس منه، أو تتبّع عثراته والفرح بزلاته، أو مضايقته في المسكن أو موقف السيارة، أو إلقاء الأذى عند بابه، أو التطلّع إلى عوراته ومحارمه، أو إزعاجه بالصراخ والأصوات المنكرة، أو إيذائه في أبنائه.

وأما من ابتلي بجار يؤذيه فعليه بالصبر، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَشْكُو جَارَهُ، فَقَالَ: «أَذْهَبْ فَاصْبِرْ»، فَأَتَاهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَقَالَ: «أَذْهَبْ فَاطْرُحْ مَتَاعَكَ

(١) خرجه الألباني في الصحيحة (٢٨٢).

(٢) رواه البخاري (٥١٨٥) ومسلم (٤٧).

(٣) صحيح الترغيب (٢٥٦٠).



فِي الطَّرِيقِ»، فَطَرَحَ مَتَاعَهُ فِي الطَّرِيقِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ فَيُخْبِرُهُمْ خَبْرَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَلْعَنُونَهُ: فَعَلَ اللَّهُ بِهِ وَفَعَلَ وَفَعَلَ، فَجَاءَ إِلَيْهِ جَارُهُ فَقَالَ لَهُ: ارْجِعْ لَا تَرَى مِنِّي شَيْئًا تَكْرَهُهُ^(١).

لهذا معاشر المسلمين فإننا مأمورون بتحرّي حقوق جيراننا والقيام بها؛ لننال الفضل في الدنيا، وننجو من المؤاخذه في الآخرة.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه وسنة نبيه ﷺ، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه أبو داود (٥١٥٣) وقال الألباني: (حسن صحيح).

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن من حقوق الجار أيضاً الحق الثاني: الإهداء إليه وبذل المعروف، فكم من هدية أوقعت في قلب المهدي إليه أثراً عظيماً، فهي تقرب النفوس وتزيل الأحقاد وتبرهن على صدق المودة وعظيم المحبة، فعن أبي شريح العدوي قال: سَمِعْتُ أُنْثَايَ وَأَبْصَرْتُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»^(١)، وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ» فكان فيما بعد إذا طبخ لحماً أَكْثَرَ مَاءَهُ وَأَهْدَى إِلَى جِيرَانِهِ وَيَقُول: إِنَّ خَلِيلِي ﷺ أَوْصَانِي: «إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُ، ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ فَأَصْبِغْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ»^(٢). وَذُبِحَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَهْدَيْتُمْ لِحَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِحَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَّثُهُ»^(٣). وَسَأَلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ لِي جَارَتَيْنِ فإِلَى أَيِّهِمَا أَهْدِي؟ قَالَ: «إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ بَابًا»^(٤).

أيها المؤمنون: إن الهدية ليست فقط للجار الفقير المحتاج، بل الهدية أشمل من هذا، فقد أهدي للنبي ﷺ مع أنه لو أراد المزيد من الرزق لدعا الله فأعطاه ما شاء من متاع الدنيا، بل كان ﷺ يهدي للناس ويقبل الهدية، حتى إنه ليستغني بها هو وأزواجه أياماً طويلة، بل أشهرها عديدة، فقد كانت عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقُولُ لابن أختها: «وَاللَّهِ يَا ابْنَ أَخْتِي، إِنْ كُنَّا لَنَنْتَظِرُ إِلَى

(١) رواه البخاري (٦٠١٩) ورواه مسلم عن أبي هريرة (٤٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٥).

(٣) رواه البخاري (٦٠١٥) ومسلم (٢٦٢٥).

(٤) رواه البخاري (٢٥٩٥).



الْهَلَالِ ثُمَّ الْهَلَالِ ثُمَّ الْهَلَالِ ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ، قَالَ: يَا خَالَةَ، فَمَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟! قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْبَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهَا فَيَسْقِينَاهُ»^(١).

فهذه هي السنة في العطية للجار، وعدم منع المعروف عنه، وإلا صار خصما له يوم القيامة عند الملك العدل سبحانه، فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد قول رسول الله ﷺ: «كم من جار متعلق بجاره يوم القيامة يقول: يا رب، هذا أغلق بابه دوني، فمنع معرفه»^(٢).

الحق الثالث: محبة الخير له كما يحبها العبد لنفسه وعدم حسده، فعن أنسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ أَوْ قَالَ: لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٣).

الحق الرابع: مساعدته ماديا فيما يحتاج إليه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَمْنَعُ أَحَدُكُمْ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ لِلنَّاسِ لِمَا رَأَى مِنْ تَقْصِيرِهِمْ فِي حَقِّ جِيرَانِهِمْ: مَا لِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ؟! وَاللَّهِ لَا زِمِينَ بَهَا بَيْنَ أَكْتَافِكُمْ»^(٤).

ولقد ضرب أصحاب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في التعاون والمساعدة فيما بينهم، حتى استحقوا إطراء النبي ﷺ لهم وثناؤه عليهم، فقال عليه الصلاة والسلام في الأشعرين: «إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عَنْدهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»^(٥).

الحق الخامس: الحفاظ على عوراته وعدم خيانتة في أهله، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بِوَائِقِهِ»^(٦)، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

(١) رواه البخاري (٢٥٦٧) ومسلم (٢٩٧٣).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٨١) وحسنه الألباني.

(٣) رواه مسلم (٤٥).

(٤) رواه البخاري (٢٤٦٣) ومسلم (١٦٠٩).

(٥) رواه البخاري (٢٤٨٦) ومسلم (٢٥٠٠).

(٦) رواه مسلم (٤٦).



سألت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تَرَانِي بِحَلِيلَةٍ جَارِكَ»، قَالَ: وَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] (١).

الحق السادس: مواساته وعدم إضجاره وإحزانه، خاصة إذا كان كبير السن، قال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤ / ٥٥٤): سمعت محمد بن حامد البزاز يقول: (دخلنا على أبي حامد الأعمشي وهو عليل، فقلت: كيف تجددك؟ قال: أنا بخير لولا هذا الجار، يعني أبا حامد الجلودي، دخل عليّ أمس وقد اشتدّت بي العلة فقال: يا أبا حامد، علمت أن زنجويه مات، فقلت: رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: دخلت اليوم على المؤمل بن الحسن وهو في النزع، ثم قال أيضا: يا أبا حامد، كم عمرك؟ قلت: أنا في السادس والثمانين، فقال: إذا أنت أكبر من أبيك يوم مات، فقلت: أنا بحمد الله في عافية فعلت البارحة كذا، واليوم فعلت كذا وكذا، فحجل وقام).

كن في البلاد إذا ما الجار جار بها كالراح في الكاس لا تبقى على ميل
واجف الخليل وبادر بالرحيل وقل هذا الدواء الذي يشفي من العلل
عباد الله: بالقيام بحقوق الجيران تقوم الألفة، وتحصل المودة، فيعيش أهل الحي والمجتمع في أمنٍ وطُمأنينة، يتبادلون المنافع، ويقضون حاجاتهم فيما بينهم، ويتعاونون على البرِّ والتقوى، ويدفعون الشرور والأذى والسوء عن أهلهم وبيوتهم، في إخلاصٍ وصدقٍ في الظاهر والباطن، يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات، وأولئك من الصالحين.

عباد الله: هذه بعض حقوق الجوار التي شرع الله للمسلمين فعلها، فلنبداً من هذا اليوم بالإحسان إلى جيراننا والقيام بحقوقهم، ولنطرح الأضغان ولننقّ أنفسنا وضئرائنا من كلّ ما

(١) رواه البخاري (٧٥٢٠) ومسلم (٨٦).



يكدّر صفو العلاقة مع جيراننا، ومن كان منا بينه وبين أحد من جيرانه نزاع أو خصومة
فليُدخل بينها من جيرانه من يكون سببا في إصلاح ما فسد.
اللهم وفقنا لخير الأعمال والأقوال لا يوفّق لخيرها وأحسنها إلا أنت، وجنبنا شرّها لا
يجنب شرّها إلا أنت.





حق الضيف (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله أبدع ما أوجد، وأتقن ما صنع، وكلُّ شيءٍ لجبروته ذلٌّ ولعظمته خضَع، سبحانه وبحمده في رحمته الرجاء، وفي عفوه الطمع، وأُثني عليه وأشكره؛ فكم من خيرٍ أفاض ومكروهٍ دفع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تعالى في مجده وتقدّس، وفي خلقه تفرّد وأبدع، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبداً لله ورسوله، أفضلُ مُقتدى به وأكملُ مُتَّبِع، صلى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أهل الفضل والتقى والورع، والتابعين ومن تبعهم بإحسان، ولنهج الحق لزِم واتَّبِع، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا عباد الله: أوصيكم ونفسي المقصرة بتقوى الله وطاعته؛ استجابةً لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

أيها الإخوة المسلمون: لقد بعدُ العهد بنا عن زمن النبي ﷺ، فنحن اليوم في حاجة إلى مراجعة كثير من عاداتنا الاجتماعية، وأنماط حياتنا المعيشية، لنرى مدى قربها أو بُعدها من منهجه العظيم، ولكي تتحول هذه العادات إلى عبادات؛ حين تصدق فيها نياتنا، وتسير وفق شرع الله المطهر، وسنة حبيبهِ ﷺ.

ومن تلك العادات التي هي سمة من سمات مجتمعنا الطيب: إكرام الضيف، هذا الإنسان الذي لا يخلو من إحدى حالتين؛ إما أن يكون غريباً عن البلاد، ليس له بيت يأوي فيه، أو أن

يكون من أهل البلد، ولكنه حل ضيفاً على صاحب دار، ولكل منهما حق الضيافة، الذي يراه الإمام المجلد أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ حقاً واجباً له، يؤجر فاعله، ويأثم الممتنع عنه إذا كان قادراً.

ففي الصحيحين وغيرهما عن أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أُذُنَايَ وَأَبْصَرْتُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ..» الحديث (١).

إنها مكارم الأخلاق التي يدعو لها دينٌ جاء ليعزز شأنها، وينشرها في البشرية؛ لتسعد في حياتها الدنيا، ولتوثق علاقتها، ولتكون في مجموع أفرادها كالفرد الواحد، فأى غربة ستبقى للغريب حين يشعر وهو في طريقه إلى هذه البلاد أن له بيتاً سوف يأوي إليها وكأنها ملك له، وأن له أهلاً سوف يأنس بهم وكأنهم أهله، فيشعر حينئذ بالأمن والاطمئنان، والراحة والحبور، ويفرغ لما جاء من أجله، أو يفرح بقدومه إذا كان لمحضر الزيارة ورعاية الصلات.

وصور الكرم لم تتوقف عند حاتم، ولكنها ازدادت تألقاً ورفعة حين جاء رسول الإسلام والأخلاق بشريعته العظيمة، فكان أجود الناس بأبي هو وأمي، فما عرف عنه أن رد سائلاً، ولا عبس في وجه ضيف، بل كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. وإذا أعياه المال والطعام ولم يجد منها شيئاً، التفت إلى أصحابه يطلب منهم أن يستضيفوا ضيفه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ، فَقُلْنَ مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟»

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا، فَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرَمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوْتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيَّئِي طَعَامَكَ وَأَصْبِحِي سِرَاجَكَ، وَتَوَمِّي صِبْيَانَكَ إِذَا أَرَادُوا عِشَاءً، فَهَيَّأْتُ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحْتُ سِرَاجَهَا، وَتَوَمَّمْتُ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَاطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَ يُرِيَانِهِ أُمَّهُمَا يَأْكُلَانِ فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١) رواه البخاري (٦٠١٩) ومسلم (٤٧).



ﷺ، فَقَالَ: «ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ أَوْ عَجَبَ مِنْ فَعَالِكُمَا» فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] (١).

إنها لوحة من لوحات الإنسانية الكريمة، التي تتضاءل أمامها كثير من لوحات الكرم الحاتمي، فماذا بعد أن يؤثر المرء ضيفه على نفسه وعلى أطفاله حتى يبيتوا جائعين ليشبع ضيفهم، بل يوهموه أنهم يأكلون معه، ويطفئون السراج حتى لا يكتشف هذا النبل والكرم العظيم.

ولكن ذلك ليس غريباً على جيل تربى في المحضن التربوي النبوي، ألم تفعل عائشة ما أعظم من ذلك، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلْتُ امْرَأَةً مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا، فَسَأَلْتُ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا، فَقَسَمْتُهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا، وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرَتْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ» (٢).

وإذا رحنا نستنطق تلك النصوص لتروي لنا أخبار كرم سلفنا الصالح، فلسوف يطول بنا المقام، ولكن دعونا لتتعرف على بعض آداب هذا الكرم، ولنبدأ بصاحب الدار المضيف. إن أول ما ينبغي أن يستقر في نفوس المؤمنين أن علاقة المضيف بضيفه هي علاقة عبادة، فليست استضافته تطبيقاً لعرف من الأعراف، ولا جرياً لعادة اجتماعية سائدة، وإنما ليستشعر أنها عبادة من العبادات العظيمة، يؤديها ليؤجر عليها. ولذلك فينبغي أن يرفع فيها حقوق الله تعالى.

ولعل أول اللقاء هو تلك التحية التي تُفْتَحُ القلوب، وتَمَلَأُ الوجوه بالبشر، وإذا كان الضيف هو الذي يبدأ بها عادة، فلتكن تحية المضيف أجزل منها، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّئْتُمْ بِهِ بِحَبِيبَةٍ فَحَبِّوْا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]، وهو شأن الصالحين من عباد الله، فهذا نبي الله إبراهيم حين دخل عليه أضيافه، وقالوا: ﴿سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾

(١) رواه البخاري (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤).

(٢) رواه البخاري (١٤١٨) ومسلم (٢٦٢٩).



[هود: ٦٩]، قال علماء البيان: (هذا أحسن مما حيوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام، فاختر خليل الله الأفضل والأكمل).

ويمكن أن تكون بأي عبارة حسنة أخرى متضمنة تحية الإسلام السلام.

ثم له بعد ذلك أن يجتهد في إكرام ضيفه قدر طاقته، ويتجمل معه، حسب استطاعته، فلا داعي أن يستدين ويرهق نفسه وأولاده من أجل أن يظهر أمام الضيف بغير حقيقته، أو من أجل ألا يعاب من عشيرته، فإن مثل هذا البلاء قد استشرى، وإن جريرة الديون على المعسرين أعظم خطرًا من حديث الناس الوقتي الذي يذهب مع الزمن، وعلى الضيف أن يعذر صاحبه، وألا يحمله أكثر من طاقته، فلا يحقرن منه شيئًا مهما قل، ولو كان مذقة لبن، أو كأس عصير، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها وقد أحسن من قال:

إذا الضيف جاءك فابسم له وقرب إليه وشيك القرى
ولا تحقر المزدري في العيون فكم نفع الهين المزدري

وأما الأثرياء فلهم أن يقدموا ما يشاءون من أصناف الطعام القادرين عليها، ولهم في الخليل إبراهيم أسوة حسنة، فقد جاء ضيوفه بعجل سمين شواه لهم على الحجارة، وأقبل هو وامراته يخدمانهم، بل إن من تمام إكرامه لهم أنه لم يُطل انتظارهم للطعام، ولم يذهب بهم إليه، بل كما قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۖ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦-٢٧].

ولكن ينبغي أن نتنبه إلى أن إكرام الضيف نفقة من النفقات، فينالها ما ينال غيرها من أحكام الإسراف والتقتير والاعتدال، فمن أسرف فقد وقع تحت طائلة قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧]، والآية في معرض الإنفاق على الآخرين.

وعليه بعد ذلك أن يحفظ نعمة الله التي تبقت، فيأكلها أو يُطعمها أهله أو المحتاجين.

ولعلنا نجد ذلك الإسراف الوبيل يتضاعف في الولائم العامة والأعراس، وربما انتقل إلى طبع دائم في البيوت، فيستأصل كالمرض الذي لا يجدون فكاكًا منه.



وإن من صور الإسراف عند بعض الفئات من مجتمعنا: تخصيص كل ضيف من الضيوف بذبيحة خاصة، مع تواجدهم في زمن واحد، بحجة أن لكل منهم حقًا خاصًا به، بل إن من أكبر أسباب الطلاق المنتشرة في بعض المناطق هو الضيافة العنجهية، التي يقسم فيها صاحب الدار أن ذبيحة الضيف ميته، وأنه إذا لم يقبل ضيافته فزوجته طالقة، وربما أبى الضيف لأي سبب ربما كان خارجًا عن إرادته، فإذا بصاحب الدار يضيق به ذرعًا ويتحول إلى عدو من ألد أعدائه، أليس هو الآن - في نظره - سببًا من أسباب هدم بيته، وفراق زوجته، وإذا به بعد ذلك يناشد العلماء أن يجدوا له مخرجًا فيطوف الديار، ويطرح نفسه أمام هذا وذاك، فربما وجدوا له مخرجًا، وربما وجد المجتهد في مسأله أليس له إلا فراقها فإن الدنيا تضيق به، ويندم ساعة مندم.

فيا ليت شعري ما ذنب امرأة في دارها تخرج منه ذليلة حسيرة، تفارق حبيبها وأولادها، وتبقى ضحية كلمة مسعورة أطلقها مسكون بعبادات لم ينزل بها الله من سلطان، قالها ليأمن عواقب العار الذي يخشى أن يلحق به، وما أخسر من هدم داره استجابة لداع من دواعي القلبية أو الأعراف، فلتدع ضيفك بإصرار فإن رضي فله الإكرام التام، وإن أبى فلينصرف مرحومًا مغفورًا له بإذن الله دون تخرجه أو يجرجك، ولتأمن أنت على أهلك وبيتك.

وذكر رسول الله ﷺ عددًا من أصحاب الهيئات الذين تراعى منازلهم في الحديث الذي رواه أبو موسى الأشعري قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَانِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»^(١) أن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ»^(٢) وهم أصحاب الوجاهات والمسئوليات.

(١) حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٨٤٣).

(٢) رواه ابن ماجه وحسنه الألباني (٣٠٠٧).



وأقصى مدة للضيافة ثلاثة أيام، هي حق للضيف، عليه أن يرحل بعدها حتى لا يخرج مضيفه، ^(١) أن رسول الله ﷺ قال: «الضيافة ثلاثة أيام، وجائزته يوم وكيلة وما أنفق عليه بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يخرج» ومعنى قوله: «لا يثوي عنده» يعني الضيف لا يقيم عنده حتى يشتد على صاحب المنزل والخرج هو الضيق، إنما قوله حتى يخرج يقول حتى يضيّق عليه.

وليست الضيافة بالطعام والشراب فقط، بل إن من أجمل القرى وأكملها الحديث مع الضيف والترحيب به، وإزالة الوحشة عنه:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمكان جديب
وما الخصب للأضياف كثرة القرى ولكنما وجه الكريم خصيب
إنه الكريم حقاً ذاك الذي يتناسى كل همومه أمام ضيفه، ويشعره بالراحة معه وحب لقياءه، مهما كانت ظروفه وعسرها؛ حتى لا بنكد عليه حلاوة اللقاء:

انظر إلى حسن صبر الشمع يظهر للـ اثنين نوراً، وفيه النار تستعز
كذا الكريم تراه ضاحكاً جذلاً وقلبه بدخيل الهم منقطر
حقاً صدق رسول الله ﷺ حين قال: «إنها بعثت لأتمم صالح الأخلاق» والحديث رواه أحمد وصححه الألباني.

عباد الله.. توبوا إلى واستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

(١) روى البخاري (٦١٣٥).



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه من خلقه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن من حق المسلم على المسلم أن يجيب دعوته، ومن كرم الضيف أن يأتي في موعده الذي حدده له، وإذا لم يستطع أن يأتي أو نسي موعده - وكل ذلك من طبع البشر - فعليه أن يعتذر منه، ويحسن الاعتذار، وإذا استطاع عوضه زيارة أخرى دون إحراج له.

يقول الرسول ﷺ: «إذا دُعي أحدكم فليجب، فإن كان صائمًا فليُصَلِّ، وإن كان مفطرًا فليطعم»^(١) فليُصَلِّ: أي يدعو لمضيفه، على أنه إذا كان صائمًا صيام سنة فإن له أن يفطر إكرامًا لمضيفه، وجبرًا بخاطره، وهو إن شاء الله على أجره؛ لأنه العمل الصالح، بل وشرع فيه.

وعلى الضيف أن يراعي حق الضيافة من جانبه، فيغض بصره عن محارم المضيف، ولا يطلع إلا على ما أذن له فيه، ولا يفشي له سرًا، ولا يتحدث بما حدثه إلا ما يعود بالخير عليه، فبئس الضيف اللئيم الذي يقابل كرم مضيفه بالكيد له أو الإساءة إليه، فإن المجالس بالأمانة.

وعليه ألا يتقدم على صاحب المنزل في دابته، ولا مكان جلوسه، ولا يتقدمه في صلاة إلا بإذنه، فعن عبد الله بن يزيد الخطمي وكان أميرًا على الكوفة قال: أتينا قيس بن سعد بن عبادة في بيته، فأذن المؤذن للصلاة، وقلنا لقيس قم فصل لنا، فقال لم أكن لأصلي بقوم لست عليهم بأمير، فقال رجل ليس بدونه يقال له عبد الله بن حنظلة بن الغسيل قال رسول الله ﷺ: «الرجل أحق بصدر دابته، وصدر فراشه، وأن يؤم في رحله» قال قيس بن سعد عند ذلك يا فلان لمولى له: قم فصل لهم.^(٢)

(١) رواه مسلم (١٤٣١).

(٢) صحيح الجامع (١٦١٣).

وللضيف أن يكون له دور الإصلاح إذا وقعت عينه على عيب دون قصد، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إذا رأى أن لذلك مكاناً، كما أن المضيف له أن يكرم ضيفه بعلم نافع يذكره له، أو يهدي له كتاباً نافعاً أو نحوه.

روى البخاري بسنده أن النبي ﷺ آخَى بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَرَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ قَالَ: مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ نَمْ فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: فَمُ الْآنَ فَصَلِّ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلَا هَلْكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَ سَلْمَانُ» (١).

ومن كرم الضيف لمضيفه أن يدعو له، وتلك سنة من سنن الرسول ﷺ، فقد أخرج البخاري عن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُمِّ سُلَيْمٍ فَأَتَتْهُ بِتَمْرٍ وَسَمْنٍ قَالَ: «أَعِيدُوا سَمْنَكُمْ فِي سِقَائِهِ وَتَمَرَكُمْ فِي وَعَائِهِ، فَإِنِّي صَائِمٌ، ثُمَّ قَامَ إِلَى نَاحِيَةِ مِنَ الْبَيْتِ فَصَلَّى غَيْرَ الْمَكْتُوبَةِ، فَدَعَا لَأُمِّ سُلَيْمٍ وَأَهْلِ بَيْتِهَا، فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ لِي خُوَيْصَّةً. قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَتْ: خَادِمَتُكَ أَنَسُ، فَمَا تَرَكَ خَيْرَ آخِرَةٍ وَلَا دُنْيَا إِلَّا دَعَا لِي بِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ مَالًا وَوَلَدًا، وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ، فَإِنِّي لَمِنَ أَكْثَرِ الْأَنْصَارِ مَالًا وَحَدَّثَنِي ابْنَتِي أُمَيْنَةُ أَنَّهُ دُفِنَ لِصُلَيْبِي مُقَدَّمُ حَجَّاجِ الْبَصْرَةِ بَضْعَ وَعِشْرُونَ وَمِائَةً» (٢).

وليس للضيف أن يحضر معه ضيفاً آخر إلا بإذن صاحب المنزل، فعن أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُكْنَى أَبَا شُعَيْبٍ، فَقَالَ لِعُغْلَامٍ لَهُ فَصَّابٌ: اجْعَلْ لِي طَعَامًا يَكْفِينِي خَمْسَةً، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْعُو النَّبِيَّ ﷺ خَامِسَ خَمْسَةٍ، فَإِنِّي قَدْ عَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْجُوعَ، فَدَعَاهُمْ فَجَاءَ مَعَهُمْ رَجُلٌ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ هَذَا قَدْ تَبَعَنَا، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذُنَ لَهُ، فَأَذْنُ لَهُ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ

(١) رواه البخاري (٦١٣٩).

(٢) رواه البخاري (١٩٨٢).



يَرْجِعَ رَجَعٌ فَقَالَ: لَا بَلْ قَدْ أَذْنْتُ لَهُ^(١). وهذا لا ينافي أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام راغباً في أن يأذن صاحب البيت لذلك الرجل، وإنما كان ذلك استئذاناً منه للرجل، ومراعاةً لصاحب البيت، في أن لا يدخل عليه من لا يأذن بدخوله.

أيها الناس: إن الإسلام قد نظم حياة المسلم الاجتماعية، ودلنا على ما يليق وما لا يليق، فمن الناس مستقل ومستكثر من تلك الآداب، تعلماً أو عملاً، فلم هذا التهاون من الآباء والأمهات والمربين بغرس القيم والآداب؟ وتعويد الأبناء على مكارم الأخلاق؟ إن هذا الأمر ليس بنافلة مستحبة، بل هو فريضة واجبة، وضرورة ملحة، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته.

إنه لما يجدر بالمربين أن يعلموا أولادهم وأهليهم ومن تحت أيديهم تلك الآداب الحسنة، والشمائل الرفيعة، والمكارم النبيلة، فإنه ما أعطى والدٌ ولداً ولا معلمٌ تلميذاً أفضل من أدب حسن، وقد قيل: نحن إلى قليل من الأدب، أخرج منا إلى كثير من العلم.

أسأل الله تعالى أن يبصرنا بديننا، وأن يعيننا على اقتفاء آثار رسوله الذي أمرنا بالصلاة والسلام عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] اللهم صل وسلم وزد وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله الطاهرين، وصحبه أجمعين، أخص منهم الخلفاء الراشدين المهديين من بعده؛ أبا بكر وعمر وعثمان وعلي، وعنا معهم برحمتك وفضلك ومنك يا أكرم الأكرمين.



آداب الصديق^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد في الآخرة والأولى، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله بعثه بالهدى، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجعلنا على المحجة البيضاء، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الأصفياء، وأصحابه الأتقياء، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ وسار على نهجهم واقتفى.

أما بعد:

فإن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اتقوا الله عباد الله، وراقبوه واعلموا أنكم عن قريب ملاقوه..

أيها الناس: إن من الأمور الجبلية الفطرية التي فطر الله تعالى الإنسان عليها في هذه الحياة: أنه لا بد للمرء في هذه الحياة من جلساء وأصحاب، يتحدث معهم، ويتحدثون معه، ييث إليهم همومه ويشكو إليهم أحزانه ويستشيرهم فيما يُلَمُّ به من مهمات وأمور.

فالمصاحبة مما حث الإسلام عليه، ورغب في السعي إليه، والصداقة تدعيم للعلاقات الاجتماعية، وتقوية للمودات، وشد لأواصر الصلات.

الصديق عباد الله من ضرورات الحياة، وطبائع البشر، ومن ظن أنه يمكن أن يستغني عن صديق في هذه الحياة فمغرور، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»^(٢).

(١) ناصر بن محمد الأحمد.

(٢) حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٨٣٣).



أيها المسلمون: والمرء في هذه الحياة على مشرب صديقه وجليسه، ولا يشك عاقل من الناس في أهمية الصداقة والمؤاخاة في حياة المسلم وأثرها على سلوكه وأخلاقه، فالأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف.

أيها الأحبة: ومن أجل ما قيل في تعريف الصديق ما قاله بعضهم: الصديق إنسان هو أنت إلا أنه غيرك.

ومثل هذا القول قد روي عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أقطع طلحة بن عبيد الله أرضاً وكتب له بها كتاباً وأشهد فيه ناساً منهم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن الصحابة أجمعين، فأتى طلحة بكتابه إلى عمر ليختمه له، فامتنع عمر، فرجع طلحة إلى أبي بكر مغضباً وقال: «والله ما أدري أأنت الخليفة أم عمر؟ فقال أبو بكر: بل عمر لكنّه أنا».

عباد الله: وقد جاءت وصايا السلف الصالح في الحث على اختيار الأصدقاء وانتقاء الأصحاب والأخلاء، ومن ذلك قول أحدهم: (اصحب مَنْ إذا صحبتك زانك، وإذا خدمته صانك، وإذا أصابتك فاقة جاد لك بهاله، وإذا رأى منك حسنة عدّها، وإن رأى سيئة كتمها وسترها، لا تخاف بوائقه، ولا تختلف طرائقه).

وصاحب إذا صاحبت حرّاً مبرّراً يزين ويُزري بالفتى قرناًؤه

وقال لقمان لابنه وهو يعظه: (يا بني إياك وصاحب السوء، فإنه كالسيف المسلول، يعجبك منظره، ويَفْجُح أثره، يا بني ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الأخ إلا عند الحاجة). وقيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أحب إليك؟ قال: (الذي يغفر زلي، ويقبل عليلي، ويسد خللي). وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اصحب من ينسى معروفه عندك، ويذكر حقوقك عليه».

أيها المسلمون: لقد أصبحت الصداقة الحقّة من غرائب الدنيا وعجائب الزمان وذلك لما بعد الناس عن المنهج الصحيح للروابط والعلاقات فيما بينهم، فأصبح اجتماعهم إلا من رحم الله من أجل الدنيا، يجتمعون عليها، ويتفرقون من أجلها، حتى إنه ليصدّق فيهم قول القائل: ما في زمانك ما يعزُّ وجوده إن رمتّه إلا صديقٌ مخلصٌ



والمسلم العاقل عباد الله يدرك أن الحصول على الصديق الوفي والخليل الحميم من أصعب الأشياء إن لم يكن من المستحيلات، ولذلك ينظر بعين البصيرة إلى أعمال وأخلاق من يريد صداقته، فمن رضي أعماله وأخلاقه صادقة، ومن سخط أعماله وأخلاقه ابتعد عنه. قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: (الصاحب للصاحب كالرقعة للثوب، إن لم يكن مثله شانه).

أيها المسلمون: ولما للصداقة من أهمية في حياة المسلم وتأثير على سلوكه فقد ذكر أهل العلم صفات، يجب على المسلم أن يختار صديقه وجليسه على وفقها: أولها: أن يكون ذا دين واستقامة، فإنّ ذا الدين يقف به دينه على الخيرات، ويجنبه المحرمات، مما يعود على صاحبه بالخير، وتارك الدين عدوّ لنفسه فكيف ترجى منه مودةً غيره. قال أحد السلف: (اصطفِ من الإخوان ذا الدين والحسب والرأي والأدب، فإنه ردةٌ لك عند حاجتك، ويدٌ عند نائبتك، وأنسٌ عند وحشتك، وزينٌ عند عافيتك).

فالإسلام معاشر الأخوة شرط ضروري للجليس الصالح والصديق الناصح، ولن يكون صديقاً ناصحاً من يكون على غير دينك، ولن يكون خليلاً وفيّاً من يخالفك في الاعتقاد، وكل صداقة تُبنى على غير الإسلام فإن ضررها متيقنٌ منه قلّ أو كثر، وستقلب هذه الصداقة إلى عداوة يوم تتبين الحقائق، وتزول الغشاوة عن العيون والبصائر ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. ألا فليحذر من يصادقون بعض أهل البدع من الفرق الباطنية وغيرهم ويثقون بهم، وليحذر أيضاً من يصادق بعض النصارى ممن ابتلي بالعمل في الشركات فإن كل هؤلاء لا يؤمن جانبهم.

يعطيك من طرف اللسان حلاوةً ويروغ منك كما يروغ الثعلب

الصفة الثانية: أن يكون عاقلاً، فإن العقل رأس المال، والصديق الأحق يفسد أكثر مما يصلح، ويضر أكثر مما ينفع، لذا كان لا بد أن يكون الصديق صاحب عقلٍ موفور، وسلوك محمود، ومن الجهل صحبة ذوي الجهل والحماقة ممن لا تدوم صداقتهم، ولا تثبت مودتهم، وقديماً قيل:

احذر مودة ماذي مزج المارارة بالحلاوة

يُحصي الذنوب عليك أيام الصداقة للعداوة



الصفة الثالثة: أن يكون محمود الأخلاق، مرضي الفعال، مؤثرًا للخير، أمرًا به، كارهًا للشر ناهيًا عنه.

الصفة الرابعة: أن لا يكون فاسقًا، فإن الفاسق لا فائدة في صحبته، لأن من لا يخاف الله لا تؤمن غائلته، ولا يوثق بصدقه بل يتغير بتغير الأغراض، ويتقلب بتقلب الزمان. قال أحد الفضلاء:

مجالسة السفية سفاه رأيٍ ومن عقلٍ مجالسة الحكيم
فإنك والقرين معًا سواءٌ كما قدَّ الأديم من الأديم

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليك بإخوان الصديق تعش في أكنافهم فإنهم زينٌ في الرخاء، وعدةٌ في البلاء، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرِّك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى».

أيها المسلمون: لقد حذر المصطفى ﷺ من مجالسة الأشرار ومصاحبة الأندال، وحث على اختيار الصديق الصالح والجلس المؤمن لما له من نفع في الدنيا والآخرة، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجلس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»^(١).

عباد الله: وإذا كان رسول الله ﷺ قد ضرب للجلس الصالح مثلاً بحامل المسك فإنه أعظم من ذلك وأنفع، فهو إما أن يعلمك ما ينفعك في دينك ودنياك، أو يهدي لك نصيحة، أو يحذرك من معصية، أو يحثك على طاعة، أو يدعوك إلى مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، بقوله وفعله، وأقل ما تستفيده منه أن تنكف بسببه عن السيئات والمعاصي رعاية لحق الصحبة، ومنافسة في الخير، وترفعًا عن الشر، وهذه فائدة عظيمة لا توزن بشيء، وقديمًا قيل: ما شيء أسرع في فساد الرجل وصلاحه من صاحبه.

(١) رواه البخاري (٥٥٣٤) ومسلم (٢٦٢٨).



قال عدي بن زيد رَحِمَهُ اللهُ:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وصاحب أولي التقوى تنل من تقاهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

وفي الحديث أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»^(١).

عباد الله: إخوان الصديق هم خير مكاسب الدنيا، زينة في الرخاء، وعدة في الشدة، ومعونة على خير المعاش والمعاد، هم كما قيل: إن جالستهم نفعوا، وإن شاورتهم نصحوا، وهكذا تكون مصاحبة الأخيار أهل العلم والفضل والتقوى والصلاح.

والصديق الفاسد والجليس السوء مما حذر الله تعالى منه ورسوله وقد ضرب له النبي ﷺ مثلاً بنافخ الكير، لأنه يؤذي جليسه على كل حال، فهو كالحداد الذي ينفخ في كيره ويضرب على محمى حديده، إذا لم يطر شيء من شرار ناره، وطائش قذائفه الملتهبة على ثيابك وجدت من حديده وناره وكل ما يحيط به ريحاً منتنة مؤذية، وهكذا من يصاحب الأشرار وأهل السوء والفحش والمعاصي عياداً بالله، فهو إما أن ينساق معهم إلى مواقع الإثم ومواطن الريب فتمسه نار المعصية في الدنيا ويصلى نار جهنم في الأخرى، وإما أن يناله خبيث رائحتهم واقتباس سيرتهم فيجد ما يؤذيه من قول وعمل قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمري يوضع في الرماد فيخمد

عباد الله: إن مصاحبة الأشرار سم نافع، وبلاء واقع، فكم هلك بسببهم أقوام، وكم فسد بسببهم أقران، كم من شاب وفتى صغير أو كبير انحرف عن الطريق المستقيم، وضل عن الهدى القويم، وسلك سبيل الهوى والشيطان الرجيم بسبب صديق السوء، وجلس الضلالة الذي قاده إلى الخراب والهلاك، وأوقعه في الضلال والفساد خطوة خطوة، حتى ترك الصلاة،

(١) حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٨٣٢).



واتبع الشهوات وفي المقابل كم من ضال تائه قاده الجليس الصالح إلى مجالس الخير وحلقات الذكر فهداه الله على يديه وأصبح من عباد الله المتقين، ينافس في الخير ويُسبق في العمل الصالح.

ولا أدل على شدة تأثير الجليس على جليسه والصديق على صديقه مما رواه البخاري ومسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أمية وأبو جهل بن هشام فقال له: «يا عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله». فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب، فأعاد عليه النبي ﷺ، فكان آخر الأمر أن قال: هو على ملة عبد المطلب. فمات على الشرك وأصبح حطب جهنم بسبب جلساء السوء ودعاة الضلالة.

فلنحذر عباد الله من مجالسة أهل الزيغ والفساد ولنتشبث بصداقة أهل الخير والاستقامة قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبي الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه المتقين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها الناس: اعلّموا رحماني الله وإياكم أن الصداقة النافعة هي التي بنيت على تقوى الله تعالى ومرضاته، بعيدًا عن مطامع الدنيا، وشهوات الحياة، فهذه الصحبة هي النافعة في الدنيا قبل الآخرة، لأنها سريعة الاتصال بطيئة الانقطاع قال الله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) يعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴿[الزخرف: ٦٧-٦٨].

قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»، وذكر منهم: «رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»^(١). وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة لقرّبهم من الله تعالى ومجلسهم منه، هم قوم من أفناء الناس، من نزاع القبائل، تصادقوا في الله وتحابوا فيه، يضع الله عزّ وجلّ لهم يوم القيامة منابر من نور، يخاف الناس ولا يخافون، هم أولياء الله عزّ وجلّ الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»^(٢).

أما صحبة الأشرار فإنها سريعة الانقطاع، بطيئة الاتصال، تورث الحزني في الدنيا قبل الآخرة، لأن الإنسان موسوم بسيا من قارب، ومنسوب إليه أفاعيل من صاحب. ولقد ذكر الله تعالى حالهم يوم القيامة إذا تقطعت بهم السبل وغرّهم السراب اللامع والبريق الخادع، وهم يصطرخون في النار ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠٠) وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ ﴿[الشعراء: ١٠٠-١٠١]، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ بَعْضُ الظَّالِمِ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٣٧) يَوَلِّتَنِي لَيْتَنِي لَوْ اتَّخَذْتُ

(١) رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١).

(٢) السلسلة الصحيحة (٣٤٦٤).



فَلَا تَأْخِذْ بِهِ أَصْلًا (٣٨) لَقَدْ أَصْلَحَ عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَ فِي وَكَاتِ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿١﴾
[الفرقان: ٢٧-٢٩].

عباد الله: إن الناس على ثلاث طبقات: منهم من هو كالغذاء لا يستغنى عنه. ومنهم من هو كالدواء لا يحتاج إليه إلا زمنًا معينًا. ومنهم من هو كالداء لا يحتاج إليه أبدًا.

ثم اعلّموا رحماني الله وإياكم أن للصدّاقة آدابًا، وللصحبة حقوقًا، فلا بد من النصيحة للصديق في السر والعلن، وتخفيف الأثقال عنه ومعاونته فيما ينوبه من حادثات الدهر، أو يناله من نكبات الحياة، فإن مراقبته في الظاهر نفاق، وتركه في الشدة لؤم وخسة. وعليك بعد ذلك أن لا تُفْرِطَ في حبه، بل تترق وتقتصد، فإن الأيام دول، فقد يصير الصديق عدوًا، والعدو صديقًا. قال عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أحب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما وأبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما» رواه البخاري في الأدب المفرد.

قال الحسن البصري: (إخواننا أحب إلينا من أهلينا، إخواننا يذكروننا بالآخرة وأهلونا يذكروننا بالدنيا).

وقال عمر ابن الخطاب: «عليك بإخوان الصدق فعش في أكنافهم فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء».

إن الأخوة قائمة على الكرم، والصدق، والأمانة، والوفاء، والبذل، والإيثار. جاء عن فتح الموصلي أنه قال: (هل يُدخل أحدكم يده في جيب أخيه فيأخذ ما يريد؟ قالوا: لا، قال: فلستم بإخوان)، و(سافر مرة، فجاء أحد إخوانه إلى بيته فسأل عنه، فخرجت الجارية، فقال: إنه مسافر، فقال: هاتي لي صرة أخِي، فأخرجت له صرة فيها دراهم، فأخذ بعضها وانصرف، فلما جاء فتح الموصلي، أخبرته، فقال: إن كنت قد صدقتَ فأن حُرّة، فأعتقها)، فرحًا ببذله لأخيه.

وهذا إنما يكون فيمن تعمقت فيهم الأخوة، وزالت بينهم الحواجز، فهم أهل صدق ووفاء وبذل وسخاء، ودين وتقوى.



ولا بد أيضًا من غض الطرف عن الزلات، والتجاوز عن الهفوات بقدر ما يحفظُ
الصداقة، وتدوم معه العشرة، فإن من رام بريئًا من الهفوات سلبًا من الزلات فقد رام
مستحيلًا:

ومن يتبع جاهدًا كل عثرةٍ يجدها ولا يسلم له الدهر صاحبُ

ولله در القائل:

إذا كنت في كل الأمور معاتبًا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدًا أو صل أخاك فإنه مقارف ذنبٍ مرةً ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

اللهم رحمة اهد بها قلوبنا، واجمع بها شملنا، ولم بها شعنا، ورد بها الفتن عنا اللهم صل
على محمد ...





أدب الكلام (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله القاهر فوق عباده عزًّا وسلطانًا، تعالى مجده، وتعاظم ملكه، قَسَمَ الخلق بعدله ورحمته، فمنتحل كفرًا، ومنتحل إيمانًا. أحمده سبحانه وأشكره، وأسأله المزيد من فضله وكرمه، والإعانة على ذكره وشكره، وحسن عبادته، فطوبى لمن ذكَّرَ بآيات ربه فزادته إيمانًا، وويل لمن ذكَّرَ بها فخر عليها صُمًّا وعميانًا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، دعا إلى الحق سرًّا وإعلانًا، فأشاد بالتوحيد منائر، وكسر للشرك أصنامًا، وهدم أوثانًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، كانوا للدين دعاة وعلى الحق أعوانًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، فالتقوى وصية الله للأولين والآخرين، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أيها المؤمنون: لقد امتن الله سبحانه وتعالى على الإنسان بنعم عديدة، وأحوال متكاثرة فريدة، ومن تلكم النعم، نعمة البيان واللسان، نعمة النطق والكلام: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن: ١-٤].

لسان الفتى نصفٌ ونصفُ فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

اللسان، نعمة جليلة، ومخلوق صغير، داخل كيان هذا الإنسان، لكن له شأن عظيم، فما أصغر حجمه وما أصغر أثره على الإنسان. اللسان -أيها الأحبة- يعتريه شيئان، الكلام والسكوت فكلام اللسان له سلبيات، وهي ما تسمى بالآفات، وله إيجابيات، وهي الطاعات

(١) لم يتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



والقربات. وسكوت اللسان قد يكون آفة، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، وقد يكون عملاً صالحاً؛ كما قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت»^(١). فالسكوت والصمت، خير من الكلام بالباطل وبالفحش.

الصمت زين والسكوت سلامة فإذا نطقت فلا تكن مكثارا
ما أن ندمتُ على سكوتي مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا

أيها المسلمون: اللسان تتعلق به آفات كثيرة، وخصال عديدة، ولهذا قال ﷺ: فيما رواه الترمذي بسند حسن عند أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان -أي تخضع له- فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»^(٢). وعندما سأله معاذ بن جبل عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار، أخبره النبي ﷺ برأسه وعموده، وذروة سنامه، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: كف عليك هذا»^(٣). و«إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»^(٤).

إن الحديث -أيها المسلمون- عن اللسان وآفاته، حديث لا ينقطع ولا ينتهي؛ لأنك إن أردت الحديث عن ذلك، فإنك ستلاحقك سائر شؤون الحياة التي يحياها الإنسان، فهناك الكذب، وبضده الصدق، وهناك الكف عن أعراض الناس، وبضده الغيبة والنميمة، وهناك التقعر في الكلام، وقد هلك المتنطعون، وهناك قول الزور، ولغو الحديث والخوض في الباطل، وهناك التحدث بالأخبار من غير تثبت، وهناك الطعن في نيات الصالحين، والتلذذ بتشويه سمعة من آتاه الله فضلاً وعلماً وعفة. وهذا إذا صار معه الهوى -والعياذ بالله- كان

(١) رواه البخاري (٦٤٧٥) ومسلم (٤٧).

(٢) حسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٤٠٧).

(٣) صحيح الترمذي (٢٦١٦).

(٤) رواه مسلم (٢٩٨٨).



الكلام مطيته الكذب، وسوء الظن، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]. وقال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]. وقال جل شأنه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

أيها المسلمون: إن أقل الورع يكون في اللسان، قال بعض السلف: (فتشنا الورع، فلم نجده في شيء أقل منه في اللسان).

لسانك لا يلقىك في الغي لفظه فإنك مأخوذ بما أنت لافظ

اللسان معبر عندما اشتمل عليه قلب الإنسان، فإن كان القلب زكياً مؤمناً كانت ألفاظه طيبة، وإن كان القلب خرباً مظلماً بظلمة المعصية، كانت ألفاظ اللسان سيئة بذيئة. إن من الناس من يعيش -مع كل أسف- بذيء اللسان، شرس الطبع، لا تحجزه مروءة، ولا يردعه أدب، جرد لسانه مقراضاً للأعراض، بكلمات تنضح فحشاً، وألفاظ تنهش نهشاً، يسرف في التجني على عباد الله بالسخرية واللمز، وكأنه قد وكل إليه تجريح عباد الله. ويزداد الأمر، وتعظم البلية، حين ترى من عليه ملامح الاحتشام، وسيقاً الوجاهة، وهيئات العلماء يسفر عن بذاء وثرثرة، يزعج بكلامه الباطل كل من جالسه، لا يدع لأصحاب الفضل فضلاً، يحمل على أهل الخير، ومن شهد له بالصلاح، حملات شعواء، أحياء وأمواتا، لزلة لسان، أو سبق قلم، هذا حجزه عن عيوب الناس ما يعلم من عيوب نفسه.

إذا رمت أن تحيا سليماً من الأذى ودينك موفور وعرضك صيئ

لسانك لا تذكر به سوءة امرئ فكلك سوءات وللناس ألسن

وعيناك إن أبدت لك معايها فقل لها يا عين، للناس أعين

ذكر رجل آخر بسوء عند إياس بن معاوية، فقال له: (هل غزوت الترك والروم؟ فقال: لا. فقال: سلم منك الترك والروم، ولم يسلم منك أخوك المسلم). إن الاشتغال بالظعن في



الناس، خاصة من عرف بالدعوة والعلم، وذكر نقائصهم، والتسلي بالخوض في معائبهم، وإفشاء مقالة السوء بينهم، من طبائع القلوب المريضة، والصدور الحاقدة، وهو من أظهر الدلائل على قلة التوفيق - والعياذ بالله -، قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(١). فاحذر - أيها المسلم - من لسانك، وزن كلامك وتأمل عاقبة قولك قبل أن تتلفظ به، فرب كلمة سلبت نعمة، وإن الكلمة إذا خرجت من فمك لا يمكن استردادها، وقد يصعب تدارك خطرها، فالملائكة كتبوا، والناس سمعوا، والمرجعون علقوا وشرحوا وزادوا، وأنت وحدك الذي تتحمل كل هذه التبعات والمسئوليات.

أيها المسلمون: لقد جاءت الشريعة وحثت على اختيار الطيب من القول، وأمرت بحسن الكلام، ونهت عن الضد من ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. وقال: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]. وقال: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]. وقال: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]. والله - جل وتعالى - أنكر على الصحابة قول المنكر من الألفاظ ونهى عنها، ألم تسمع لقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن سَائِهِمْ مَا هِيَ أُمَمٌ هُمْ إِن أُمَمَتْهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢]. قالوا: ألفاظ الظهار، وهي ألفاظ محرمة، لا يليق بمؤمن أن يتلفظ بها مع زوجته، لما فيها من التعدي والتحريم، فقول الرجل لامرأته: (أنت علي كظهر أمي) هذا قول منكر، ولفظ لا يجوز للمؤمن أن يأتي به، ولهذا شرعت له الكفارة.

بل إن الله - جل وعز - لينكر على الصحابة الجهر بالقول، والزيادة في الصوت، فضلاً عن اللفظ نفسه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]. ولهذا ففضية اللفظ والقول، وحسن تحيّر الكلام، مع من تخاطبه، قد جاءت بها الشريعة، ثم اسمع لهذه الآية:

(١) رواه البخاري (٦٤٨٤) ومسلم (٤١).



﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤]. نهى الله عَزَّوَجَلَّ الصحابة أن ينادوا رسول الله ﷺ بلفظة: راعنا: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]. السبب هو أن الأمة الغضبية، اليهود، كانوا يقولون يا محمد راعنا، وكلمة راعنا لها عدة معاني، فتأتي بمعنى انتظرنا، وتأتي بمعنى أنك يا محمد راعٍ فيك رعونة، أو غير ذلك من مرادات اليهود، المغضوب عليهم، كما حكاها أهل التفسير. وأياً كان معناها، فقد نهى الله الصحابة عن التشبه باليهود، وأمرهم بغيرها لجمالها وحسنها وأدبها. ومن هذا الباب ما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك، اسق ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل: أحدكم عبي أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»^(١). فالرب هو الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يجوز أن يقول الرجل لمولاه: أطعم ربك، يعني سيدك، وإن كان معناه صحيحاً من جهة اللغة، ولكن لما كان الرب هو الله سبحانه، نهى النبي ﷺ عن ذلك، وأبدله بلفظ أحسن منه. ومن ذلك: نهيه عليه الصلاة والسلام أن يقول الرجل إذا شعر بملل أو كسل أو فتور، نهاه أن يقول: «خبثت نفسي» ولكن ليقل: لقست نفسي، أي فترت وكسلت.^(٢) فخبثت نفسي لفظ غير حسن، وفيه معان سيئة، فلهذا تُهي عنه. والحديث في البخاري. ومن ذلك: النهي عن تسمية العنب بالكرم، قال ﷺ: «لا يقولن أحدكم للعنب الكرم، فإنما الكرم قلب المؤمن»^(٣). فلفظة الكرم تدل على كثرة الخير والمنافع، ولا يليق إطلاقها على العنب الذي تتخذ منه الخمر والأشربة المحرمة. ومن هذا الباب: التلفظ بألفاظ الطلاق والنكاح والعتق والظهار، والنذور ونحو ذلك مما يتساهل فيه بعض الناس. ناهيك عن بعض الألفاظ التي قد تخرج صاحبها من الإيمان والإسلام، مما يكون فيها كفر أو اعتراض على إرادة الله، وخلقه وتصريفه لشئون الكون، وبعض ألفاظ الاستهزاء والسخرية بالدين أو بأهله -نعوذ بالله من الخذلان-. اسمع لهذه القصة الطريفة، والتي ذكرها صاحب

(١) رواه البخاري (٢٥٥٢) ومسلم (٢٢٤٨).

(٢) رواه البخاري (٦١٧٩) ومسلم (٢٢٥٠).

(٣) رواه البخاري (٦١٨٣) ومسلم (٢٢٤٧).



كتاب الحاوي للفتاوى في المجلد الأول منه (ص ٢٤١) ل ترى حساسية السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ ودقة تربيته، حتى لأولادهم في انتقاء الألفاظ، (كان الشيخ تاج الدين ابن السبكي، مع جماعة له في دهليز داره، فمر بهم كلب يقطر ماءً، يكاد يمس ثيابهم، يقول فنهرته، وقلت: يا كلب ابن الكلب، وإذا بأبيه الشيخ العلامة تقي الدين السبكي سمعه من داخل البيت، فلما خرج على ولده، قال له: لم شتمته؟ فقال: ما قلت إلا حقاً، أليس هو بكلب ابن كلب؟ فقال: هو كذلك، إلا أنك أخرجت الكلام في مخرج الشتم والإهانة، ولا ينبغي ذلك). فقس -رعاك الله- تربيتنا لأنفسنا ولأولادنا، في حسن انتقاء الألفاظ. نفعني الله وإياكم بهدي كتابه، واتباع سنة نبينا محمد ﷺ. أقول هذا القول...



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فيا أيها الأحبة المسلمون: لقد كان السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ يتخيرون ألفاظهم، ولا ينطقون إلا بالكلام الطيب الحسن؛ لأنهم يعلمون أنهم سيلاقوه: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. فلا يريدون أن يروا في صحائف أعمالهم ألفاظًا بذیئة فاحشة، غيرُ حسنة. وكان هذا هديًا عامًّا فيهم، وتلك من صفات أهل الإيـمان. قال يونس بن عبد الأعلى: (كانت ألفاظ الشافعي كأنها سكر). وكان يقول: (ما كان الشافعي إلا ساحرًا يقصد به حديث رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحرا»)^(١). وكان يقول ابن هشام صاحب السيرة: (طالت مجالستنا للشافعي، فما سمعت منه لحنَةً قط، ولا كلمة غيرها أحسن منها). ولهذا فتن الناس الشافعي لما قدم مصر، من حسن حديثه وبيانه.

أيها المسلمون: كم من لفظة يقوها الإنسان، فتؤثر في حياته كلها، وتقلبها رأسًا على عقب، رب لفظة قالها رجل، هدمت بيته، وفرقت شمله، ورب كلمة سيئة خرجت، فرقت الصديق عن صديقه، ورب كلمة قيلت، حرمت صاحبها من رزقه ووظيفته.

يصاب الفتى من عشرة بلسانه وليس يصاب المرء من عشرة الرّجلِ
فعثرته في القول تذهب رأسه وعثرته بالرّجلِ تبرى على مهلِ

لعلي أختم -أيها الأحبة- بأن أقرأ عليكم حديث معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ فيما نحن بصدد الحديث عنه، فإنه حديث عظيم، يحتاج إلى وقوف وتأمل، قال معاذ: قلت يا رسول الله: «أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال: لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبدُ الله، ولا تشرك به شيئاً، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصومُ رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاةُ الرجل من جوف الليل»، ثم تلا:

(١) رواه البخاري (٥٧٦٧).



﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ
نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [السجدة: ١٦-١٧]. ثم قال: «يا معاذ ألا
أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر
الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله، ثم قال: يا معاذ، ألا أخبرك
بملاك ذلك كله؟! - كل ما تقدم - قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه عليه الصلاة والسلام
وقال: كف عليك هذا، قلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا
معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»^(١).

فاتقوا الله عباد الله: واعقلوا ما تقولون، فإنكم بذلك مجزيون، ومن كان يؤمن بالله واليوم
الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، وفقنا الله جميعاً
لمرضاته، ورزقنا العلم النافع والقول الصائب، والعمل الصالح..
اللهم إنا نعوذ بك من شر سمعنا وبصرنا، ونعوذ بك من شر ألسنتنا، اللهم قوم ألسنتنا،
وسدد ألفاظنا، اللهم احفظنا من بين أيدينا.





أدب الاستئذان (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً، أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ذو الأدب الجم والخلق الرفيع، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

أما بعد: فاتقوا الله -أيها المؤمنون- وعظموا أمر ربكم، واستغفروه ثم توبوا إليه: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥].

عباد الله: لقد جعل الله البيوت سكناً يأوي إليها أهلها، تطمئن فيها نفوسهم، ويأمنون على حرماهم، يستترون بها مما يؤذي الأعراض والنفوس، يتخفون فيها من أعباء الحرص والحذر.

وإن ذلك لا يتحقق على وجهه إلا حين تكون محترمة في حرمتها، لا يستباح حماها إلا بإذن أهلها، في الأوقات التي يريدون، وعلى الأحوال التي يرغبون: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آجِعُوا فَأَجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٧-٢٨].

إن اقتحام البيوت من غير استئذان؛ هتك لتلك الحرمات، وتطلع على العورات، وقد يفضي إلى ما يثير الفتن، أو يهيج لغوايات تنشأ من نظرات خائنة، تتبعها أمور مريبة، تنقلب إلى أفعال آثمة، واستطالات محرمة. وفي الاستئذان وآدابه ما يدفع هاجس الريبة، والمقاصد السيئة.

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



أيها الإخوة المؤمنون: إن كل امرئ في بيته قد يكون على حالة خاصة، أو أحاديث سرية، أو شؤون بيتية، فيفجؤه داخل من غير إذن، قريباً كان أم غريباً، وصاحب البيت مستغرق في حديثه، أو مطرق في تفكيره، فيزعجه هذا أو يحجله، فينكسر نظره حياءً، ويتغيظ سخطاً وتبرماً.

ولقد يقصر في أدب الاستئذان بعض الأجلاف ممن لا يهمنه إلا قضاء حاجته، وتعجل مراده، بينما يكون دخوله محرّجاً للمزور مثقلاً عليه.

وما كانت آداب الاستئذان وأحكامه إلا من أجل أن لا يفرط الناس فيه أو في بعضه، معتمدين على اختلاف مراتبهم في الاحتشام والأنفة، أو معولين على أوهامهم في عدم المؤاخذه، أو رفع الكلفة.

تأملوا -أيها المؤمنون- قوله سبحانه: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ [النور: ٢٧].

إنه استئذان في استئناس، يعبر عن اللطف الذي يجب أن يكون عليه الزائر أو الطارق مراعاةً لأحوال النفوس وتهيئاتها، وإدراكاً لظروف الساكنين في بيوتاتهم وعوراتهم.

وهل يكون الأنس والاستئناس إلا بانتفاء الوحشة والكراهية؟!

أدبٌ رفيع يتحلى به الراغب في الدخول لكي يطلب إذناً لا يكون معه استيحاش من رب المنزل، بل بشاشة وحسن استقبال.

ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين مستأنسين، فذلك عون على تأكيد روابط الأخوة الإسلامية.

ولقد بسطت السنة المطهرة هذا الأدب العالي، وازدان بسيرة السلف الصالح تطبيقاً وتبييناً.

فكان نبكم محمد إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن، أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم»^(١).

(١) صحيح أبي داود (٥١٨٦).



ووقف سعد بن عبادة مقابل الباب، فأمره النبي أن يتباعد، وقال له: «وهل الاستئذان إلا من أجل النظر؟!»^(١).

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اطلع رجل من حجرٍ في حُجَرِ النبي، ومع النبي مدرى -أي: مشط- يحك به رأسه، فقال النبي ﷺ: «لو أعلم أنك تنظر؛ لطعنت به في عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»^(٢).

والمستأذن -أيها الإخوة- يستأذن ثلاث مرات، فإن أُذن له وإلا رجع. وقد قيل: إن أهل البيت بالأولى يستنصتون، وبالثانية يستصلحون، وبالثالثة يأذنون أو يردُّون، لكن قال أهل العلم: (لا يزيد على ثلاثٍ إذا سُمع صوته وإلا زاد حتى يعلم أو يظن أنه سُمع).

ويقول في استئذانه: السلام عليكم، أَدْخَلَ؟! فقد استأذن رجل على النبي وهو في بيته فقال: أَلَجَ؟! فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا، فعَلِّمهُ الاستئذان، فقل له: قل: السلام عليكم، أَدْخَلَ؟!»، فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم، أَدْخَلَ؟! فأذن له النبي ﷺ، فدخل^(٣). وله أن يستأذن بنداءٍ أو قرع أو نحنة أو نحو ذلك.

تقول زينب امرأة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان عبد الله إذا دخل تنحنح وصَوَّت. ويقول الإمام أحمد: (يستحب أن يحرك نعله في استئذانه عند دخوله حتى إلى بيته؛ لئلا يدخل بغتة). وقال مرة: (إذا دخل يتنحنح).

ومن الأدب أن الطارق إذا سئل عن اسمه فليبينه، وليذكر ما يُعرف به، ولا يجيب بما فيه غموضٍ أو لبسٍ؛ يقول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتيت إلى النبي في دَيْنٍ كان على أبي، فدققت الباب، فقال: «من ذا؟!»، فقلت: أنا، فقال النبي ﷺ: «أنا أنا!!»، كأنه كرهها^(٤).

وإذا قرع الباب فليكن برفق ولين من غير إزعاج أو إيذاء ولا ازدياد في الإصرار، ولا يفتح الباب بنفسه، وإذا أُذن له في الدخول فليترث، ولا يستعجل في الدخول، ريثما يتمكن

(١) صحيح أبي داود (٥١٧٤).

(٢) رواه البخاري (٦٢٤١) ومسلم (٢١٥٦).

(٣) صحيح أبي داود (٥١٧٧).

(٤) رواه البخاري (٦٢٥٠).



صاحب البيت من فسخ الطريق وتمام التهيؤ، ولا يرم ببصره هنا وهناك، فما جعل الاستئذان إلا من أجل النظر.

والاستئذان حقٌّ على كل داخل من قريب وبعيد من الرجل والمرأة، ومن الأعمى والبصير.

عن عطاء بن يسار، أن رسول الله سأل رجل فقال: يا رسول الله: أستأذن على أمي؟! فقال: «نعم»، قال الرجل: إني معها في البيت؟! فقال رسول الله ﷺ: «استأذن عليها». فقال الرجل: إني خادمها. فقال له رسول الله ﷺ: «استأذن عليها، أتحب أن تراها عريانة؟!»، قال: لا. قال: «فاستأذن عليها»^(١).

ويقول أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا دخل أحدكم على والدته فليستأذن». والأعمى يستأذن كالبصير، فلربما أدرك بسمعه ما لا يدركه البصير ببصره. (ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه، صُبَّ في أذنه الآنك يوم القيامة)، والآنك هو الرصاص المذاب.

أيها الإخوة في الله: وهناك أدب قرآني عظيم، لا يكاد يفقهه كثير من المسلمين، إنه قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَنْزِعُوا فَأَنْزِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

إن من حق صاحب البيت أن يقول بلا غضاظة للزائر والطارق: ارجع. فللناس أسرارهم وأعدارهم، وهم أدري بظروفهم، فما كان الاستئذان في البيوت إلا من أجل هذا. وعلى المستأذن أن يرجع من غير حرج، وحسبه أن ينال التزكية القرآنية.

قال بعض المهاجرين: «لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها. لقد طلبت أن أستأذن على بعض إخواني ليقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط. لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَنْزِعُوا فَأَنْزِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]». ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره.

(١) صححه الألباني مرسلًا في تخريج مشكاة المصابيح (٤٥٩٨).



إن من الخير لك ولصاحبك -أيها الطارق- أن يعتذر عن استقبالك بدلاً من الإذن على كراهية ومضض، ولو أخذ الناس أنفسهم بهذا الأدب، وتعاملوا بهذا الوضوح؛ لاجتنبوا كثيراً من سوء الظن في أنفسهم وإخوانهم.

فاتقوا الله -أيها المؤمنون- والتزموا بدينكم، واستمسكوا بأدابه، وحافظوا على مشاعر الأخوة، وتخبروا في أوقات الزيارات، وقدّروا لإخوانكم أحوالهم وظروفهم، والتمسوا لهم الأعذار، ودعوا الأعراف والتقاليد الخاطئة.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه وبسنة نبيه محمد ﷺ، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، ولسائر المسلمين من كل ذنبٍ وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله معز من أطاعه واتقاه، ومذل من خالف أمره وعصاه، أحمدُه سبحانه وأشكره، من توكل عليه كفاه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اصطفاه واجتباه، وقربه إليه وأدناه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه.

أما بعد:

أيها الناس: اتقوا الله واعلموا أن الإسلام كما شرع آدابًا للاستئذان من خارج البيوت؛ فقد أوضح آدابًا خاصة أدب بها الصغار الذين لم يبلغوا الحلم في أوقات خاصة في عورات ثلاث: من قبل صلاة الفجر، وفي أثناء الظهر، ومن بعد صلاة العشاء، أوقات يخلو بها المرء في نفسه، أو مع زوجته، يتخفف فيها من كثير من القيود، فللعمل وقته، وللراحة وقتها، فيعطي كل ذي حق حقه.

أيها الإخوة في الله: إن هذه التفاصيل الدقيقة في آداب الاستئذان تؤكد فيما تؤكد حرمة البيوت، ولزوم حفظ أهلها من حرج المفاجآت، وضيق المباغطات، والمحافظة على ستر العورات. عورات كثيرة تعني كل ما لا يرغب الاطلاع عليه من أحوال البدن، وصنوف الطعام واللباس وسائر المتاع، بل حتى عورات المشاعر والحالات النفسية، حالات الخلاف الأسري، حالات البكاء والغضب والتوجع والأين. كل ذلك مما لا يرغب في الاطلاع عليه لا من الغريب ولا من القريب، إنها دقائق يحفظها ويسترها أدب الاستئذان. فهل يدرك هذا أبناء الإسلام؟!

أيها المؤمنون: إن الإسلام دين التكامل والرقى، والأدب والذوق الرفيع، فمن أين لهذا النبي الأمي كل هذه الآداب والشائئ والتوجيهات الراقية؟ إلا من عند الله الذي أدب نبيه فأحسن تأديبه، وأدب هذه الأمة بما جاء في كتابه وسنة نبيه من أخلاق وآداب.

فاتقوا الله ربكم، وامثلوا هدي نبيكم، واعلموا أن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه، وثنى فيه بملائكته المسبحة بقدسه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



آداب المساجد (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله المتفرد بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، القائم على كل النفوس بآجالها، العالم بتقلبها وأحوالها، أحمدته سبحانه وأشكره، نفذت في خلقه مشيئته، ومضت فيهم إرادته، فهم على أقدارهم يمشون، وبما تيسر لهم من الأعمال يعملون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، أكمل به الدين وأظهره على جميع الأديان، صلى الله وسلم وبارك عليه ما تعاقب الجديدان، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله فإن تقواه أفضل مكتسب وطاعته أعلى نسب، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أيها المسلمون: المساجد بيوت الله، بُنيت جُدرها ورفعت قواعدُها على اسمه وحده لا شريك له، يُعبد فيها ويوحَّد، ويعظم فيها ويمجَّد، ويركعُ له فيها ويسجد، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

أذن الله برفعها وعمارها، وأمر ببنائها وصيانتها، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]. بناؤها من أعظم القرب لمن أخلص لله واحتسب، فعن عثمان قال: سمعتُ رسول الله يقول: «مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»^(٢).

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

(٢) رواه البخاري (٤٥٠) ومسلم (٥٣٣).



أَمَرَ الشَّارِعَ بِتَطْهِيرِهَا وَتَنْظِيفِهَا وَتَنْزِيهِهَا وَتَطْيِيبِهَا، فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِنَاءَ الْمَسَاجِدِ فِي الدَّوْرِ يَعْنِي: فِي الْقِبَائِلِ وَأَنْ تُنْظَفَ وَتُطَيَّبَ. (١)

هِيَ أَحَبُّ الْبَقَاعِ وَأَطْهَرُ الْأَصْقَاعِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَسَاجِدُهَا، وَأَبْعَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَأُهَا» (٢).

وَلِعَظِيمِ فَضْلِهَا وَشَرِيفِ مَكَانَتِهَا شُرِعَ لِقَاصِدِهَا مِنَ الْآدَابِ وَالسُّنَنِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَحْسُنُ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ؛ رِعَايَةَ لِحَرَمَتِهَا وَتَذْكِيرًا بِحَقِّهَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يُسْتَحَبُّ لِقَاصِدِ الْمَسْجِدِ أَنْ يَتَجَمَّلَ لصلاته بِمَا يَسْتَطِيعُ مِنْ ثِيَابِهِ وَطْيَبِهِ وَسِوَاكَه، قَالَ جَلَّ فِي عِلَاه: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَلْبَسْ ثَوْبِيهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ مَنْ يُتَزَيَّنُ لَهُ» (٣).

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَصَلِّيَ فِي ثَوْبٍ رَقِيقٍ يَشْفَى عَنْهُ أَوْ ضَيِّقٍ يَكْشِفُ عَنْ عَوْرَتِهِ أَوْ قَصِيرٍ يَنْحَسِرُ عَنْ سَوَاتِهِ، وَتَحْرُمُ صَلَاتُهُ فِي ثَوْبٍ فِيهِ صُورَةٌ أَوْ ثَوْبٍ مَسْبِلٍ، فَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «مَنْ أَسْبَلَ إِزَارَهُ فِي صَلَاتِهِ خِيَلَاءَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ فِي حُلٍّ وَلَا حَرَامٍ» (٤).

وَعَلَى الْمُصَلِّيِّ اجْتِنَابُ الرِّوَاخِ الْكَرِيمَةِ فِي مَلْبَسِهِ وَمَأْكَلِهِ، فَلَا يُؤْذِي إِخْوَانَهُ الْمُصَلِّينَ بِبَخَرِ فَمِهِ وَقَدَرِ أَنْفِهِ وَطَفَسِ رِيقِهِ وَسَهْكِ عِرْقِهِ وَنَتْنِ رَائِحَتِهِ، فَعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكِرَّاتَ فَلَا يَقْرُبَنَّ مَسْجِدَنَا؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ» (٥)، وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّاسُ يَتَنَابُونَ الْجُمُعَةَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ وَمِنْ الْعَوَالِي، فَيَأْتُونَ فِي الْعَبَاءِ، وَيَصِيبُهُمُ الْغُبَارُ، فَتَخْرُجُ مِنْهُمْ الرِّيحُ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ وَهُوَ

(١) صحيح أبي داود (٤٥٥).

(٢) رواه مسلم (٦٧١).

(٣) صحيح الجامع (٦٥٢).

(٤) صحيح أبي داود (٦٣٧).

(٥) رواه مسلم (٥٦٤).



عندي، فقال رسول الله: «لو أنكم تطهّرتُم ليومِكم هذا»^(١). فأكرِم بعبدٍ يأتي بيوتَ الله مُتَطَهَّرًا مُنْتَظَفًا، تفوح رائحته طيبًا وقَطْرًا وتسطع أرجًا ونشرا وتتصوّع عُودًا وعَرَفًا.

ويخرج المسلم إلى المسلم للصلاة بسكينة ووقار، ويقارب خطاه، ويقول ما ورد، ولا يشبّك أصابعه، وإن سمع الإقامة لم يسع إليها، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «إذا سمعتُم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم بالسكينة والوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا»^(٢).

ويستحبّ التكبير والتهجير إليها، فعن أبي هريرة أن رسول الله قال: «لو يعلم الناس ما في النداء والصفِّ الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا»^(٣).

ويقدم رجله اليمنى عند دخول المسجد، ويسلم على النبيّ محمّد، ويقول: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك»، وإذا خرج سلّم على النبيّ وقال: «اللهم افتح لي أبواب فضلك، أو: اللهم أجري من الشيطان الرجيم».

ولا يجلس حتى يصلي تحية المسجد ركعتين، فعن أبي قتادة أن رسول الله قال: «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس»^(٤). ومن دخل يوم الجمعة والإمام يخطب فلا يجلس حتى يصلي ركعتين في أصحّ قول العلماء، يخففهما ويتجوّز فيهما، فعن جابر قال: جاء سليك الغطفاني يوم الجمعة ورسول الله يخطب فجلس، فقال له النبيّ: «يا سليك، قم فاركع ركعتين وتجوّز فيهما»، ثم قال: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين ولتجوّز فيهما»^(٥). ومن دخل يوم الجمعة والمؤذن يؤذن الأذان الثاني فليأدر بصلاة تحية

(١) رواه البخاري (٩٠٢) ومسلم (٨٤٧).

(٢) رواه البخاري (٦٣٦) ومسلم (٦٠٢).

(٣) رواه البخاري (٢٦٨٩) ومسلم (٤٣٧).

(٤) رواه البخاري (٤٤٤) ومسلم (٧١٤).

(٥) رواه مسلم (٨٧٥).



المسجد، ولا ينتظر المؤذن حتى ينتهي؛ لأن ذلك يفضي إلى أن يشرع في تحية المسجد والإمام يخطب والإنصات للخطبة واجب.

وإذا أقيمت الصلاة فيحرم على المصلي أن يشرع في نافلة أو سنة راتبة في أصح قولي العلماء؛ لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله: «إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة»^(١).

ومن اختلاف بعض المصلين على الإمام ومخالفتهم لجماعة المسلمين دخولهم المسجد في صلاة الفجر والإمام يصلي فلا يلتحقون بالجماعة حتى يصلوا سنة الفجر خلف جماعة المسلمين، فلا يجوز لأحد أن يصلي في المسجد شيئاً من النوافل إذا قامت المكتوبة.

ومن فاتته سنة الفجر فيستحب له قضاؤها بعد ارتفاع الشمس قيد رُمح؛ لما روى أبو هريرة أن النبي قال: «من لم يصل ركعتي الفجر فليصلها بعدما تطلع الشمس»^(٢). وإن قضاها بعد صلاة الفجر قبل أن تطلع الشمس جاز؛ لحديث قيس بن عمرو قال: رأى رسول الله رجلاً يصلي بعد صلاة الصبح ركعتين، فقال رسول الله: «صلاة الصبح [ركعتان]»، فقال الرجل: إني لم أكن صليت الركعتين اللتين قبلهما فصلتيهما الآن، فسكت رسول الله^(٣).

أيها المسلمون: المصلون في المسجد كلهم سواء، فمن سبق إلى مكان في المسجد استحققه، ومن أقامه منه بغير حق فهو مغتصب، فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي قال: «لا يقيمَنَّ أحدكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه»^(٤). وليس لأحد أن يتحجر من المسجد شيئاً، فيضع سُجادةً أو بساطاً أو عصاً أو غير ذلك قبل حضوره، أو يوكّل من يحجز له، وليس لشيء مما وضع حرمة، بل يزال ويصلى مكانه. ومن سبق إلى مكان في المسجد ثم فارقه لتجديد وضوء

(١) رواه مسلم (٧١٠).

(٢) صحيح الترمذي (٤٢٣).

(٣) صحيح أبي داود (١٢٦٧).

(٤) رواه مسلم (٢١٧٧).



ونحوه فلا يطلُّ اختصاصه به، وله أن يقيم من قعد فيه، ويجب على القاعد طاعته، فعن أبي هريرة أن رسول الله قال: «من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحقُّ به»^(١).

ولا يصف في طرقات المجلس وأبوابه لئلا يمنع المصلين دخول المسجد، بل يتقدم إلى الصفوف المتقدمة، فعن أنس أن رسول الله قال: «أتموا الصف المتقدم ثم الذي يليه، فما كان من نقص فليكن في الصف المؤخر»^(٢).

وإذا علم المصلي أنه إذا مشى إلى الصف المتقدم فاتته الركعة وإن صلى في الصف المؤخر لم تفته فقد قال العلماء: إن كانت الركعة الأخيرة صلى في الصف المؤخر، وإذا كانت غيرها مشى إلى الصف المتقدم. وقال في الإنصاف: (وقد يقال: يحافظ على الركعة الأولى والأخيرة).

ولا يصلي بين السواري إلا إذا ضاقت المسجد فلا بأس بالصلاة بينها. ويستحب صلاة المصلي إلى ستره ودنؤه منها ولو لم يخش ماراً، وإن أراد أحد المرور بين يديه فله منعه، فإن أبى فله دفعه، فإن أبى فله المبالغة في قهره عن المرور بما لا يفضي إلى الفتنة وفساد الصلاة، فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله: «إذا صلى أحدكم فليصل إلى ستره، وليدن منها، ولا يدع أحدا يمر بينه وبينها، فإذا جاء أحد يمر فليقاتله فإنه شيطان»^(٣).

ويحرم المرور بين يدي المصلي حتى ولو لم يجد المار مساعاً وسبيلاً غيره، إلا للضرورة أو مشقة عظيمة لا يمكن دفعها؛ لما روى أبو جهيم الأنصاري قال: قال رسول الله: «لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيراً له من أن يمر بين يديه»، قال أبو النضر: لا أدري قال: أربعين يوماً أو شهراً أو سنة^(٤).

(١) رواه مسلم (٢١٧٩).

(٢) صحيح أبي داود (٦٧١).

(٣) صحيح الجامع (٦٥١).

(٤) رواه البخاري (٥١٠) ومسلم (٥٠٧).



أيُّها المسلمون: وعلى قاصِد المسجد أن لا يؤذِي إخوانه المصلِّين بتخطِّي رقابهم ومضايقَتهم ومزاحمتهم ومحاوِلَة اقتحام الصفِّ عليهم مع تعذُّر ذلك بسبب الضيق والازدحام الشديد، أو بالتشويش عليهم بالجهر بالقراءة والدعاء، فعن أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسول الله في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف الستر فقال: «ألا إنَّ كلَّكم مناجٍ ربِّه، فلا يؤذِنَ بعضكم بعضًا، ولا يرفع بعضكم على بعضٍ في القراءة» أو قال: «في الصلاة»^(١).

ومن التشويش والإيذاء الذي عمَّ وطَمَّ في مساجد المسلمين وقطَعَ عليهم خشوعهم وسكونهم ما يصدر من أجهزة الجوّال اليوم من المقاطع الغنائية والنغمات الموسيقيّة والأصوات المطرّبة التي آذت المسلمين أيّما إيذاء، فعلى كل مسلم يخشى ربّه ويخاف عقوبته أن لا يدنّس بيوت الله التي بُنيت للذكر والصلاة وقراءة القرآن بهذه النغمات المحرمة والأجراس الشيطانيّة، وعليه أن يسارع في محوِّها والتخلُّص من شرِّها وإثمها.

جعلني الله وإياكم من الهداة المهتدين المتبعين لسنة سيد المرسلين، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كلّ ذنب وخطيئة، فاستغفروه إنه كان للأوابين غفورًا.

(١) صحيح أبي داود (١٣٣٢).



الخطبة الثانية:

الحمد على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشأنه، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمداً عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله وراقبوه، وأطيعوه ولا تعصوه، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أيها المسلمون: ومما تُصان عنه المساجد إنشاد الضالة والبيع والشراء، فعن أبي هريرة أن رسول الله قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا: لا ردَّ الله عليك»^(١).

ويجب أن يُصان المسجد عن الأقوال الرذيلة والأحاديث السيئة واللغو والأصوات المرتفعة، قال سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى: (من جلس في المجلس فإنما يجالس ربه، فما حقه أن يقول إلا خيراً).

والحيض حدث يمنع اللبث في المسجد على الصحيح من قولي العلماء؛ لحديث أم عطية رضي الله عنها أنها سمعت النبي يقول: «ويعتزل الحيض المصلّى»^(٢). ويباح لها العبور للحاجة من أخذ شيء أو تركه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله: «ناوليني الحمرة من المسجد»، فقلت: إني حائض! فقال: «إن حيضتك ليست في يدك»^(٣).

والجنازة حدث يمنع اللبث في المسجد أيضاً، ويباح له العبور لحاجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: ٤٣].

(١) صحيح الترمذي (١٣٢١).

(٢) رواه البخاري (٣٢٤).

(٣) رواه مسلم (٢٩٨).



أيها المسلمون: إنما شرعت الجماعة في المسجد لمقاصد عظيمة، منها التعارف والتآلف والتعاون والتكاتف، فتصافحوا يذهب الغل، وتسامحوا تذهب الشحناء، وخذوا بأيدي بعضكم، وطهروا قلوبكم من الأحقاد والضغائن، واستبدلوا القطيعة والجفاء بالصلة والمحبة والصفاء، وأدوا حقوق بعضكم على بعض، وليعطف غنيكم على فقيركم وقويكم على ضعيفكم، وكونوا عباد الله إخواناً.

وصلّوا وسلّموا على خير البرية وأزكى البشرية، فقد أمركم الله بذلك فقال قولاً كريماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].





آداب السفر (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الملك العلام، والصلاة والسلام على النبي الكريم معلم الناس آداب الإسلام، وعلى آله وأصحابه البررة الكرام، وعلى التابعين وتابعيهم يا ذا الجلال والإكرام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، أما بعد:

فإن الوصية المبذولة لي ولكم -عباد الله- هي تقوى الله سبحانه في سركم وعلنكم، في الغيب والشهادة، في الغضب وفي الرضا: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] الذين تدفعهم تقواهم إلى تقديم مرضاة ربهم على رضاء خلقه وعبيده: ﴿إِنَّ الْعَقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

أيها الناس: لقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالسياحة في الأرض، والنظر والاعتبار في آلائه ودقة صنعه وتدبر آثار الأمم السابقة. فقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. وقال جل وعلا: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وفي السفر فوائد كثيرة جمعها الشافعي في قوله:

تَعَرَّبَ عَنْ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ تَفَرَّجَ هَمٌّ وَاكْتَسَابَ مَعِيشَةٍ
وَسَافَرَ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسَ فَوَائِدَ وَعِلْمٌ وَآدَابٌ وَصَحْبَةٌ مَاجِدٌ
وَتَتَعَدَّدُ أَسْبَابُ سَفَرِ الْمُسْلِمِ؛ فَهُوَ يَسَافِرُ لِلْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، أَوْ لَطَلَبِ الْعِلْمِ، أَوْ لِلسَّعْيِ وَرَاءَ الرِّزْقِ، أَوْ لَزِيَارَةِ قَرِيبٍ أَوْ صَدِيقٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.



والسفر يُسفر عن أخلاق صاحبه، ويكشف عن مكنونها، لذا كان لا بد من الإشارة إلى أهم الآداب التي ينبغي أن يتحلّى بها المسلم في سفره، ومن ذلك:

أولاً: إخلاص النية لله سبحانه وتعالى: ففي الحديث: «إنها الأعمال بالنيات، وإنها لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته على ما هاجر إليه»^(١)

ومما يتعلق بهذا تحري الهدف من السفر وليكن هدفاً مشروعاً، حتى ولو كان ترويحاً مباحاً عن النفس لاستعادة نشاطها دون سرف أو مخيلة، ولتعلم أخي المسلم أن المسافر يجني فوائد عظيمة من إخلاص نيته لله في سفره، ومنها رضا الله عنه وتوفيقه إياه، وتحقيق مبتغاه في سفره، وعودته حميداً.

ثانياً: الاستعداد للسفر مادياً ومعنوياً: فالمادي مثلاً بالنفقة الكافية، والمركب المناسب، والأوراق الثبوتية اللازمة، وما يحتاجه من طعام وشراب، ومن الأمور الهامة ما يتعلق بأمور الدين كأداة تحديد القبلة ومعرفة أوقات الصلاة، وأما المعنوي مثلاً بالعلم بجهة سفره، وما فيها من أخطار فيتجنبها، وما فيها من فرص جيدة ليستفيد منها.

ثالثاً: ومن آداب السفر:

استحباب التوديع للمسافر: يستحب للمسافر أن يودع أهله وقربته وإخوانه، قال ابن عبد البر: (إذا خرج أحدكم في سفر فليودع إخوانه، فإن الله جاعل في دعائهم بركة). والسنة أن يقولهم «استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه»^(٢)، وإن يقولوا له: «أستودع الله دينك، وأمانتك، وخواتيم عملك»^(٣).

رابعاً: ألا يسافر وحده: ففي الحديث عن النبي قال: «لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم، ما سار راكب بليل وحده»^(٤).

(١) رواه البخاري (٥٤) ومسلم (١٩٠٧).

(٢) صحيح ابن ماجه (٢٢٩٥).

(٣) صحيح أبي داود (٢٦٠٠).

(٤) رواه البخاري (٢٩٩٨).



وفيه أيضًا حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب»^(١).

خامسًا: استحباب التأخير في السفر إذا كانوا ثلاثة فأكثر: نادى الشرع بالاجتماع وعدم التفرق، وحث على ذلك ورغب فيه، فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»^(٢).

السادس من آداب السفر:

عدم سفر المرأة بدون محرم: نهى الشرع المطهر عن سفر المرأة بدون محرم، لما قد يترتب عليه من الفتنة لها لومن حولها من الرجال. روى الشيخان وغيرهما أن أبا هريرة قال: قال النبي: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة ليس معها محرم»^(٣)، ولفظ مسلم: «لا يحل لامرأة مسلمة تسافر مسيرة ليلة إلا ومعها رجل ذو حرمة منها».

سابعًا: استحباب السفر يوم الخميس أول النهار: فقد كان من هديه عليه الصلاة والسلام في أسفاره، أنه كان يحب الخروج في يوم الخميس. ومن آداب السفر:

الحرص على كثرة الذكر والأدعية الماثورة: وأتى علي رضي الله تعالى عنه بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله، ثم قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾^(١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿

[الزخرف: ١٣-١٤]، ثم قال: الحمد لله (ثلاثًا)، وقال: الله أكبر (ثلاثًا)، ثم قال: «سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، ثم ضحك، وقال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت^(٤).

(١) حسنه الألباني في صحيح الترمذي (١٦٧٤).

(٢) صحيح أبي داود (٢٦٠٨).

(٣) رواه البخاري (١٠٨٨) ومسلم (١٣٣٩).

(٤) صحيح أبي داود (٢٦٠٢).



ومنها: الدعاء إذا خرج للسفر: روى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى السفر كَبَّرَ (ثلاثاً) ثم قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿[الزخرف: ١٣-١٤].

اللهم نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل. وإذا رجع قالهن وزود: آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون. (١)

ومن أدعية السفر:

دعاء نزول المنزل: قد يحتاج المسافر إلى النزول من مركوبه، للنوم، أو الأكل، أو قضاء الحاجة، والبرية فيها من الهوام والسباع والشياطين ما الله به عليم، فكان من نعمة الله علينا أن شرع لنا على لسان نبينا، دعاءً نقوله يحفظنا - بإذن الله - من شر كل مخلوق، فعن خولة بنت حكيم السلمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: سمعت رسول الله يقول: «من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» (٢).

ومنها: التكبير على المرتفعات والتسبيح عند الهبوط والنزول.

ومنها: دعاء دخول القرية ونحوها: يقول: «اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها» (٣).

كما ينبغي للمسافر أن يغتنم سفره، يدعو لنفسه وآبائه وأهله ومن يحب، وأن يجتهد في ذلك، ويتحرى الدعاء الجامع، مع الإلحاح والخضوع، فللمسافر دعوة مستجابة فلا ينبغي التفريط فيها. روى أبو هريرة أن النبي قال: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم» (٤).

(١) رواه مسلم (١٣٤٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٨).

(٣) صحيحه الوادعي في الصحيح المسند (٥٠٩).

(٤) حسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣١٣٢).



ومن آداب السفر:

صلاة التطوع في السفر: من السنن المہجورة، صلاة المسافر التطوع على مركوبه، فقل من تراه يصلي النافلة أو الوتر في الطائرة أو غيرها من وسائل السفر.

النوم في السفر: قد يضطر المسافر على الطرق البرية إلى النوم للراحة من عناء السفر، ولما كان الشرع المطهر يرشد الناس لما فيه مصلحتهم العاجلة والآجلة؛ كان من جملة ذلك إرشاد المسافر لمكان نومه، حتى لا يؤذى من هوام الأرض ودوابها. فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «إذا سافرت في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرت في السنة فبادروا بها نقيها، وإذا عرستم»^(١) «فاجتنبوا الطريق، فإنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل»^(٢).

ثم إنه ينبغي على المسافر إذا أراد نومًا، أن يتخذ ما في وسعه من الوسائل التي تعينه على الاستيقاظ لصلاة الفجر، وفي زماننا هذا أصبحت تلك الوسائل -ولله الحمد- متيسرة وبأبخص الأثمان.

(١) المعرس: الذي يسير نهاره ويعرس أي ينزل أول الليل، وقيل: التعريس النزول في آخر الليل.

(٢) رواه مسلم (١٩٢٦).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

أيها الناس: ومما يلحق بآداب المسافر:

حسن الخلق ومراعاة حق الرفيق في الطريق والسفر.

فينبغي للمسافر أن يراعي حقوق رفقاءه وجلسائه في مركوبه، ومن ذلك:

- لين الجانب وغيض البصر وخفض الجناح لهم ومساعدتهم فيما قد يحتاجونه مما يقدر عليه، فهذا لها أعظم الأجور.

- إذا ركبوا في سيارة واحدة، أو سكنوا غرفة واحدة فينبغي عدم فتح النافذة أو الباب إلا بعد استئذان المجاورين له.

- الكرم، فمثلاً إذا تناول أحد المسافرين غذاءً أثناء السفر، دعا إليه المجاورين.

- ينبغي على الشاب أن يجعل خير الأمانة للشيخ الكبير والمرضى والنساء.

- مراعاة آداب الذوق العام وعدم إيذاء الآخرين، بالتدخين مثلاً أو رفع الصوت بحديث خاص، وكذا لا يبصق ولا يرمي بفضلات طعامه؛ حفاظاً على مشاعر من معه، وحفاظاً على نظافة المركبات.

ومما ينبغي معرفته من آداب السفر:

استحباب رجوع المسافر لأهله بعد قضاء حاجته وعده الإطالة: يُستحب للمسافر إذا نال مراده من سفره أن يعود سريعاً إلى أهله، ولا يمتكث فوق حاجته. وقد أرشد إلى هذا رسول الله، فعن أبي هريرة عن النبي قال: «السفر قطعة من العذاب: يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه. فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله»^(١).

(١) رواه البخاري (١٨٠٤) ومسلم (١٩٢٧).



ومن الآداب عند عودة المسافر:

كراهية قدوم المسافر على أهله ليلاً: روى مسلم عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «نهى رسول الله أن يطرق الرجل أهله ليلاً»^(١) وعند مسلم: «إذا قدم أحدكم ليلاً فلا يأتين أهله طروقاً حتى تستحد المغيبة، وتمشط الشعثة»، وعنده أيضاً: «نهى رسول الله أن يطرق الرجل أهله ليلاً يتخونهم، أو يلتمس عثراتهم»^(٢).

أخيراً: يستحب لمن عاد من سفر أن يصلي ركعتين في المسجد عند دخوله البلد: فقد كان من هديه ﷺ أنه كان إذا قدم من سفر، فإن أول شيء كان يبادر إليه هو الصلاة في المسجد ركعتين. قال كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن النبي كان إذا قدم من سفر ضحى دخل المسجد فصلى ركعتين قبل أن يجلس»^(٣). وهذه من السنن المهجورة، التي قل من يطبقها، فنسألك اللهم اتباعاً لسنة نبيك ظاهراً وباطناً، وبالله التوفيق.

هذا وصلوا وسلموا.....



(١) رواه البخاري (١٨٠١) ومسلم (٧١٥).

(٢) رواه مسلم (٧١٥).

(٣) رواه البخاري (٣٠٨٨) ومسلم (٧١٦).



آداب اللباس والستر (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الواصل الحمد بالنعم، والنعم بالشكر، نحمده على آلائه، كما نحمده على بلائه، ونستعينه على نفوسنا البُطاء عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ، السَّراع إلى ما نهيت عنه، ونستغفره مما أحاط به علمه وأحصاه كتابه، علمٌ غير قاصر، وكتابٌ غير مغادر، خلق الإنسان وبَصَّرَه بما في الحياة من خير أو شر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق كل شيء فقدره تقديراً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله إلى جميع الثقلين الإنس والجن بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليماً كثيراً.
أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله سبحانه، فإنها دار حصن عزيز، تمنع أهلها، وتحرز من لجأ إليها، وبها تُقَطَّعُ حُمَةُ الخطايا، فهي النجاة غداً، والمنجاة أبداً بفضل الله.
أيها الناس: إن البشر بعامة محكومون بحدودٍ وأعلام، يتقاسمها في الأساس فطرة الله التي فطر الناس عليها، وشرعية من الأمر أُمِرَ الناس باتباعها على هدىً وبصيرة، وهم إِبَّان ذلك قد يضعفون أمام تلك الحدود والمعالم إلى درجة الخُذْلان المنبثق من التهاون واللامبالاة، أو قد يشتدون مع منافع زهرة الحياة الدنيا إلى حد الطغيان: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ﴾ [العلق: ٦-٧] والمؤمن الكيس مطلوب منه التماسك والرباطة على حاله كليهما، إذ أن ترامي الغرائز يمنية ويسرة يتقاذفها ريح الهوى في كل اتجاه، دون أن تخضع مذعنة لحدود الفطرة والشرع، هي لا بد منتهية بأصحابها إلى بلاءٍ عريض، فإن الباري جل وعلا لم يخلق



الغرائز لبني آدم لتكون محلاً للسطو أو الختل أو التلفظ بأعراض الآخرين، ولا خلقها ليتعبد بعض الناس بقتلها والعبث بها دونها سياج وحماية يحكمان محالها.

المرء الإنسي في هذه الحياة تتبدى له عورتان اثنتان، يتجاذب الاهتمام بسترهما والحرص على مواراتهما: عورة حسية وعورة معنوية، ومن هذا المنطلق حرص الإنسان السوي على أن يوارى عورتَيْه وسوءَيْه أشد المواراة، عورته الجسدية وعورته النفسية أو المعنوية.

وأصل البشرية أبوان كريمان، ابتداءً الامتحان بالعورات بهما، وأين هذا الامتحان؟ إنه في جنة الخلد: ﴿وَمُلْكٌ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]، ﴿فَوَسَّوْا لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠].

لقد حرص الشيطان على أن يقضي ابتداءً على عنق الزجاجة ومكمن الحياء، وهو الستر: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفَفَا يَخِصِّفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١] يخصفان عليها خجلاً من تعريهما، إذ لا يتعري ويتكشف إلا من فقد فطرته! ويا لله.. لقد نسي آدم فَنَسِيَتْ ذُرِيَّتَهُ.

أيها المسلمون: إن الستر فطرة تجعل المجبول عليها لا يأذن للعوادي أن تكشفه كائنة ما كانت، ولو اضطر يوماً ما على أن يُبدي سوائه الجسدية لِضُرِّ الْمَبْهُ، فسيكون ذلك على استحياء وخجلٍ شديدين أمام طيبٍ أو نحوه، الضرورة كامنة وراء استسلامه بذلك، وقولوا مثل ذلك في العورة القلبية وما يكون من أحوال مشينة تصدر من نفس المرء ويخشى أن يطلع عليها غيره، على حد قول النبي ﷺ: «والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(١).

وجماع الأمر في العورتين -عباد الله- هو قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِدْشًا وَلِبَاسُ الثَّقَوِيَّ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

لقد امتن الله جل وعلا على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش الذي يوارون به سوءاتهم.

فباللباس تستر العورات عن أعين بني آدم.

(١) رواه مسلم (٢٥٥٣).



باللباس يُكْبَحُ جماح الشهوة الطاغية، وَيُكَفَّكُ اللحظ ومُداة البصر عن أن ينطلق إلى ما لا يُرضي الله.

باللباس -أيها الناس- تستر المرأة أنوثتها، وتحفظ كيائها عن أن تكون عِلْكَاً ملتصقاً بأحذية لصوص المرأة وأيدي العابثين، حتى تصبح جوهرة في صدف لا ينظر إليها إلا الخواص وهم الأزواج.

باللباس والستر يقدم المرء رجلاً أو يؤخرها إذا ما امتدت نفسه إلى خطبة امرأة بحلال. باللباس -أيها المسلمون- يُعرف الذكور والإناث عن مدى احتشامهم واستقامتهم وحبهم للستر مظهرًا ومخبرًا، وبه تُعرف الأسر المصونة من غيرها. باللباس والستر قد يُحمى ركنٌ أساس مما أجمع عليه الأنبياء والرسل قاطبة، وهو حماية العرض والنسب من مواهبها.

ثم إنه بالريش والرياش يتجمل الإنسان ظاهرًا، إذ لباسه من الضروريات الجسدية، والريش والرياش من التحسينيات والزيادات التي يتمتع بها المرء وفق ما شرعه الله له دونما إسراف على حد قوله ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مَحِيلَةٍ ولا سَرَفٍ، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده»^(١).

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنها: «كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سَرَفٌ ومَحِيلَةٌ».

ولا غرو -أيها المسلمون- في مقابل نعمة اللباس والامتنان بها أن يشرع الحمد من قبل المرء على ما يكسو به معييه، ويواري به سوءاته، فلقد صح عند أحمد وغيره: أن النبي ﷺ كان يقول عند الكسوة: «الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأواري به عورتي»^(٢).

(١) حسنه الألباني في صحيح النسائي (٢٥٥٨).

(٢) السلسلة الضعيفة (٦٢٦٣).



والأمر -عباد الله- ليس حكرًا على ستر العورة الحسية الجسدية فحسب، بل إن لباس التقوى وستر التقوى خير ما يتجمل به المرء؛ إذ ما عسى ستر البدن أن ينفع إذا كان القلب عاريًا؟!

«استيقظ رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال: الله أكبر! كم فُتح من الخزائن اليوم؟! أيقظوا صَوْنِيَّاتِ الْحَجَرِ، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

أيها المسلمون: الفِطْرُ السليمة والأنفس السوية تجفل بطبعها من ظهور السوأيتين، وتحرص أشد الحرص على مواراتهما، والذين يحاولون في تبعيتهن النكوص عن هذه الحقيقة على علم أو جهل بما يطلقون من دعوات هنا وهناك عبر ألسنتهم وأقلامهم ومقدراتهم لتأصيل هذه المعرة، هم الذين يريدون سلب خصائص فطرة الإنسان، وهم الذين ينفذون بالحرف الواحد المآرب الصهيونية الرهيبة عبر مقرراتهم المرقومة؛ لإشاعة الانحلال بين بني الإسلام.

وإن تعجبوا -عباد الله- فعجب أن اليهود هم أول من شنَّ الحرب على نزع الستر وإظهار السوأة منذ أن تأمر رجلاَن منهم في سوق بني قينقاع على نزع حجاب امرأة وكشف سوأتها، حينما كانت جالسة في السوق، فربطوا خمارها بطرف ثوبها، فلما قامت واقفة بدت سوأتها للناس، فاستغاثت بمن حولها، ثم توالى بعد ذلك أحداث شبيهة..

كما ذكر ابن الأثير في كامله عن شاين من قريش رأوا امرأة من بني عامر في سوق عكاظ، وسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت، فامتنها أحدهم، فاستغاثت بقومها حتى كان ذلك سببًا في اليوم الثاني من أيام حروب الفجار المشهورة.

العري -أيها المسلمون- سمة حيوانية بهيمية، ولا يميل إليه إلا من هو أدنى من الإنسان، ومتى رُوي العُري والتعري جمالًا وذوقًا وتقدمًا ومسايرةً لركب الغافلين فقولوا على الفطرة: السلام، ولتبدأ الأذان صاغية في سماع ما يُبكي ويُحزن من مآسي الفتن، والتنويع في



الانسلاخ، والتجرد عن قيم الإسلام، ناهيكم عن سوء العواقب الموحزة، وحينئذٍ واقعون ولا محالة فيما حذرنا منه الباري بقوله: ﴿يَنْبَغِيْءَادَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ نِيَّتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

عباد الله: إن لنا في كل يوم أجناساً من الذكور والإناث تنمو غضة رقيقة، لا يتعهدها أحدٌ بسقي ولا رعاية، حتى تصيبها الجائحة فتجف وتذبل، كما أن عواقب التغريب والاستسلاخ والاستنساخ وأرزائها تحطم أعراقاً متينة من الستر والحشمة طالما أظلت وسقت حتى اجتثت، فلا بواقي لها.

لقد صعدت أجيال تنكرت لماضيها وأعرافها التي أصلتها وحكمتها شريعة الإسلام. أقحم أناس أنفسهم في الميدان، وجعلوا التحسين والتقبيح خاضعاً لممارسات الحضارة الغربية وطيشها، تبدل الوزان وبقي الميزان مختلاً وقطبه مائلاً، وصناجه ضائعة، حتى إن أحدنا ليجد بين الأم وبناتها، أو بين الأب وابنه في صورة اللباس وما يُشاكله من البون الشاسع ما يُعادل قرناً كاملاً من الزمان.

ألا ما أكثر الأحياء فينا وهم قتلى؟! ذكور وإناث يلبسون لباساً لم يُفصل لهم، ولم يُقس عليهم، وإنما خيَطَ لغيرهم، فأخذوه بلا إصلاح، ومشوا به فرحين كما يمشي الطفل بحُلة أبيه، يتعثر بها، فيسقط سقطات يكون بها محلاً للضحك والتندر.

إن الخلل الذي تعيشه جملة من الشعوب الإسلامية في قضية اللباس والستر، إنما كان منشأه من ممارسات خاطئة في كيفية التعامل مع الحضارة المدنية في كافة شؤونها الحياتية، وفي المفاهيم المغلوطة لمعاني التقدم الحية، مما علق مواهبهم وقدراتهم عن تسخيرها باقتدار، حتى التحقوا بالركب المتقدم عن طريق التشبه به، والاقتراس منه، وعذرهم في ذلك أنهم يريدون النهوض بأنفسهم وأمتهم من وهدة النمو إلى مصافي الأمم المتحضرة، ولم يعد للشرع ولا للفطرة في بعض الأفئدة إلا النسبة الأساس.

وإذا رأيت ثوب المفتون بهم يستر بعض العورة فاعلم أنه صورة لما عندهم من الأنموذج الجديد.



إن الإصابة بحمى اللباس ليست على درجة واحدة بين المسلمين، إذ منهم من شمل السفور والحسور والتشبه، نساءه ورجاله، أو الكثرة منهم، ومنهم من ظهر فيهم واستعلن، وإن لم يعم ويشمل، ومنهم من بدأ يقرع أبوابهم ويضع إحدى قدميه، إن لم تكن وُضِعَتَا كِلْتَاهُمَا.

حدثوا -أيها المسلمون- ولا حرج! عن انهالك (المجوع) بما يسمى على لغة العصر: الموضة؛ حيث يتلاعب مصممو اللباس بنفسيات الجنسين في جذب أنظارهم تجاه كل لباس مستحدث، مهما كان انسلاخه من معاني الرجولة، أو سمات الأنوثة العفيفة المصونة، استنزاف للأموال، واستخفاف بالرعاع، ونشر للفاحشة كيفما نشر، بعرض المفاتن، وسبل الإغراء، حتى أصبحت الموضة متكأة للإثراء ووآد العفاف لدى كثير من الشعوب.

والزمن كفيل في أن يثير جمهور اللاهثين في قبول الإحداث المتجدد المتراوح بين انتشار ما يلبس دون الركبة أو فوقها، أو ما يُفتح من الجانبيين لبيد ما يتمنى المرء المسلم معه الموت ولا أن يرى يوماً ما شيئاً من ذلك في محارمه أو أقاربه، ولا أن يكون ضحية لمشاهدة ما يستفز العيون من محاجرها، مشرّبة لتتقد كوامن الشهوة كالنار المتأججة في الصدر، والتي يُترجم عوارها عبر جوارح المغفلين.

إنه التفنن في إذابة الأعراف وإغراء الشعوب بما يُبعدهم عن ربهم وخالقهم، التفنن في تعويد المرأة على أن تبدو سافرة، ولن تستطيع صعود درجة إلا بكشف ساقها، والمتحجبة منهن ربما تفننت في تقشير الحجاب وإحالتها إلى وضع أشد فتنة من ثوبها وصورة وجهها، ولطالما فتنت بعض العباءات السود ألباب الرجال؛ فكم من عباءة هي في الحقيقة أشد ما تكون إلى عباءة أخرى تسترها؟!

وأما الشباب فحدثوا ولا حرج عن تمللهم بلباسهم الرجولي، وغدوا في إشفاق مشين بلباس أهل الفن والمجون، حتى لقد أصبح المرء الغيور يرى من أحوالهم ما يحترق به بصره مرة تلو الأخرى... أهكذا زي شباب المسلمين؟!

إن أحدنا ليضع كفه على ذقنه ويقرع سنه حيرةً، يُسائل نفسه: لم، ومم؟ ولأي شيء يستنكف الناس لنداءات الفطرة، وحدود شرعة الله ومنهاجه؟!



إن مردّ ذلك كله إلى إفساد البنت والشاب؛ إذ معظم ممتنهي دور التصاميم والأزياء هم من اليهود في عواصم الغرب، فهم بيوت الألبسة ومصمموها، وهم أساتذة التجميل ودكاكينه.

بل لم يكتفِ أولئك بعقلاء الجنسين حتى امتدت مآربهم إلى مَنْ هم قبل سن التكليف من صبيان وبنات، فأشربوا من خلال ملابس الأطفال المنتشرة في المعمورة، والتي لا تمت للحشمة بصلة، أشكال وألوان.. من الضيق تارة، ومن العاري أخرى، ومن القصير الفاضح كرات وتارات! هي ملاءى بالصور أو بالعبارات الرقيقة، قد لا يفهم جُلّ اللابسين المراد منها، ولا تسألوا بعد ذلك عن حال الطفل أو الطفلة بعد الكبر، إن كُلاً منهما لم يُعوّد يوماً ما على الستر الشرعي.

إن الأب والأم إن كُتِبَ لهما الوعي والحرص بعد ذلك على سترهما سيجدان المראה والعي في الإقناع به، وللأبوين نقول:

وعند سؤال المكابرين منهم يقولون: ماذا نفعل؟! هكذا يلبس الناس، وهكذا يريد الناس، ولَعَمْرُ الله -أيها المسلمون- كم يجلس الغيور الصادق يبحث جاهداً لأطفاله، متسوقاً في كل مجمع، يعز عليه أن يجد المكسي من الثياب، ويعيه طلابه، فالله المستعان!

إن هذه المفاهيم والأخطار المدلّمة ينبغي ألا يُفهم إنكار المصلحين لها على أنهم يريدون بها التحجيم أو الإبقاء على القديم من كل وجه؛ بحيث يظن البعض أن المراد هو الإلزام بكل ما كانت تلبسه أمهاتنا ومَن وَلَدَتْهُم، أو آباؤنا ومَن وَلَدُوهُمْ، كلا.

إن الشرع لم يلزم بذلك، وإنما منع من كشف العورات، ومن لبس ما يخدش الحياء أو يبرز المفاتن، وترك لنا في الجملة اختيار الزي الذي يلائمنا ويسترنا مهما تجددت صورته؛ ولكن علينا ألا نرى الستر عيباً والعفاف عاراً، وحسبنا تذكيراً براءوس غيرنا، ونظراً بعيون عدونا المترمة.

وقد سأل رجل ابن عمر: ماذا ألبس من الثياب؟ فقال: «ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك به الحكماء».



فاتقوا الله معاشر المسلمين! والحذار.. الحذار من الوقوع في فتنة اللباس، والخروج به عن مقصوده ومبتغاه، ولا يغوينكم الشيطان بزخرف من القول والعمل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن والسنة، ونفعني وإياكم بما فيها من الآيات والذكر والحكمة، أقول ما سمعتم، إن صواباً فمن الله، وإن خطأً فمن نفسي والشيطان؛ وأستغفر الله.



الخطبة الثانية:

الحمد لله باري البريات وعالم الخفيات، المطلع على الضمائر والنيات، أحمدته سبحانه وأشكره، أحاط بكل شيء علماً، ووسع كل شيء رحمة وحناناً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وكل شيء عنده بمقدار، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، خاتم الأنبياء، وأكرم من مشى تحت أديم السماء.

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد نبي الرحمة، وعلى آله وأصحابه خير صحب وآل من خير أمة، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تجددت نعمة بعد نعمة.

أما بعد:

فاتقوا الله -أيها المسلمون- واعلموا أن للباس والزينة شأنًا عظيمًا في ملة الإسلام، وما جاء في ذلك من الكتاب والسنة ليحل محلًا كبيرًا في الأسفار والتصاميم، فقد عقد أهل العلم في كتبهم أبوابًا وفصولًا مستقلة تخص اللباس وحده، ومن خلال الاستقراء والتتبع وجد أن الأسباب الداعية إلى تحريم بعض الألبسة لا تخرج عن واحد مما سيأتي:

فمن ذلك: التحريم بسبب ما يُفضي إليه من فتنة:

كظهور عورة المرأة، أو تجسيد جسمها وتقسيمه، أو إظهار ما هي مأمورة بستره، عملاً بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ الرِّجَالِ وَأَنَّهُمْ قَالُوا لَوْلَا رِجَالُ النَّبِيِّ لَقَدْ كُنَّا فَاسِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، قال ابن كثير رحمه الله: (الجلباب هو: الرداء فوق الخمار).

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن حاجة أن يغطين وجوههن فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدن عينا واحدة».

فيا لله.. ماذا أبقت المرأة من جمالها حينئذ؟! إنها بمثل هذا ربما سترت القبيح، وأبرزت الحسن، والشارع الحكيم أذن لها بإبراز إحدى العينين لترى بها الطريق، لا أن يراها أهل الطريق.



وسبب آخر من أسباب التحريم، وهو: ما يكون لأجل الشهرة والتباهي والخيلاء: لقوله ﷺ: «من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة»^(١).

وكذا إسبال الثياب وجرها أسفل الكعبين سواء أكان ذلك خيلاء أو لم يكن، ولا ينبغي أن يُفَرَّق بين من يُسَبِّل لأجل الخيلاء ومن يسبل بلا خيلاء، والجواب الصحيح في ذلك: هو أن ما أسفل الكعبين إذا لم يكن خيلاء فهو في النار، وأما إذا كان خيلاء فإن العذاب يكون أشد؛ لقوله ﷺ: «من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»^(٢)، وفي رواية: «ما أسفل الكعبين ففي النار»^(٣) هذا في حق الرجل، وأما في حق المرأة فإنها تسبل ثوبها حتى يغطي قدميها؛ لأن القدمين عورة بالنسبة لها.

وسبب ثالث من أسباب التحريم، وهو: التشبه:

كتشبه النساء بالرجال، والرجال بالنساء في اللباس، أو التشبه بالأعاجم وأهل الكفر في زيهم، يقول عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما: «رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين مُعْطَرَّين، فقال: إن هذه ثياب الكفار، فلا تلبسها»^(٤).

وفي الصحيحين: أن عمر رضي الله تعالى عنه كتب لولّاته: «وإياكم والتنعم، وزى أهل الشرك، ولبوس الحرير»^(٥).

ومما قاله الفقهاء: يحرم من اللباس ما خالف زي العرب، وأشبه زي الأعاجم وعاداتهم. وما أحسن ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ مَبِيناً لهذه القاعدة العظيمة فيقول: إن المشاركة في الهدى الظاهر تُؤَلِّفُ تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين، يقود إلى موافقة في الأخلاق والأعمال، فلا لبس ثياب أهل العلم -مثلاً- يجد في نفسه نوع انضمام إليهم... وهكذا بالنسبة

(١) صحَّحه الألباني في غاية المرام (٩١).

(٢) رواه البخاري (٣٦٦٥) ومسلم (٢٠٨٥).

(٣) رواه البخاري (٥٧٨٧).

(٤) رواه مسلم (٢٠٧٧).

(٥) رواه البخاري (٥٨٢٨) ومسلم (٢٠٦٩).



لثياب الجند المقاتلة، وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم، حتى يؤول الأمر إلى ألا يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط.

وقولوا مثل ذلك -عباد الله- في مشابهة الفسقة من مغنين وفنانين من أهل الكفر وغيرهم من رواد المجون والفجور.

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واعلموا أن الواجب والمسئولية على كل عاتق نصيبه منها، من ولاية وعلماء ودعاة وأولياء أمور، كما أن على التجار مسئولية عظمى تجاه ذلك؛ إذ عليهم أن يوجدوا البديل المباح، وأن يكفوا عن بيع ما يחדش الحياء، أو يكشف العورات، وليعلموا أن عليهم إثم ما يبيعونه من ذلك، وليحذروا الوقوع عن أن يكونوا بفعلهم هذا ممن يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وأنهم مسئولون عن أموالهم من أين اكتسبوها وفيما أنفقوها؟ اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.





حقوق الطريق وآدابه (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله تفرد بكل كمال، تفضل على عباده بجزيل النوال، بيده الخير؛ ومنه الخير فله الحمد على كل حال، وفي كل حال، في الحال وفي المآل، أحمده سبحانه على ما منح من النعماء، وأشكره على واسع العطاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تقدر في الذات والصفات والأسماء، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله سيد المرسلين، وخاتم الأنبياء، وإمام الحنفاء، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الأوفياء، وأصحابه النجباء، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما دامت الأرض والسماء.

فاتقوا الله أيها الناس وعظمووا أمره، واشكروا نعمه. وأعظم هذه النعم وأجلها.. الهداية لهذا الدين ﴿بَلِ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

أيها الإخوة في الله: إن شرائع الإسلام استوعبت شتى جوانب الحياة وشؤونها. وانتظمت كل ما يعرض للمرء من مهده إلى لحدّه.

إن الدين الذي يبني أمة ذات رسالة لتبقى قائمة رائدة.. صالحة لكل زمان ومكان إن ديناً هذا شأنه لا يدع مجالاً في السلوك العام، أو السلوك الخاص، إلا وجاء فيه بأمر السداد. ومن هنا فلا غرو أن تدخل توجيهات الإسلام وأحكام الشريعة في تنظيم المجتمع، في دقيقه وجليله، في أفراد وجموعه، وفي شأنه كله. ولا تزال مدونات أهل الإسلام في الفقه والأخلاق مشحونة بالحكم والأحكام في فكر أصيل، ونظر عميق، واستبحار في فهم الحياة، وشؤون الإنسان، وسياسة المجتمع، مع نماذج حية وسير فذة، وتطبيقات جليلة طوال تاريخ الأمة المجيد.



وإن مما يظهر فيه شمول هذا الدين، وجلاء حكمه وأحكامه، ما أوضحه الكتاب والسنة وآثار الأئمة.. من آداب الطريق، ومجالس الأسواق، وحقوق المارة، وآداب الجماعة. جاء في محكم التنزيل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغَى الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وفي السنة المطهرة من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿وَلَا تَقُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٦-٣٨] عن النبي ﷺ قال: «إياكم والجلوس في الطرقات» قالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، قال رسول الله ﷺ: «فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه» قالوا: وما حقه؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر» (١).

وفي حديث أخرجه الترمذي وغيره عَدَّ النبي ﷺ من أبواب الخير: «تسّمك في وجه أخيك لك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك الرجل الرديء البصر لك صدقة، وإمادتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة» (٢).

إن مصادر الشريعة الموثوقة قد طفحت بأمثال هذه النصوص مؤكدة هذه الحقوق، ومرشدة إلى هذه الآداب.

فعباد الرحمن: هم خلاصة البشر يمشون في الطريق هونًا، لا تصنع ولا تكلف، ولا كبير ولا خيلاء، مشية تعبر عن شخصية متزنة، ونفس سوية مطمئنة تظهر صفاتها في مشية صاحبها. وقارٌ وسكينة، وجدٌ وقوةٌ من غير تماوتٍ أو مذلة، تأسيًا بالقدوة الأولى محمد ﷺ فهو غير صحّابٍ في الأسواق حين يمشي يتكفأ تكفؤًا، أسرع الناس مشية وأحسنها

(١) رواه البخاري (٦٢٢٩) ومسلم (٢١٢١).

(٢) صحيح الترمذي (١٩٥٦).



وأسكنها، هكذا وصفه الواصفون، تلك هي مشيئة أولي العزم والهمة والشجاعة، يمضي إلى قصده في انطلاق واستقامة لا يُصعر خده استكبارًا، ولا يمشي في الأرض مرحًا. لا خفق بالنعال، ولا ضرب بالأقدام، لا يقصد إلى مزاحمة، ولا سوء أدب في المازحة، يحترم نفسه في أدب جمٍّ، وخلق عالٍ لا يسير سير الجبارين، ولا يضطرب في خفة الجاهلين. إنه المشي الهون المناسب للرحمة في عباد الرحمن، وحين يكون السير مع الرفاق فلا يتقدم من أجل أن يسير الناس خلفه، ولا يركب ليمشي غيره راجلاً.

أما غض الصوت وخفضه فهو من سيما أصحاب الخلق الرفيع، وذلك في الطريق، وأدب الحديث أولى وأحرى. إنه عنوان الثقة بالنفس، وصدق الحديث، وقوة الحجة يصاحب ذلك حلم وصفح، وإعراض عن البذاء من القول، والفحش من الحديث تجنبًا لحماقة الحمقى، وسفاهة السفهاء.

ولا يرفع صوته من غير حاجة إلا سيء الأدب ضعيف الحجة، يريد إخفاء رعونته بالحدة من الصوت، والغليظ من القول.

يُضْمُّ إلى ذلك أيها الإخوة، غض البصر، فذلك حق لأهل الطريق من المارة والجالسين.. تحفظ حرمتهم وعوراتهم، فالنظر بريد الخطايا، وإنك لترى في الطرقات والأسواق من يُرسل بصره محملاً ببواعث الفتنة، ودواعي الشهوة، وقد يتبع ذلك بكلمات وإشارات قاتلة للدين والحياء مسقطة للمروءة والعفاف.

وكف الأذى عن الطريق من أبرز الحقوق. والأذى كلمة جامعة لكل ما يؤذي المسلمين من قول وعمل، يقول عليه الصلاة والسلام: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس»^(١).

وحينما طلب أبو برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من رسول الله ﷺ أن يعلمه شيئاً ينتفع به قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»^(٢).

(١) رواه مسلم (١٩١٤).

(٢) رواه مسلم (٢٦١٨).



وفي خبر آخر: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخّره، فشكر الله له؛ فغفر له»^(١).

وإذا كان هذا الثواب العظيم لمن يكف الأذى، فكيف تكون العقوبة لمن يتعمد إيذاء الناس في طرقاتهم ومجالسهم، ويجلب المستقذرات، وينشر المخلفات في متزهاتهم، وأماكن استغلالهم. أخرج الطبراني من حديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «من أذى المسلمين في طرقهم؛ وجبت عليه لعنتهم»^(٢).

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: «اتقوا اللعّانين» قالوا: وما اللعّانان يا رسول الله؟ قال: «الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلّهم»^(٣).

أما إفشاء السلام - أيها الإخوة - ابتداءً وردّاً؛ فأدب كريم يتخلق به أبناء الإسلام، وحقّ يحفظونه لإخوانهم، يغرس المحبة، ويزرع الألفة، ويغسل الأحقاد، ويزيل الإحن، ويستجلب به رضا الله وغفرانه، وفي الحديث: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(٤).

والجامع لهذه الآداب والحقوق - أيها المسلمون - هي تلك الكلمة الجامعة المانعة: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) يدخل في ذلك ما شئت من مكارم الأخلاق والآداب والمروءات.

فالحمل الثقيل ينوء به صاحبه فتعينه عليه.

تهدي ابن السبيل الضال بعبارة ملؤها الأدب، وإشارة كلها لطف ورقة من غير فظاظة ولا ملال، لا تقول هجراً ولا تنطق فحشاً، والبشاشة والتبسم في وجه أخيك من الصدقات. تعين صاحب المتاع في حمل متاعه ورفع ووضعه، وإن كنت تحمل شيئاً فاحترس أن تصيب أحداً بأذى. تفصّ النزاع بين المتخاصمين، وتصلح ذات البين، وتحفظ اللقطة، وتدبّل

(١) رواه البخاري (٦٥٢) ومسلم (١٩١٤).

(٢) حسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٩٤).

(٣) رواه مسلم (٢٦٩).

(٤) رواه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة.



على الضالة تعين على رد الحقوق لأصحابها، والذب عن أعراض المسلمين، والأخذ على أيدي الظالمين، ونصرة المظلومين.

لا تعرض لأحد بمكروه، ولا تذكر أحداً بسوء، لا تهزأ بالمارة، ولا تسخر من العابرين.. لا تشر بينان، لا تستطل بلسان، ولا تحتقر صغيراً، ولا تهزأ من ذي عاهة. وإياك والجلوس في مضايق الطريق وملتقى الأبواب ومواطن الزحام، ويتأكد ذلك أثناء قيادة المركبات بأنواعها مع حفظ تام لحقوق المشاة والراكبين والقاعدين، وإهمال ذلك يصيب المسلمين بفساد عريض.

أمة الأدب والخلق: إن من الناس من يتخذون من الطرق وأماكن البيع.. مقاعد وأندية ينشرون الأرائك والفرش ليتبعوا العورات، ويمزقوا الأعراض، ويخرجوا أهل الأدب والمروءة، فضوليون يدسون أنوفهم فيما لا يعينهم.

يتناولون السابلة غمزاً بالأبصار، وطعنًا باللسان: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ نَبِيمٍ﴾ (١١) مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ [القلم: ١١-١٣].

إنه لا يحل لهؤلاء أن يجعلوا أماكنهم أوكاراً تمتد منها النظرات المحرمة، وطريقاً إلى الرذيلة والمقابلات المريبة. وإن أمثال هذه المجالس يترفع الفضلاء وذوو المروءات عن المرور بها، فضلاً عن الجلوس فيها، تلك أسواق لا يرتادها إلا الأراذل من الناس، الذين لا يتحرجون من البذاء ولا يعرفون الاحتشام.

أيها المسلمون: إن من لم يعط الطريق حقه يُتبع نفسه هواها، ويريد أن يملأ عينه بمنهاها، فيذل بعد عز، ويفسق بعد عفة، وينحدر بعد الكمال. إن هذه المواطن إن لم تُرَع فيها آداب الإسلام؛ فهي مرتع خصيب للغيبة والنميمة والسخرية والكذب والإفك المبين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧) وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٧-١٩].

الخطبة الثانية:

الحمد لله على ما مَنَحَ من الإنعام وأسدى. أحمدُه سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره من خطايا وذنوب لا تحصى عدًّا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله أعظم به رسولًا وأكرم به عبدًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه كانوا أمثل طريقة وأقوم وأهدى، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها المسلمون: إن الإسلام العظيم علّم المسلم أن يكون عنصرًا فاعلًا في مجتمعه، إيجابيًا نحو الخير لإخوانه المسلمين، نافعًا لنفسه ومُعَدًّا نفعه للآخرين، يحب الخير للناس كما يحبه لنفسه، إلغًا مألوفًا، ودودًا رحيماً، إذا سمع بالخير بادر إلى امتثاله والتشجيع عليه، وإذا سمع بالشر بادر إلى الكف عنه واجتنابه، والتحذير منه، فهو مبارك أينما كان، كالشجرة المثمرة، في أي مكان غرست أثمرت وأينعت وانتشر خيرها، فإن لم يكن المسلم كذلك -ولا إخاله- فلا أقل من أن يكف أذاه عن الآخرين، أيًا كان مصدر هذا الإيذاء، سواء كان سمعه أو بصره، أو لسانه، أو يده، أو غيرها.

وقد جمع محدث زمانه، وحافظ عصره، الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، بعض هذه حقوق الطريق وآدابه من أحاديث النبي ﷺ، ونظمها بقوله:

جمعْتُ آداب من رام الجلوس على	الطريق من قول خير الخلق إنسانًا
أفش السلام وأحسن في الكلام	وشمّت عاطسًا وسلامًا رد إحسانًا
في الحملِ عاون ومظلومًا أعنْ	وأغث لهفانَ اهد سبيلًا واهد حيرانًا
بالعرفِ مُر وأنه عن نُكْرٍ وكُفّ	أذى وغُصّ طرفًا وأكثر ذكر مولانا



فلتكن لنا مع هذه الحقوق وقفات تأمل ومحاسبة، فمن وجد خيرًا فليحمد الله تعالى، وليسأله الثبات على الخير، ومن وجد تقصيرًا فليرجع على نفسه باللوم، وليعزم على تدارك حاله.

ثم اعلّموا - عباد الله - أن من أولى الآداب وأكرم الأعمال الاشتغال بذكر الله كثيرًا. ففيه الانبعاث على الخيرات، والعون على الطاعات، والقيام بالحقوق، وحفظ النفس من الشيطان.

جاء في حديث عند الترمذي وصححه واللفظ له، وأبي داود وغيره عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال يعني: إذا خرج من بيته بسم الله، توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: كُفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان»^(١). ولا ينبغي أن يغفل المسلم عن الدعاء المأثور عند خروجه من منزله: «اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضَل، أو أزل أو أُزَل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يجهل علي»^(٢).

والمرأة إن احتاجت إلى الخروج، فتخرج محتشمةً في لباسها، حييةً في مشيتها، بعيدةً عن حركات الريبة، ومواضع التهم، غير متعطرة ولا متلفطة، سريعة العودة إلى منزلها، بعد انقضاء حاجتها ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

فاتقوا الله أيها المسلمون والمسلمات والتزموا بآداب دينكم، واحفظوا حقوق إخوانكم.



(١) صحيح الترمذي (٢٧٢٤)..

(٢) رواه الأربعة وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٢٥).



آداب النوم والاستيقاظ^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله خلق الخلائق وقدر أقواتها، وقدم أرزاقها، وحدد أجالها، فلن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، أبان الطريق، وأوضح السبيل، فاستبانت نفوس الحق، وأجابت دعوة ربها، وضلت أخرى فأثرت هواها على هداها، فاستسلمت لشهواتها.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة الحق واليقين، إيمانًا بحقيقتها وعملاً بمقتضاها، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، المبعوث بالهدى ودين الحق، باتباعه تبلغ النفوس منها في آخرتها ودنياها، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، خير الأمة وأزكاها وأبرها وأتقاها، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يُثيب إلا عليها؛ فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى، واعلموا أنكم غداً مُحَاسِبُونَ، وبأعمالكم مجزيُّون، وأن أجسادكم لا تصبر على حرِّ النار ولا تقوى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].



أيها المسلمون: لم يترك النبي ﷺ خيراً إلا دلّنا عليه، ولا باباً للجنة إلا عرّفنا طريقه، ولا سبباً للسعادة والهناء إلا أرشدنا له وحثنا عليه، وفي ذات الوقت ربّنا على لزوم السنن، وعلمنا الآداب، وأرادنا أن نكون على مُراد الله في كل الأحوال؛ في منامنا ويقظتنا، في محراب التعبّد أو في ميدان السعي للدنيا، أن يكون حالنا ومُنقلبنا لله، ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وهذه هي غاية العبودية، والعبودية هي الغاية.

أيها المسلمون:

لا يخلو الإنسان أن يكون في حال يقظة أو حال نوم، يتقلّب بينهما كما يتقلّب الليل والنهار، والنوم حالٌ عجيبٌ من أحوال الإنسان، وآيةٌ من آيات الله العظام، ﴿وَمَنْ عَائِنَهُ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاءُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣].

ويُشكّل النوم جزءاً كبيراً من اهتمام الناس، فيتخذون له الفرش والأثاث، ويتهيّؤون له بالوسائل والأحوال، ويتحكّم في أوقاتهم ومعاشهم، وإذا اختلفت بزيادة أو نقص أثر على صحة الإنسان بدنياً ونفسياً، وبذلّ للعلاج الكثير من الأموال، والإنسان يُمضي ثلث حياته في النوم.

ومن هنا جاءت الآداب النبوية والسنن المحمدية بالإرشاد والتوجيه، حتى يكون منامنا طاعة ونومنا عبادة، والتزام هذه السنن سببٌ للأجر، ومُعِينٌ على القيام لصلاة الفجر، والنشاط في سائر اليوم، والبُعد عن الوسوس والأحلام المزعجة، والأمراض النفسية.

وهذه السنن والآداب - على أهميتها وعظيم أجر فاعلها - قد أعرض كثيرٌ من المسلمين عنها جهلاً أو تكاسلاً، أو زهداً فيما عند الله من ثواب.

وإليكم - أيها المسلمون - طائفةٌ مما صحّ عن النبي ﷺ من سنن النوم وآدابه، فيها الخير والسعادة في الدنيا والآخرة:



فأول ذلك: ما ورد عن النبي ﷺ من التبكير في النوم؛ فعن أبي بَرزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ الْعِشَاءِ، وَالْحَدِيثَ بَعْدَهَا؛^(١).

ثم الوتر قبل النوم لمن خشي ألا يقوم آخر الليل؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أوصاني خليل ﷺ بثلاث: بصيام ثلاثة أيامٍ من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أرقُد»^(٢).

ومن الآداب: إطفاء النار، وتخمين الإناء، وإغلاق الأبواب؛ عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أطفئوا المصابيح إذا رقدتم، وغلّقوا الأبواب، وأوكّوا الأسقية، وخمّروا الطعام والشراب - وأحسبه قال: ولو بعودٍ تعرّضه عليه -»^(٣).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قَالَ: «لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون»^(٤). وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: احترق بيتٌ بالمدينة على أهله من الليل، فحدث بشأنهم النبي ﷺ، قَالَ: «إن هذه النار إنما هي عدوٌ لكم، فإذا نمتُم فأطفئوها عنكم»^(٥).

ومن الآداب: عدم النوم على مكانٍ مُرتفعٍ بلا حواجز؛ عن علي بن شيبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قَالَ: «من بات على ظهر بيتٍ ليس له حِجَارٌ فقد برئت منه الذمّة»^(٦).

ومن الآداب: غسل اليد والضم من أثر الأكل والدّسم ونحوه؛ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «من نام وفي يده غَمَرٌ ولم يغسله فأصابه شيءٌ، فلا يلومنَّ إلا نفسه»^(٧).

(١) رواه البخاري (٥٦٨) ومسلم (٦٤٧).

(٢) رواه مسلم (٧٢١).

(٣) رواه البخاري (٥٦٢٤) ومسلم (٢٠١٢).

(٤) رواه البخاري (٦٢٩٣) ومسلم (٢٠١٥).

(٥) رواه البخاري (٦٢٩٤) ومسلم (٢٠١٦).

(٦) صحيح أبي داود (٥٠٤١).

(٧) صحيح أبي داود (٣٨٥٢).

ومن السنن: الوضوء قبل النوم؛ عن البراء بن عازبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة»^(١).

ويُسَنُّ الوضوء أيضاً حتى ولو كان الإنسان جُبَّاً؛ عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل رسولَ الله ﷺ: أيرقد أحدنا وهو جُنُب؟ قال: «نعم، إذا توضأ أحدكم فليرقُد وهو جُنُب»^(٢).

ومن آداب النوم: نفْضُ الفراش والتسمية؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلة إزاره، فلينفُض بها فراشه وليُسَمِّ الله؛ فإنه لا يعلم ما خلفه بعده على فراشه»^(٣).

ويُحَرِّصُ المسلم على التستر حتى لا تنكشف عورته وهو نائم؛ عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النبي ﷺ قال: «لا يستلقين أحدكم ثم يضع إحدى رجلَيْه على الأخرى»^(٤).

ومن الآداب: تباعد النائمين عن بعضهم؛ فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال النبي ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»^(٥).

ومن السنن: كتابة الوصية؛ فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما حقُّ امرئٍ مسلمٍ له شيءٌ يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبةٌ عنده»^(٦).

وقد نهى النبي ﷺ عن النوم على البطن، وقال: «إنها صُجعةٌ أهل النار»^(٧)، وقال: «إنها صُجعةٌ يَبْغِضُها الله عَزَّ وَجَلَّ»^(٨).

(١) رواه البخاري (٦٣١١) ومسلم (٢٧١٠).

(٢) رواه البخاري (٢٨٧) ومسلم (٣٠٦).

(٣) رواه البخاري (٦٣٢٠) ومسلم (٢٧١٤).

(٤) رواه مسلم (٢٠٩٩).

(٥) صحيح أبي داود (٤٩٥).

(٦) رواه البخاري (٢٧٣٨) ومسلم (١٦٢٧).

(٧) صحيح ابن ماجه (٣٠١٦).

(٨) قَوَاهُ الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٤٦٤٥).



وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأى رسول الله ﷺ رجلاً مُضطجِعاً على بطنه، فقال: «إن هذه ضَجعةٌ لا يحبها الله»؛^(١).

أيها المسلمون: ومن السنة: النوم على الشِّقِّ الأيمن؛ فعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إذا أتيت مضجِعك فتوضَّأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شِقِّك الأيمن»؛^(٢).

ومن السنة: وضع اليد تحت الخدَّ؛ فعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان ﷺ إذا أخذ مضجِعَه من الليل وضع يده تحت خدَّه؛^(٣).

عباد الله: هذه بعض السنن العملية، وإليكم طائفة أخرى من الأدعية والأذكار التي صحَّت عن النبي ﷺ، وحرِّي بكل مسلم أن يحفظها ويتلوها ويجعلها وردّه وطمأنينة قلبه، وذكرُ الله مطلوبٌ عند النوم؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من اضطجع مضجِعاً لا يذكرُ الله فيه كانت عليه من الله ترة»؛^(٤).

ومن هذه الأذكار: قراءة آية الكرسي؛ ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويل، قال: «إذا أويتَ إلى فراشك فاقرا آية الكرسي؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظٌ ولا يقربك شيطانٌ حتى تُصبح». فقال النبي ﷺ: «صدَّقك وهو كذوبٌ، ذاك شيطان»؛^(٥).

ومن الذِّكْر قبل النوم: التسبيحُ ثلاثاً وثلاثين، والحمدُ ثلاثاً وثلاثين، والتكبيرُ أربعاً وثلاثين، وفيه حديثُ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وشكوى فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما تلقى من الرَّحَى مما تطحن، وطلبتُ خادماً، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكما على خيرٍ مما سألتُها؟ إذا

(١) صحيح الترمذي (٢٧٦٨).

(٢) رواه البخاري (٦٣١١) ومسلم (٢٧١٠).

(٣) رواه البخاري (٦٣١٤).

(٤) صحيح الجامع (٦٤٧٧).

(٥) رواه البخاري (٢٣١١).



أخذتُمَا مضاجِعكما فكبرَ اللهُ أربعًا وثلاثين، واحمدًا ثلاثًا وثلاثين، وسبَّحًا ثلاثًا وثلاثين؛ فإن ذلك خيرٌ لكما مما سألتُمَاهُ»؛^(١).

عباد الله:

ومن الدعاء الذي كان يقوله ﷺ: ما رواه حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «باسمك اللهم أَمُوتُ وأحيا»، وإذا قام قال: «الحمدُ لله الذي أحيانا بعد ما أَمَاتَنَا، وإليه النشور»؛^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إذا أوى أحدُكم إلى فراشه فليَنفُضْ فراشه بدَاخِلَةٍ إزاره؛ فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وضعتُ جنبي وبك أرفَعُهُ، إن أَمَسَكَ نفسي فارجعها، وإن أَرَسَلَتَهَا فاحفظها بما تحفظ به عبادُك الصالحين»؛^(٣).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ كان يقول إذا أخذ مضجِعَه: «الحمدُ لله الذي كَفَانِي وآوَانِي، وأطعمني وسقَانِي، والذي منَّ عَلَيَّ فأفْضَلَ، والذي أعطاني فأَجْزَلَ، الحمدُ لله على كل حال، اللهم ربَّ كل شيءٍ ومليكَه وإله كل شيءٍ، أعوذ بك من النار»؛^(٤).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن أبا بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: يا رسولَ الله! مُرْنِي بكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إذا أصبحتُ وإذا أَمَسَيْتُ، قال: «قل: اللهم فاطر السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، عالمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ، ربَّ كل شيءٍ ومليكَه، أَشْهَدُ أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي وشرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَه، قُلْهَا إذا أصبحتَ وإذا أَمَسَيْتَ وإذا أَخَذْتَ مضجِعَكَ»؛^(٥).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أتت فاطمةُ النبي ﷺ تسأله خادِمًا، فقال لها: «قولي: اللهم ربَّ السَّمَاوَاتِ وَربَّ الأَرْضِ، وَربَّ العَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَربَّ كل شيءٍ، فَالِقَ الحَبِّ والنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ والإنجِيلِ وَالفُرْقَانِ، أعوذ بك من شرِّ كل شيءٍ أنتَ آخِذٌ بناصِيتهِ،

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٢) رواه البخاري (٦٣٢٥) ومسلم (٢٧١١).

(٣) رواه البخاري (٦٣٢٠) ومسلم (٢٧١٤).

(٤) صحيح أبي داود (٥٠٥٨).

(٥) صحيح أبي داود (٥٠٦٧).



اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر»^(١).

وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن ينام وضع يده تحت رأسه ثم قال: «اللهم قني عذابك يوم تجمع عبادك»^(٢).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي»^(٣).

وعن البراء بن عازبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شق الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت»، قال: «فإن متَّ من ليلتك فأنت على الفطرة، واجعلهنَّ آخر ما تتكلم به»^(٤).

أيها المسلمون:

وقد يعرض للمسلم ما يُخيفه ويُفزعُه، فإذا وجد ذلك فليستعِذ بالله، قال رسول الله ﷺ: «إذا فرغ أحدكم من النوم، فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشرِّ عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون؛ فإنها لن تُضرَّه»^(٥).

وللرؤيا والأحلام آدابٌ وسُننٌ؛ عن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الرُّؤيا من الله، والحُلم من الشيطان، فإذا أرى أحدكم شيئاً يكرهه فلينفث عن يساره ثلاث مرات، ثم ليتعوذ من شرها، فإنها لا تُضرَّه»^(٦).

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٢) صحيح الترمذي (٣٣٩٨).

(٣) رواه مسلم (٢٧١٥).

(٤) رواه البخاري (٦٣١١) ومسلم (٢٧١٠).

(٥) صحيح الترمذي (٣٥٢٨).

(٦) رواه البخاري (٥٧٤٧) ومسلم (٢٢٦١).



وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها، فليصُقْ عن يساره ثلاثاً، وليستعِذ بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحوَّل عن جنبه الذي كان عليه»؛^(١).
الله بَارِكْ لَنَا فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَانْفَعْنَا بِمَا فِيهِمَا مِنَ الْآيَاتِ وَالْحِكْمَةِ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا،
وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ.

(١) رواه مسلم (٢٢٦٢).



الخطبة الثانية:

الحمد لله ولي المؤمنين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أيها المسلمون:

وإذا انتبه المسلم من الليل فيُسَنُّ له أن يذكر الله تعالى ويدعوه، فإنه حريٌّ بالإجابة؛ عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته»^(١).

وعن مُعَاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يبيت على ذكرٍ طاهراً فيتعارَّ من الليل، فيسأل الله خيراً من الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه»^(٢).

ومن السنة: قراءة آخر سورة آل عمران إذا قام ليلاً؛ عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال في حديثه: «فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل، ثم استيقظ رسول الله ﷺ فجلس فمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر آيات خواتيم سورة آل عمران»^(٣).

ومن السنة: السواك بعد النوم؛ عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يَشْوُصُ فاهُ بالسواك»^(٤).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ كان يُوضِعُ له وَضُوؤُهُ وسِوَاكُهُ، فإذا قام من الليل تَخَلَّى ثم استاك»^(٥).

(١) رواه البخاري (١١٥٤).

(٢) صحيح أبي داود (٥٠٤٢).

(٣) رواه البخاري (١١٩٨) ومسلم (٧٦٣).

(٤) رواه البخاري (٢٤٥) ومسلم (٢٥٥).

(٥) صحيح أبي داود (٥٦).



وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لَا يَنَامُ إِلَّا وَالسَّوَاكَ عِنْدَهُ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ بَدَأَ بِالسَّوَاكِ ^(١).

ومن السنة: الذُّكْرُ بعد الاستيقاظ؛ عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَخَذَ مَضِجَهُ مِنَ اللَّيْلِ وَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ خَدِّهِ ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَمُوتَ وَأَحْيَا»، وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» ^(٢).

ومن السنة أيضًا: غَسْلُ الْيَدِ ثَلَاثًا قَبْلَ اسْتِعْمَالِهَا؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ، فَلْيَغْسِلْ يَدَهُ قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهَا فِي وَضُوئِهِ؛ فَإِنْ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ» ^(٣).

عباد الله: ومن أراد النشاطَ وانسراحَ الصدر وطيبَ النفس بعد الاستيقاظ من النوم؛ فليبادِرْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، ثُمَّ إِلَى الْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ مَكَانَ كُلِّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَتُهُ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانًا» ^(٤).

أيها المسلمون: هذا بعض ما ثبت عن النبي ﷺ، وفي الصحيح كثيرٌ غيرُها، فهل لنا أن نتتبع أثر النبوة، ونتحرى آدابها وشمائلها؟ إن هذا هدي خير الخلق، فمن اهتدى بهديه واقتدى بآدابه كان من خير الناس، أسأل الله تعالى أن ينفعنا وينفع بنا، وأن يُعِينَنَا عَلَى تَطْبِيقِهَا وَالتَّزَامِهَا.

اللهم وفقنا هُذًى، واجعلنا نخشاك كأننا نراك، واجعلنا مُتَّبِعِينَ لِسُنَّةِ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ، اللهم أوردنا حوضه، وارزقنا شفاعته، واحشرنا تحت لوائه.



(١) السلسلة الصحيحة (٢١١١).

(٢) رواه البخاري (٦٣٢٥) ومسلم (٢٧١١).

(٣) رواه البخاري (١٦٢) ومسلم (٢٧٨).

(٤) رواه البخاري (٣٢٦٩) ومسلم (٧٧٦).



الرؤى والأحلام (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الواحد الأحد.. الفرد الصمد.. الذي لم يلد ولم يولد.. ولم يكن له كفوا أحد. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، خير من رجع لله وسجد، وأفضل من دعا إلى طريق الحق والرشد، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى من سار على طريقهم واتبع هداهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله - معاشر المسلمين - واعلموا أن هذه الدنيا دار ممر وأن الآخرة هي دار القرار ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

[الزلزلة: ٧-٨]...

أيها الناس:

إن لبني آدم ولعًا بالغًا وشغفًا ثائرًا فيما يتعلق بالأمور الغيبية - الماضي منها واللاحق -، وإنكار هذه الظاهرة ضربٌ من ضروب تجاهل الواقع والنأي عنه. غير أن تراوَح هذه الظاهرة - صعودًا وهبوطًا - يُعَدُّ مرهونًا بمدى قرب الناس من مشكاة النبوة والسرعة الحقة، التي أَحْكَمَتْ هذا الباب، وأخبر الله من خلالها بقوله: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿[الجن: ٢٦-٢٧].

ولا غرو حينئذ إذا وجدنا هذه العصور المتأخرة مظنةً للخلط واللغط بالحديث عن الغيبات، وتوقان النفوس الضعيفة إلى مكاشفتها، ما بين مؤمن بالخرافة وراضٍ بالكهانة، وآخرين سادرين بالسجع والتخمين يقذفون بالغيب في كل حين، مع أن آيات الله تُتلى عليهم



بكرة وعشيًا، وفيها قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥] وتقرأ عليهم سنة المصطفى ﷺ وفيها قوله: «خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل: إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير»^(١).

إذن لا مجال للحديث عن المعيّبات إلا من خلال ما ذكره لنا ربنا جل وعلا، أو ما أوحاه إلى رسوله ﷺ، وما عدا ذلك فما هو إلا مجرد تكهنات إن لم تكن محور أساطير وأوهام، وخليط كلام يقذف به مسترق السمع من الجن.

والإسلام في حقيقته دين يُزيل الخرافة من الفكر، والريذيلة من القلب، والشّروء من المسيرة، فالإيمان بالغيب ليس إيماناً بالأوهام ولا هو إيذاناً لأنواع الفوضى.

ثم إن الناجين من هذه الظاهرة قد لا يسلمون من تطلّع آخر يحملهم عليه الشغف ورؤم معرفة الحال اللاحقة، والتي يظنون أن لها ارتباطاً وثيقاً باستقرار مستقبلهم من عدمه، فاشرّبت نفوسهم إلى الوقوف على ذلك في مناماتهم من خلال ما يعتريهم من رؤى وأحلام، ولذا فإن أحداً قد يلاقي أخاه أو صديقاً فيراه عبوساً متجهّماً أو فرحاً مسروراً، فيزول عنه العجب حينما يعلم أن سبب هذا الفرح أو الحزن رؤيا مؤنسة أو أخرى مقلقة.

وهذا الأمر -عباد الله- ليس قاصراً على أفراد الناس وعامتهم فحسب، بل يشركهم فيه العظماء والكبراء، فكم أقضت الرؤيا عظيماً من مضجعه، وكم بشرت الرؤيا أفراداً بمستقبلهم، وكم شغلت شعباً كبيراً برؤيته، وما رؤيا يوسف عليه السلام بغائبة عنا، ولا رؤيا ملك مصر بخافية علينا، فقد اجتمع فيها تبشير وتحذير في آن واحد، إذ بشارتها هي السّعة عليهم في الرزق سبع سنين، ونذارتها هي في الجذب والقحط سبعاً مثلها.

الرؤى لها أهميتها الكبرى في واقع الناس قبل الإسلام وبعد الإسلام، لكنها من خلال نظرات المتعلمين والمثقفين لها قد تتفاوت تفاوتاً كثيراً لاختلاف المرجعية من قبل كل طائفة،

(١) صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٥٤).



فقد أنكرها الفلاسفة، ونسبوا جميع الرؤى إلى الأخلاط التي في الجسد، فرأوا أنها هي التي تحدث انعكاساً مباشراً على نفس الرائي بقدر هيجان الأخلاط التي في جسده.

ولبعض علماء النفس موقفٌ سلبي تجاه هذه الرؤى أيضاً، قاربوا فيه قول الفلاسفة فجعلوها خليطاً من الأمزجة والرواسب التي تكمن في ذاكرة الإنسان فيهيّجها المنام، حتى قصرُوا أمرها في قالب مادي - بيولوجي - صرف كما زعموا.

وأما شريعة الإسلام فإن علماءها وأئمتها قد ساروا على منهاج النبوة ووقفوا من الرؤى بما نصَّ عليه الكتاب والسنة، فذهبوا إلى أن الرؤيا المنامية الصالحة الصادقة إنما هي حق من عند الله، فمنها المبشرة ومنها المنذرة..

لما روى البخاري عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوءَةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ»، قيل: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»^(١).

والتبشير هنا - عباد الله - يحتمل التبشير بالخير والتبشير بالشر، كما قال الله تعالى عن الكفار: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

وهذه الرؤيا - عباد الله - هي التي قال عنها الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه: «إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة..» الحديث.^(٢)

وبعدُ - يا رعاكم الله -..

فلقد تكالبت همم كثير من الناس في هذا العصر، بسبب الخواء الروحي الذي يتبعه الجزع والفرق، ونأى النفس عن تعلقها بالله وإيمانها بقضائه وقدره وبما كان ويكون، وأن شيئاً لن يحدث إلا بأمر الله ومشئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، حتى لقد تعلقت نفوسهم بالرؤى والمنامات تعلقاً خالفوا فيه من تقدّمهم في الزمن الأول من السلف الصالح، ثم توسّعوا فيها وفي الحديث عنها والاعتماد عليها، إلى أن أصبحت شغلهم الشاغل عبر المجالس والمنتديات والجامع! بل والقنوات الفضائية!!

(١) رواه البخاري (٦٩٩٠).

(٢) رواه البخاري (٧٠١٧) ومسلم (٢٢٦٣).



إلى أن طغت على الفتاوى الشرعية، فأصبح السؤال عن الرؤى أكثر بأضعاف عن السؤال في أمور الدين وما يجب على العبد وما لا يجب!

كل ذلك إبان غفلةٍ ووسنةٍ عن ما ينبغي أن يقفهُ المؤمنُ تجاه هذه الرؤى، وأن هناك هدياً نبوياً للتعامل معها ينبغي أن لا يتجاوزهُ المرءُ فيطغى.. ولا يتجاهله فيعسى؛ لأن النبي ﷺ تركنا على المحجة البيضاء، فأغنانا في الحديث عنها عن إتياب النفس في التعلق بها والسعي الدؤوب في معرفة تأويلها، بله التعلق بها والاعتماد عليها، وما تهافت الناس في السؤال عنها بهذه الصورة المفرطة إلا لوناً من ألوان الخروج عن الإطار المرسوم والتوازن المتكامل، فتجد أحدنا يرى الرؤيا -أيًا كانت- فتضطرب لها حواسه! وترتعد منها فرائضه! وتُحبس أنفاسه! فلا يطفئ ذلك إلا البحث بنهم عن عابرٍ لها ليعبرها، حتى يظهر له أثرٌ هي أم خير.

ولو وقفَ كُلُّ واحدٍ منا عند الهدي النبوي مع الرؤى، لما رأينا مثل هذه الجلبّة ولا مثل هذا التعلّق الشاغل، الذي استثمرته بعضُ المجامع والمنتديات، فضلاً عن الفضائيات التي جعلته وسيلةً جلبٍ واستقطابٍ لمشاهديها من خلال هذا الطعم المهُوَّع. ولأجل أن نقفَ جميعاً على صورةٍ مثلى للتعامل مع الرؤى المتكاثرة فلنستمع إلى جملة من الآداب المرعية تجاه هذه الظاهرة النادرة في المجتمع...

فقد روى مسلم في صحيحه أن أبا سلمة قال: كنت أرى الرؤيا أعرى منها - أي أمرض منها - غير أني لا أزمّل، حتى لقيت أبا قتادة فذكرت ذلك له فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم حلمًا يكره، فلينفث عن يساره ثلاثاً وليتعوذ بالله من شرها، فإنها لن تضره» قال أبو سلمة: إن كنت لأرى الرؤيا أثقل عليّ من جبل، فما هو إلا أن سمعتُ بهذا الحديث فما أباليها^(١).

ومن هنا -عباد الله- فما كل ما يراه النائم يُعدّ من الرؤى التي لها معنى تفسّر به؛ إذ إنّ ما يراه النائم في منامه يتنوع إلى ثلاثة أنواع لا رابع لها.. كما عند ابن ماجه من حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن الرؤيا ثلاث: منها أهوئيل من الشيطان

(١) رواه مسلم (٢٢٦١).



ليَحْزَنَ بها ابنَ آدمَ، ومنها ما يَهَمُّ به الرجل في يقظته فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(١).

يقول البغوي رَحِمَهُ اللهُ: (في هذا الحديث بيان أنه ليس كل ما يراه الإنسان في منامه يكون صحيحاً ويجوز تعبيره، إنما الصحيح منها ما كان من الله عَزَّوَجَلَّ، وما سوى ذلك أضغاث أحلام لا تأويل لها).

ومثال هذه الأضغاث -عباد الله- ما رواه مسلم في صحيحه أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله.. رأيتُ في المنام كأنَّ رأسي ضُرب، فتدحرج فاشتدَّتْ على أثره.. فقال رسول الله ﷺ للأعرابي: «لا تُحَدِّثْ الناس بتلَعَبِ الشيطان بك في منامك»^(٢).

وأما موقف المرء من هذا النوع من الرؤى - وهو الغالب على حال الكثيرين - فإنه قد جاء في السنة آداب خاصة به في أحاديث صحيحة في الصحيحين وغيرهما.. وهي:

التعوذ بالله من شر هذه الرؤيا ومن شر الشيطان، وأن يتفل الرائي حين يهب من نومه ثلاثاً عن يساره، وأن لا يذكرها لأحد أصلاً، وأن يصلي ما كُتِبَ له، وأن يتحوَّل من جنبه الذي كان عليه.

وزاد بعض أهل العلم قراءة آية الكرسي.. لما صحَّ عن النبي ﷺ أن من قرأها لا يقربه شيطان.

وهذا النوع من الرؤى إنما هو من الشيطان..

يقول النووي رَحِمَهُ اللهُ: (وينبغي أن يجمع الرائي بين هذه الآداب كلها ويعمل بجميع ما تضمنته الروايات، فإن اقتصر على بعضها أجزأه في دفع ضررها - بإذن الله - كما صرحت بذلك الأحاديث).

(١) صحيح ابن ماجه (٣١٦٩).

(٢) رواه مسلم (٢٢٦٨).



وأما النوع الثاني من الرؤى فهو ما يحدثُ به المرءُ نفسه في يقظته، كمن يكون مشغولاً بسفر أو تجارة أو نحو ذلك فينام، فيرى في منامه ما كان يفكر فيه في يقظته، وهذا من أضغاث الأحلام التي لا تعبير لها.

فلا يبقى إلا النوع الثالث، وهو الرؤيا الصادقة الصالحة التي تكون من الله، وهي التي تكون بشارة أو نذارة، وقد تكون واضحة ظاهرة لا تحتاج إلى تأويل، كما رأى إبراهيم عليه السلام أنه يذبح ابنه في المنام..

وقد تكون خافية برموز تحتاج فيها إلى عابر يعبرها، كرؤيا صاحب السجن مع يوسف عليه السلام. وهذا النوع هو الذي نهى رسول الله ﷺ أن يُقَصَّ إلا على عالم أو ناصح، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه: «لا تُقَصَّ الرؤيا إلا على عالم أو ناصح»^(١).

وما عدا ذلك من الرؤى التي تتعلق بإثبات شيء من أحكام الشريعة في حلال أو حرام، أو فعل عبادة أو تحديد ليلة القدر مثلاً -وهي التي أريها النبي ﷺ ثم أنسيها-، أو تلك الرؤى التي يبني عليها آثار متعديّة تتعلق بحقوق الناس وحرماهم وإساءة الظنون بهم من خلال بعض الرؤى مثلاً، أو الحكم على عدالتهم ونواياهم من خلالها، فإن ذلك كله من أضغاث الأحلام ومن الظنون التي لا يجوز الاعتماد عليها في قول جمهور أهل العلم كالشاطبي والنووي وابن تيمية وابن القيم وابن حجر وغيرهم.

وقد ذكر الشاطبي رحمه الله في كتابه (الاعتصام) أن الخليفة المهدي أراد قتل شريك بن عبد الله القاضي فقال له شريك: (ولم ذلك يا أمير المؤمنين ودمي حرام عليك؟! قال: لأنني رأيت في المنام كأني مقبلٌ عليك أكلمك وأنت تكلمني من قفاك! فأرسلتُ إلى المعبر فسألته عنها فقال: هذا رجل يطاء بساطك وهو يُسرّ خلافاً!!

فقال شريك: يا أمير المؤمنين، إن رؤياك ليست رؤيا يوسف بن يعقوب، وإن دماء المسلمين لا تُسفك بالأحلام!

فنگس المهدي رأسه وأشار إليه بيده أن اخرج فانصرف).

(١) صحيح الترمذي (٢٢٨٠).



وقد ذكر ابنُ عساكر في تاريخ دمشق أنَّ بعضهم رأى في المنام الشافعيَّ رَحِمَهُ اللهُ فقال له: (كذبَ عليَّ يونس بن عبد الأعلى في حديث ما هذا من حديثي ولا حدَّثْتُ به!). فقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ معلقاً على هذا الكلام: (يونس بن عبد الأعلى من الثقات، لا يُطْعَنُ فيه بمجرد منام).

وقد نقل الذهبي رَحِمَهُ اللهُ عن المروزي قال: (أَدْخَلْتُ إبراهيمَ الحصري على أبي عبد الله أحمد بن حنبل - وكان رجلاً صالحاً - فقال: إِنَّ أُمِّي رَأَتْ لَكَ مَنَامًا هُوَ كَذَا وَكَذَا - وَذَكَرْتَ الْجَنَّةَ - فقال: يَا أَخِي، إِنَّ سَهْلَ بْنِ سَلَامَةَ كَانَ النَّاسَ يُخْبِرُونَهُ بِمِثْلِ هَذَا وَخَرَجَ إِلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ! وَقَالَ: الرُّؤْيَا تَسْرُّ الْمُؤْمِنَ وَلَا تَغُرُّهُ).

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا.

الخطبة الثانية:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه..

فيا أيها الناس:

إنَّ من باب الإنصاف والمصارحة والنصح، أن لا نُلقِي باللائمة كلها في موضوع الرؤى والإفراط فيها على آحاد الناس فحسب، بل لا بد من تعدية الأمر إلى العابرين أنفسهم الذين يعبرون الرؤى، إذ عليهم مسؤولية عظيمة تجاه الرائيين.

فلا بد للعابر أن يكون عالماً بهذا العلم العظيم، وأن يدرك المصالح والمفاسد في هذا الميدان، وأن لا ينصب نفسه للفتيا في الرؤى ويتطلع إليها، لا سيما عبر الشاشات وفي الجامعات الكبيرة.

فتعبر الرؤى قرين الفتيا، وقد قال الملك: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (المفتي والمعبّر والطبيب يطلعون من أسرار الناس وعوراتهم على ما لا يطلع عليه غيرهم، فعليهم استعمال الستر فيما لا يحسن إظهاره). ثم إنَّ على العابرين أن لا يتسارعوا في التعبير، وأن لا يجزموا بما يعبرون، وأن يعلموا خطورة هذا الجانب وما يوصله إليه من الافتتان والإعجاب بالنفس وتعظيم شأنه فوق شأن المفتين وأهل العلم، وقد نقل ابن عبد البر عن الإمام مالك أنه سئل: (أيعبر الرؤيا كلُّ أحد؟) فقال مالك: (أبالنبوة يلع؟!).

وقد نقل ابن عبد البر أيضاً عن هشام بن حسان أنه قال: (كان ابن سيرين يُسأل عن مئة رؤيا فلا يجيب فيها بشيء إلا أنه يقول: اتق الله وأحسن في اليقظة فإنه لا يضرُّك ما رأيت في النوم، وكان يجيب في خلال ذلك ويقول: إنما أجيب بالظن، والظن يخطئ ويصيب) فإذا كان هذا هو قول إمام المعبرين في زمانه وما بعده من الأزمان، فما الظن بمن جاء بعده؟!

إننا لنسمع بالمعبر يُسأل عن ألف رؤيا لا تسمع مرة يقول: لا أدري! أو يقول: هذه أضغاث أحلام! أو يقول: هذه حديث نفس... إلا من رحم ربُّك!



كما أنّ على العابرين أن يدركوا خطورة تعبير الرؤى من خلال الشاشات التي يراها الملايين من الناس، وكذا المجامع الممتلئة بالحشود وذلك للأمر التالية:

أولها: أنّ الانفتاح المطلق في التعبير نوعٌ فتنه من أجل حديثه في أمور الغيب، لا سيما أن أحداً لا يستطيع أن يجزم بصحة ما يقول العابر من عدمه، إلا من رأى ذلك في واقعه، وهذا شبه متعسّر عبر الشاشات.

وثانيها: تعدّر معرفة حال الرائي عبر الشاشات والمجامع من حيث الاستقامة من عدمها، وهذا له صلة وثيقة بتعبير الرؤيا، فابن سيرين سأله رجلان -كل منهما رأى أنه يؤذّن-، فعبرها للصالح منهما بالحج لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] وعبرها، للآخر بأنه يسرق لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذِّنْ مُّؤَذِّنٌ آتِيَهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠].

والشاطبي رحمه الله يقول في مثل هذه الحالة: (فمتى تتعين الصالحة حتى يُحكم بها وتترك غير الصالحة؟).

وثالثها: عدم إدراك عقول الناس لطريقة بعض العابرين للرؤيا لا سيما عبر الشاشات والمجامع، بحيث يكون تعبيرهم بصورة تجعل المستمع الجاهل لأول وهلة يقول: هذا تكهّن أو تخمين أو عرافة! ونحن قد أمرنا بمخاطبة الناس على قدر عقولهم. فقد أخرج البخاري في صحيحه قول علي رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون، أحبّون أن يكذب الله ورسوله؟!»^(١).

وعند مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ما أنت محدّث قوما حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة».

رابعها: أنّ درء المفاصد مقدّم على جلب المصالح، فالمفسدة من خلال التعبير عبر الشاشات أشدّ من مصلحته لأمر لا تخفى على متتبّعها، لا سيما أنها في أمور غيبية، وأنها كالفتوى، والسلف الصالح كانوا يتدافعون الفتوى ما استطاعوا، ناهيك عن بعض الفساد

(١) رواه البخاري (١٢٧).



المتحقق من خلال ما يشاهد ويُسمع من تعبير رؤيا لفتاة -مثلاً- بأنها ستفشل في نكاحها، أو لامرأة تعبّر لها بأن زوجها تزوج عليها سرّاً بامرأة أخرى! فما ظنكم بحال الأولى والأخرى؟! فهذه تترقب الفشل في كلّ حين مع ضيق نفسها وانشغال بالها، وتلك باهتزاز كيائها والشك في زوجها المرة تلو الأخرى! ناهيك عن من يرين مثل هذه الرؤى فيكتفين بما سمعنه من تعبير لغيرهم فيقسن عليه دون الرجوع إلى عابر عالم اكتفاء بما سمعنه أو شاهده، فتكون الطامة حينئذٍ! وقولوا مثل ذلك فيما يراه الرجال والشباب!

وأما ما يحتجّ به بعض الناس من أن مسلماً روى في صحيحه أن رسول الله ﷺ كان كثيراً ما يسأل أصحابه بعد الفجر فيقول: من رأى منكم رؤيا؟ فالجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا رسول الله ﷺ، وتعبيره حق لا يشوبه شائبة.

الوجه الثاني: أن تعبيره كان في مسجد يحضره عدد ليس كالأعداد التي تُعدّ بالملايين حينها تشاهد التعبير عبر الشاشات! وما ظنكم بحضور عند رسول الله من الصحابة العقلاء الفضلاء مقارنة بحضور عند غيره؟!

فأين الثرى من الثريا؟!

الوجه الثالث: أنه لم يثبت عن أحد من الصحابة -كالخلفاء الأربعة ولا من بعدهم من التابعين- أنه كان يفعل في المسجد كما كان النبي ﷺ يفعل، لا سيما أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد شهد له النبي ﷺ بأنه عارف بتعبير الرؤى، وهو معدود من المعبرين عند كثير من أهل العلم. ألا فاتقوا الله -معاشر المسلمين-، وراقبوه في السر والعلن، والقصد القصْد تفلحوا. واعلموا أن أصدق الناس رؤيا أصدقهم حديث، فكلما صدق اللسان، وغُضّ البصر، وامتلئت الجوارح، وأكل الحلال، كانت الرؤيا أصدق، والفراصة أصوب.

هذا وصلُّوا رحمكم الله على خير البرية وأزكى البشرية، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، صاحب الخوض والشفاعة فقد أمركم الله بذلك في كتابه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].





أهمية الحوار وآدابه (١)

الخطبة الأولى:

• الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْأَخْيَارِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَيَا عِبَادَ اللَّهِ: أَوْصِيَكُمْ وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْقَائِلُ: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ حَيَاةَ النَّاسِ عَلَى هَذِهِ الْبَسِيطَةِ، وَاخْتِلَافَ طَهُمَ، وَتَبَادُلَ الْمَصَالِحِ بَيْنَهُمْ، وَالتَّعَايُشَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ بِسَلَامٍ، يَسْتَلْزِمُ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا مَعْرِفَةَ مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ، مَا لَهُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ وَاجِبَاتٍ، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نَابِعًا مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ الَّتِي بَيَّنَّتِ الْحَقُوقَ وَالْوَاجِبَاتِ وَأَعْطَتْ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْهَاءُ الْخِلَافَاتِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ، إِلَّا مِنْ خِلَالِ الْحَوَارِ الْهَادِيَّةِ، لِأَنَّ الْحَوَارَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- إِذَا كَانَ حَوَارًا هَادِفًا، يَقَرُّبُ وَجْهَاتِ النَّظَرِ، وَيَقْلُصُ التَّشْتَتَ وَالتَّبَايُنَ فِي الْأَرَءِ وَالتَّوْجِهَاتِ، وَلِذَلِكَ -أيُّهَا الْمُسْلِمُونَ-: فَلَقَدْ حَفَلَتْ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ الْمَطْهُرَةُ بِالنُّصُوصِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تُرْشِدُنَا إِلَى أَهْمِيَّةِ الْحَوَارِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، وَتُعَلِّمُنَا حُسْنَ الْاسْتِمَاعِ إِلَى الْآخَرِينَ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ قَمًا وَأُذُنِينَ إِلَّا لِيَقُولَ وَيَسْمَعَ، وَقَدْ ذَكَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْحَوَارَ فِي مَوَاضِعٍ كَثِيرَةٍ جَدًّا، نَذْكُرُ مِنْهَا مَا دَارَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ مِنْ حَوَارٍ فِي قِصَّةِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، وَسُؤَالِ الْمَلَائِكَةِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي



جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]، عند ذلك أَسْتَجَابَتِ الْمَلَائِكَةُ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْحَوَارُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ فَحَسَبَ، بَلْ حَتَّى مَعَ شَرِّ خَلْقِ اللَّهِ إِبْلِيسَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣١﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٣٠-٣١].

ولقد حاورَ الله سبحانه وتعالى إبليسَ مع عصيانِ هذا المطرودِ من رحمة الله وتمردِهِ على أمرِ الله، فسأله الله تعالى عَنْ سَبَبِ عِصْيَانِهِ بِأَدَبِ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ فَقَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿ قَالَ يَبْنَئُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ، مِنْ صَلَافٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿ [الحجر: ٣٢-٣٣].

دَرْسٌ عَظِيمٌ، وَتَرْبِيَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ، نُدْرِكُ مِنْ خِلَالِهَا أَهْمِيَّةَ الْحَوَارِ فِي حَيَاتِنَا، وَنَتَعَلَّمُ مِنْ هَذِهِ الدَّرُوسِ الرَّبَّانِيَّةِ، حُسْنَ الْإِصْغَاءِ لِلآخِرِينَ وَلَوْ كَانُوا غَيْرَ مُحَقِّقِينَ، لِأَنَّ مَجْرَدَ الْإِصْغَاءِ لَهُمْ، يَشْتَمِلُ عَلَى احْتَوَاءِ كُلِّ مَا لَدَيْهِمْ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْحُجَجِ، وَالْأَعْذَارِ وَالتَّوَلَّاتِ، لِلْوُقُوفِ عَلَى سَبَبِ الْخِلَافِ وَعِلَاجِهِ، وَلَكِي يَعْلَمَ الطَّرْفُ الْآخِرُ أَنَّكَ تُشَارِكُهُ هُمُومُهُ، وَيَهْمُكَ أَمْرُهُ، وَأَنَّكَ تَسْعَى لِلِقَابِ مَنْهُ، وَتَحِبُّ لَهُ وَتَخْشَى عَلَيْهِ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ وَتَأَمَّلُوهُ، لَقَدْ تَحَاوَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ -وهو الخالق- مَعَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَتَحَاوَرَ سَيِّدُنَا نُوحٌ وَهُودٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَشُعَيْبٌ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ أَقْوَامِهِمْ، وَقَصَّ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمُ مُحَاوَرَاتِهِمْ، وَتَحَاوَرَ الْبَشَرُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حَوَارُ جَرَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَحَدِهِمَا بِجَنَّتَيْنِ، فَاعْتَرَى بِمَا عِنْدَهُ، وَأَنْكَرَ الْإِيمَانَ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ، فَكَانَ صَاحِبُهُ الْمُؤْمِنُ يُحَاوَرُهُ بِأَدَبٍ، وَيَنْصَحُهُ بِلُطْفٍ، قَالَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ، وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾ ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ رَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ، طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَلِحِيطَ بِشَرِّهِ فَاصْبِرْ يُقَلِّبْ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيِّنُنِي لِأَشْرِكِ رَبِّي أَحَدًا ﴿ [الكهف: ٣٧-٤٢].



لقد ندم الرجل على ما اقترف، وقال: يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا، حينَ لَنْ تَنْفَعَ (ليت)، وَلَنْ تَنْفَعَ (ليت) في كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ مَنْ يَتَعَامَى عَنِ الْخَوَارِ وَالنَّصِيحِ الصَّادِقِ.

ليكن هدفنا من الحوار، هو توضيح الحق، وتبيين الصواب، وهداية التائه، بعيداً عن حظوظ النفس والثوران لها.

عباد الله: إِنَّ الْخَوَارَ مَهْمٌ فِي حَيَاتِنَا، وَالْخَوَارُ لَيْسَ بِاللَّجَاجِ وَالصَّخْبِ وَالْفَوْضَى، وَالِاسْتِعْلَاءِ وَالِاسْتِنْقَاصِ، وَالِاسْتِبْدَادِ بِالرَّأْيِ، إِنَّمَا هُوَ جِدَالٌ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، فَهُوَ مَائِدَةُ حُجَجٍ وَبَرَاهِينٍ، وَأَخِذٌ وَعِطَاءٌ، وَقَوْلٌ وَإِصْغَاءٌ، وَتَفَاهُمْ وَتَرَاحُمٌ، فَمَتَى مَا عَلِمَ الطَّرْفُ الْآخَرُ أَنَّكَ تَسْعَى لِمَصْلَحَتِهِ كَمَا تَسْعَى لِمَصْلَحَتِكَ، فَلَنْ يَسَاوِرَهُ شَكٌّ فِي صَدَقِكَ وَأَمَانَتِكَ، وَبِالتَّالِي يَرْضَى بِسَمَاعِ قَوْلِكَ وَقَبُولِهِ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ ذَلِكَ، وَنُعَلِّمَهُ أَبْنَاءَنَا وَبَنَاتِنَا، وَنَمَارِسَهُ بِآدَابِهِ وَأَخْلَاقِهِ فِي الْعِلَاقَاتِ بَيْنَنَا جَمِيعًا، فَلْيَكُنِ الْخَوَارُ الْهَادِفُ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ وَالزَّوْجَاتِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِعَ مُحَاوِرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وَبَيْنَ الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ؛ فَقَدْ حَاوَرَ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ وَلَقِيَانُ ابْنَهُ، وَبَيْنَ الْمُعَلِّمِينَ وَالطُّلَابِ فَقَدْ تَحَاوَرَ الْخَضِرُ مَعَ مُوسَى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -.

ولقد تحاور صفوة الخلق ﷺ مع أصحابه، تَأَمَّلُوا هَذَا الْخَوَارَ التَّرْبَوِيَّ الَّذِي وَرَدَ فِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَه، أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَلْبَنٍ وَعَنْ يَمِينِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ - وَكَانَ صَغِيرَ السِّنِّ - وَعَنْ يَسَارِهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «أَتَأْذُنِي أَنْ أُسْقِيَ خَالِدًا؟!». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا أَحَبُّ أَنْ أُورِثَ بِسُورِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَفْسِي أَحَدًا. أَيُّ بَفْضَلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَشَرِبَ، وَشَرِبَ خَالِدٌ^(١).

فَمَا أَرْوَعُهُ مِنْ خَوَارٍ جَمِيلٍ، فِيهِ احْتِرَامٌ لِمُشَاعِرِ الصَّغِيرِ، وَاسْتِمَاعٌ لِرَأْيِهِ.

بل تحاور سليمان عليه السلام مع الهدهد، كما ذكر الله ذلك في سورة النمل في قصة سليمان، وتركه يوضح أعداره ويبرر غيابه، ويثبت صحة كلامه، وهو طير صغير ومخلوق في نظر البعض حقير، فلم يحقره، ولم يعجل عليه بعقوبة، ولم يتهمه بالشبهة، بل لم يغضب منه حين

(١) حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٧٨٣).



دَلَّ عليه بالعلم وأنه أحاط بما لم يحيط به، وهذا من كمال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن المعالم التربوية في الحوار للمربين والمعلمين والآباء والأمهات.

أيها الأُحِبَّةُ في الله: إِنَّ مِنْ أَسْبَابِ نَجَاحِ الْخَوَارِ الْمَهَادِفِ الْإِبْتِعَادَ عَنِ الْجِدَالِ بِالْبَاطِلِ؛ لِأَنَّهُ يُسْتَخْدَمُ لِقَلْبِ الْحَقِيقَةِ مِنْ غَيْرِ هُدًى وَلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

فالحوارُ المهادفُ يَنْجَحُ بِالْحِكْمَةِ، وباستخدام أفضل السبل للإقناع، قال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِّ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

والحوارُ بالتي هي أحسنُ يستلزمُ احترام الآخر، والصبرُ عليه وعدمَ مقاطعته أثناء حديثه أو بيان رأيه، كما يستلزمُ حُسنَ الظنِّ به، والحرصُ على عدمِ تحويلِ الحوارِ إلى جدلٍ وخصامٍ، ففي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَصِمُ»^(١).

ألا وإنَّ أعظمَ ما يُرَدُّ إليه النزاعُ والخلافُ هو قولُ الله وقولُ رسوله ﷺ؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفَعَنِي اللهُ وإياكُمْ بما فيه والسنة من الخير العميم. وأَسْتَغْفِرُ اللهَ لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه البخاري (٢٤٥٧) ومسلم (٢٦٦٨).



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو الجلال والإكرام،
وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله سيد الأنام، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها المسلمون: فاتقوا الله -عباد الله- واعلموا أنه ما من أمة حكمت بشرع الله وأخذت
بمبدأ الحوار الهادف، إلا وكانت من أعظم الأمم، استمعوا إلى هذا الموقف العظيم من النبي
ﷺ وهو يجاور ذلك الشاب حتى أشركه النبي ﷺ في تمحيص الحق وتبيان الصواب؛ ففي
حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن فتى شابًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: ائذن لي في الزنا،
فأقبل القوم فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال له النبي ﷺ: «اذنه»، أي اقترب مني، فدنا منه
قريبًا، وتأمل هنا كيف أدناه النبي ﷺ، ليكون الحوار والحديث بينهما فقط، فيكون أبلغ في
تحقيق النتائج، قال له النبي ﷺ: «أتجبه لأملك؟!». قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال:
«ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: «أفتجبه لابنتك؟!». قال: لا والله يا رسول الله، جعلني
الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أفتجبه لأختك؟!». قال: لا والله، جعلني
الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أفتجبه لعمتك؟!». قال: لا والله،
جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتجبه لخالتك؟!». قال: لا والله،
جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال راوي الحديث: فوضع يده عليه،
وقال: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه». فلم يكن بعد ذلك الفتى
يلتفت إلى شيء^(١).

درر ونفائس، القرآن والسنة -أيها المسلمون- مدرستان عظيمتان، ولكن
أين المستفيدون؟!

(١) السلسلة الصحيحة (١/٧١٢).



الحوار أيها الأحبة للتكامل وليس للتلاكم، وللعرض لا للفرض، وللنقد البناء لا للهدم والتحطيم.

فبالحوار الهادئ يقتنع المخطئ، ويتبصر الغوي، ويتعلم الجاهل، وبالحوار الهادئ يدخل الناس في دين الإسلام، فليست الدعوة بالإكراه ولكن بالتبيين والإيضاح باللفظ واللين، وبالحوار الهادئ يترك الناس المعتقدات الباطلة والمناهج العوجاء والأفكار الضالة، وبالحوار الهادف غير المتعصب تتخلص الفجوات في المجتمع فيزداد تلاحماً، وبالحوار الهادف تزداد الأسرة تماسكاً، ويتفاهم الأصدقاء مع بعضهم، وبالحوار نحقق معاني القيم الإنسانية والحضارية الراقية، بعيداً عن الاستبداد والفوضى والأنانية.

ألا وصلوا وسلموا على من أمركم ربكم بالصلاة والسلام عليه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].





أحكام الوصية (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله إقرارًا بوحدانيته، والشكر له على سوابغ نعمته، اختصَّ بها أهل الصدق والإيمان بصدق معاملته، ومنَّ على العاصي بقبول توبته، ومدَّ للمسلم عملاً صالحاً بوصيته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المفضل على جميع بريته. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها المؤمنون: يقول ربُّنا جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

إنه الأمر من الرب للعبيد، بأن يقولوا القول السديد، وأن ينهَجوا المنهج الرشيد، فمن امتثل أمر ربه فهو السعيد، ومن تنكَّب طريقه فهو الطريد البعيد.

أيها الناس: كلنا يعلم بأن الإنسان يتنقل من مرحلة إلى أخرى، ومن طور إلى طور في هذه الحياة، بل تمر به أحوال من العسر واليسر، والفقر والغنى، والحزن والسرور، والصحة والمرض، والقوة والضعف، والإنسان في الغالب له حقوق على نفسه، ولغيره حقوق عليه، ومثل تقلبات هذه الأحوال قد يتناسى الإنسان مثل هذه الحقوق، من ديون، أو ودائع وأمانات، أو ذوي فقر وحاجات، أو حتى فتح باب أجر على نفسه يجمع له بعد موته، من الوصية بشيء من ماله للبر والإحسان، لكل هذا ولغيره شرع الله بلطفه ومنَّه وكرمه لهذا العبد الضعيف شرع له هذا الباب، باب الوصية فسحة وأمل، شرع له ميدان حسنات حال



الحياة، وبعد الممات. قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١]، وقال النبي ﷺ: «إن الله تصدق عليكم عند وفاتكم بثلاث أموالكم زيادة لكم في أعمالكم»^(١).

أيها المسلمون: الوصية لها مسائل ينبغي معرفتها، وأحكام يجدر التنبه لها، فأول أحكام الوصية: أن هناك وصية واجبة، ووصية مستحبة.

أما الواجبة: فذلك حين يكون على الإنسان حقوق لغيره، فهذه يجب عليه إثباتها؛ لئلا تضع على أصحابها، ففي الحديث الصحيح عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين - وفي رواية - ثلاث ليال، إلا ووصيته مكتوبة عنده» قال ابن عمر: ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي^(٢).

فأين الصواب ممن حمل الديون، وتحمل الحقوق، ولا يدري أقرب الناس إليه ماله وما عليه؟ هل من الحزم أن يبقى ابن آدم كذلك وهو عرضة للموت في أي وقت؟ وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (من صواب الأمر للمرء أن لا تفارقه وصيته).

أيها المسلمون: من لزمته حقوق شرعية لله، أو لعباد الله من زكوات وكفارات وديون وودائع فليسارع في أدائها وليبادر في قضائها مادام قادرًا على الأداء، متمكنًا من القضاء، وإلا فليوص بذلك وصية واضحة في لفظها ومعناها، مجودة في كتابتها، عادلة في شهودها؛ لأنها حقوق أيها الأحبة، وسيعلق برقبته أصحابها يوم القيامة، ولأجل أن تحمد سيرتك ولا يبقى اهلك من بعدك في منازعات، ولكي تلقى الله وقد أدت ما عليك، وأبرأت ذمتك، وابتضت صحيفتك، وحسنت بإذن الله خاتمتك، وخف في الآخرة حسابك، ومن قصر تعرض لحرمان الثواب، أهمل براءة الذمة فليعد للسؤال جوابًا.

(١) حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٢٠٧).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٨) ومسلم (١٦٢٧).



أما الوصية المستحبة: فهي لمن لم تكن عليه حقوق ولم تلزمه واجبات، فهذا يستحب له أن يوصي بشيء من ماله يصرف في سبيل البر والإحسان ليصل إليه ثوابه بعد وفاته، وهذا من لطف الله بعباده لتكثير الأعمال الصالحة لهم، وهذا باب واسع من الوصايا لا تنحصر، فلك أن توصي بشيء من مالك في عمارة المساجد وخدمتها، أو بناء الأربطة والمساكن للمحتاجين، أو في قضاء ديون المعسرين، أو في الصدقة على المحاويع، أو في الإنفاق على طلبة العلم وتعليم القرآن، أو تعبيد طرق المسلمين، أو طبع الكتب النافعة ونشرها، أو الوصية بالحج والأضاحي عن نفسك أو غيرك، وغيرها من أبواب البر والخير والإحسان، لكن هذه الوصية لمن له مال كثير، وورثته غير محتاجين لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، والخير هو المال الكثير، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

فيقول أهل العلم: إن الوصية تكره من رجل ماله قليل ووارثه محتاج، وذريته ضعفاء، فالأولى أن يبدأ بهم ولا يقدم عليهم وصيته؛ لأنهم أحق بما له وأولى بمعرفته، وأعظم في ثوابه ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، وقد قال عليه الصلاة والسلام لسعد بن أبي وقاص: «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»^(١). وقال الشعبي رحمه الله: (ما من مال أعظم أجراً من مال يتركه الرجل لولده ويغنيهم به عن الناس، وقد مات كثير من صحابة رسول الله صلى ولم يوصوا).

ومن أحكام الوصية: إنها لا تصح في الأمور المبتدعة والمسائل المحرمة كالوصية لعمارة الأضرحة وإسراجها أو الوصية بالنيابة والتبذير، والبناء على القبور، أو الوصية بالتكفين بالحرير أو الدفن في مسجد أو في بيت خاص، فكل هذا من الوصايا التي لا يجوز تنفيذها لمخالفتها للشرع.

(١) رواه البخاري (٣٩٣٦) ومسلم (١٦٢٨).

ومن أحكام الوصية: أنها تجوز إلا في حدود ثلث المال فأقل، ولا تجوز بأكثر من الثلث لمن له ورثة؛ لأن ما زاد على الثلث حق لهم، لكن تجوز الوصية بأكثر من الثلث، بل بكل المال لمن لا وارث له؛ لأن المال الآن لم يتعلق به حق وارث ولا غريم، فأشبه ما لو تصدق بكل ماله في حال صحته، قال ابن القيم: (فمن لا وارث له لا يعترض عليه فيما صنع في ماله).

ومن أحكامها: أنها لا تصح لأحد من الورثة، بمعنى أنك لا توصي لشخص له حق في الميراث لقول النبي ﷺ: «لا وصية لوارث»^(١). ذلك لأن أنصبة الورثة قد قسمها الله سبحانه بنفسه في كتابه، ولا أحسن من قسمة الله تعالى، فهو أعلم وأحكم وأرحم.

ومن أحكام الوصية: إن الموصى له لا تنتقل له الوصية، ولا يملكها إلا بعد موت الموصي؛ لأنه قد يغير رأيه، ولهذا فمن أحكامها: أنه يجوز للموصي الرجوع في وصيته، ونقضها أو الرجوع في بعضها، وهذا متفق عليه بين أهل العلم، كأن يقول: رجعت في وصيتي، أو أبطلتها، ونحو ذلك.

ومن أحكامها: أنه قبل تنفيذ الوصية يخرج الواجب في تركة الميت من الديون والواجبات الشرعية التي تجب عليه أولاً قبل غيرها، لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾ [النساء: ١١]، فيبدأ بالدين، ثم الوصية، ثم الإرث.

ومن أحكامها: أن الوصية تصح لكل شخص يصح تملكه بمعنى أنه يصح الوصية من مسلم لكافر؛ لأنها من باب الصدقة، والصدقة تجوز دفعها للكافر، وقد كسا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخَاهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ، وصفية أم المؤمنين أوصت بثلثها لأخ لها يهودي، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُوا كُفْرَهُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

ومن الأحكام: أنها تصح الوصية للحمل الذي في البطن إذا تحقق وجوده، ولا تصح الوصية لحمل غير موجود، كما لو قال: أوصيت لمن ستحمل به هذه المرأة السنة القادمة؛ لأنها وصية لمعدوم.

(١) صححه الألباني في إرواء الغليل (١٦٣٥).



ومن الأحكام: عدم صحة الوصية لمن لا يصح تمليكها، كمن يوصي لشخص ميت، أو كمن يوصي ببعض ماله لبهيمة أو حيوان، كما نسمع أحياناً مما يصلنا من تفاهات الغرب وزبالة معتقداتهم أن أوصى أحدهم بعدة ملايين لكلب له أو قطّة، فمثل هذا غير جائز في شريعة الإسلام.

ومن أحكام الوصية: أنه لو أوصى بثلث ماله، فاستحدث مالا بعد الوصية، دخل في الوصية؛ لأن الثلث إنما يعتبر عند الموت في المال الموجود حينه، وللتوضيح بمثال: رجل يملك مليون ريال، فأوصى بثلاثها في مجال الخير وقبل وفاته صارت المليون خمسة ملايين، فالثلث يكون من الخمسة لا من المليون.

ومن الأحكام: أنه لو أوصى لشخص بشيء معين من ماله، مزرعة معينة، ثم قبل موت الموصي أو بعده تلفت المزرعة، بطلت الوصية، وليس له حق بالمطالبة بقيمتها أو مثلها من باقي ماله، لزوال حقه بتلف ما أوصى له به.

هذه بعض أحكام الوصية، نسأل الله جل وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعنا بما فيه من الآيات والذكر الحكيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخرين،
وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه وعلى آله
وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون: فاتقوا الله واعلموا أن من أدب الوصية أن يوصي المسلم بنيه وأهله
وأقاربه، ومن حضره واطّلع على وصيته، يوصيهم بتقوى الله وطيب العمل، ثم يوصي من
بعده من أولاد وبنات وزوجة بشرائع الإسلام، وكليات العقيدة، وخصال الخير العامة
ويحذرهم من ضدها.

وإن لكم في إبراهيم وبنيه عَلَيْهِ السَّلَامُ أسوةً، وفي نبيكم محمد ﷺ أعظم قدوة: ﴿وَوَصَّى بِهَا
إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]،
وأوصى محمد ﷺ بكتاب الله، وقال: «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم»، وحذر من
الفتن، وأمر بالطاعة ولزوم الجماعة، وأوصى بأصحابه السابقين وبالمهاجرين وأبنائهم، كما
أوصى ابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذا هو مات أن تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

أيها الإخوة: ليس هناك صيغة ثابتة تكتب بها الوصايا، وهذه صيغة مأخوذة من جملة ما
أوصى به بعض أئمة الإسلام من الصحابة -رضوان الله عليهم- ومن بعدهم، حيث رأوا أن
يقول الموصي مخاطبًا أهله، ومن حضره واطّلع على وصيته: (أوصي فلان، وهو يشهد أن لا
إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهًا واحدًا، فردًا صمدًا، لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، ولم يشرك
في حكمه أحدًا، ويشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين
كله ولو كره المشركون، ويشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح
منه، واللجنة حق وما أعده الله لأوليائه حق، والنار حق، وما أعده الله لأعدائه حق، وهو قد
رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، وبالقرآن إمامًا، على ذلك يحيا، وعليه يموت
إن شاء الله، ويشهد أن الملائكة حق، والنبين حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله
يبعث من في القبور).



ثم يقول: اعلّموا أي مفارقكم وإن طال المدى، فهذه أدوات السفر تُجمع، ومناادي الرحيل يُسمع، والمرء لو عمّر ألف سنة لا بدّ له من هذا المصير كما ترون).

إن الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون، فأكيسهم أطوعهم لربه وأعملهم ليوم معاده. وهذه وصية مودع ونصيحة مشفق، حسبي وحسبكم الله الذي لم يخلق الخلق هملاً، ولكن ليلوكم أيكم أحسن عملاً: ﴿يَبْنِيْ اِنَّ اللّٰهَ اَصْطَفٰى لَكُمْ الَّذِيْنَ فَلَا تَمُوْنُ اِلَّا وَاَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ﴿يَبْنِيْ لَا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ اِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿يَبْنِيْ اَقِمِ الصَّلٰوةَ وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوْفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلٰى مَا اَصَابَكَ اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْاُمُوْرِ ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْغُرْ خَدَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْاَرْضِ مَرْحًا اِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُوْرٍ﴾ [لقمان: ١٧، ١٨].

أعظم فرائض الله بعد التوحيد: الصلاة، الله الله في الصلاة، فإنها خاصة الملة، وأم العبادة، والزكاة أختها الملازمة، والصوم عبادة السر لمن يعلم السر وأخفى، والحج مع الاستطاعة ركن واجب، هذه عمُد الإسلام وفروضة، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يناوئكم ظاهرين، وتلقوا ربكم غير مبدلين ولا مغيرين، واسلكوا في الاعتقاد مسلك السلف الصالح وأئمة الدين، ولا تحوضوا فيما كره السلف الخوض فيه، وعليكم بالعلم النافع، فالعلم وسيلة النفوس الشريفة، وشرطه الإخلاص والخشية لله مع الخيفة، وخير العلوم علوم الشريعة، وانبدوا العلوم المذمومة فإنها لا تزيد إلا تشكيكاً، وأطيعوا أمر من ولاه الله عليكم، واجتنبوا الفتن وأسبابها، ولا تدخلوا في الخلاف، والزموا الصدق فإنه شعار المؤمنين، والكذب عورة لا تُورى، وحافظوا على الحشمة والصيانة، وأوفوا بالعهد، وابذلوا النصح، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تطغوا في النعم، ولا تنسوا الفضل بينكم، ولا تنافسوا في الحظوظ السخيفة، وإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه، وإذا برز قبيحٌ فاستروه، وأصلحوا ذات بينكم، واحذروا الظلم، وصلوا الأرحام، وأحسنوا إلى الجيران، واعرفوا حقّ الأكابر، وارحموا الأصاغر، واحذروا التباغض والتحاسد، واعلموا أن جماع الأمر تقوى الله، كان الله خليفتي عليكم في كل حال، وموعد الالتقاء دار البقاء، والسلام عليكم من حبيب مودع، والله يجمع إذا شاء هذا الشمل المتصّدع.



ألا فاتعظوا أيها المسلمون، أدُّوا الحقوق إلى أهلها، وتحلُّوا من المظالم، واستعيذوا بالله من المآثم والمغارم.. استكثروا من الصالحات، وبادروا قبل الفوات، واعملوا قبل الوفاة، والانتقال إلى معسكر الأموات..

هذا وصلُّوا وسلموا على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة..





الزواج عن اقتراف الكبائر^(١)

الخطبة الأولى:

تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا، أحده تعالى وأستعينه وأستهديه، وأعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أيها الناس: يقول النبي ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما ما اجتنب الكبائر»^(٢).

فما هي الكبائر التي جعل النبي ﷺ اجتنابها شرطا لتكفير ما سواها من الذنوب في هذا الحديث؟ نريد أن نتعرف عليها لتجنبها:

عرفت الشر لا للشّر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

اعلموا عباد الله أن جماعة من الأئمة أنكروا أن في الذنوب صغائر، وقالوا: بل سائر المعاصي كبائر، يقول القاضي عبد الوهاب: (لا يمكن أن يقال في معصية الله إنها صغيرة إلا على معنى أنها تصغر باجتناب الكبائر).

(١) أحمد فريد.

(٢) رواه مسلم (٢٣٣).



وقال الجمهور: إن المعاصي تنقسم إلى صغائر وكبائر لقوله عز وجل: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقوله عز وجل: ﴿وَكُرْهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧] فجعلها رُتَبًا ثلاث.

وقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

وقوله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما ما اجتنبت الكبائر»^(١).

واختلف العلماء في حد الكبيرة على أقوال:

منها: أنها ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد، بنص كتاب أو سنة.

ومنها: أنها ما أوجب الحد، أو توجه إليه الوعيد، والصغيرة ما قل فيه الإثم.

ومنها: أنها كل جريمة (أو جريمة) تؤذن -أي: تُعلم- بقلة اكتراث أي اعتناء مرتكبها بالدين، ورقة الديانة مبطل للعدالة، وكل جريمة أو جريمة لا تؤذن بذلك بل يبقى حسن الظن ظاهرا بصاحبها لا تحبط العدالة.

ومنها: أنها كل ما ينص الكتاب على تحريمه، أو وجب في جنسه حد وترك فريضة تجب فوراً، والكذب في الشهادة والرواية واليمين.

ومنها أنه لا حد لها يحصرها يعرفه العباد، وإلا اقتحم الناس الصغائر واستباحوها، ولكن الله عز وجل أخفى ذلك عن العباد ليجتهدوا في اجتناب المنهى عنه رجاء أن تجتنب الكبائر، ونظائره إخفاء الصلاة الوسطى وليلة القدر وساعة الإجابة ونحو ذلك.

وذهب بعض العلماء إلى تعريفها بالعد، من غير ضبطها بحد، فقيل: هي سبع واستدلوا على ذلك بخبر الصحيحين: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٢).

(١) رواه مسلم (٢٣٣).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٦) ومسلم (٨٩).



وعن ابن عباس قال: «هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع». وعن سعيد بن جبير أكبر تلامذته: (هي إلى السبعمئة أقرب يعني باعتبار أصناف أنواعها).

والأحاديث المصروفة بالكبائر نوعان:

منها ما صرح فيه بأنه كبيرة، أو أكبر الكبائر، أو أعظم الذنوب، أو موبق، أو مهلك، وما ذكر فيه نحو لعن، أو غضب، أو وعيد شديد.

فمن الأول خبر الشيخين: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثا: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وقول الزور، وكان متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»^(١).

ولهما أيضا أن رجلا قال للنبي ﷺ: «أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل الله ندا وهو خلقك قال: إن ذلك عظيم، ثم أي؟ قال: وأن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك»^(٢).

وروي أيضا: «من الكبائر شتم الرجل والديه، قيل وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»^(٣).

النوع الثاني:

ما رواه مسلم وغيره عن النبي ﷺ: «قال: ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، قال أبو ذر: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقلت: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: المسبل إزاره خيلاء» وفي روايات أخرى: «والمنان الذي لا يعطي شيئا إلا منه، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»^(٤).

(١) رواه البخاري (٥٩٧٦) ومسلم (٨٧).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧) ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠).

(٤) رواه مسلم (١٠٦).



ومنه أيضا قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»^(١) أي نيام.

واعلموا عباد الله وفقنا الله وإياكم لطاعته وأنالنا سوابغ رضاه ومهابته، أن الله تعالى حذر عباده من معصيته، بما أعلمهم به من نواميس ربوبيته، وأقامه من قوانين ألوهيته ووحدانيته، وكرره في الأمم من سطوات قهره وجبروته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَا أَتَيْنَا مُنْهَرًا﴾ [الزخرف: ٥٥]. أي أغضبونا وقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]. وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقال عز وجل: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وفي الصحيح: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها»^(٢).

وفي الصحيحين كذلك أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيره الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه»^(٣).

وفيها أنه ﷺ قال: «لا أحد أغير من الله، فلذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل»^(٤).

قال بلال بن سعد: (لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عصيت).

وقال الحسن بن آدم: (ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة).

وقال محمد بن كعب القرظي: (ما عبد الله بشيء أحب إليه من ترك المعاصي).

(١) رواه البخاري (٦٠٥٦) ومسلم (١٠٥).

(٢) حسنه الألباني في شرح الطحاوية (٣٠٢).

(٣) رواه البخاري (٥٢٢٣) ومسلم (٢٧٦١).

(٤) رواه البخاري (٤٦٣٤) ومسلم (٢٧٦٠).



ويؤيده قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»^(١).

فأتى بالاستطاعة في جانب المأمورات ولم يأت بها في جانب المنهيات، إشارة إلى عظم خطرها وقبح وقعها تنويهاً إلى أنه يجب بذل الجهد والوسع في المباحة عنها، سواء استطاع ذلك أم لم يستطع بخلاف المأمورات.

قال حذيفة: «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، حتى يصير قلبه كله أسود»، ويؤيده قول السلف: (المعاصي بريد الكفر) أي: رسوله؛ باعتبار أنها إذا أورثت القلب هذا السواد وعمته لم يقبل خيراً قط، فحينئذ يقسو ويخرج منه كل رحمة ورأفة وخوف، فيرتكب ما أراد ويفعل ما أحب، ويتخذ الشيطان ولياً من دون الله، ويضله، ويغويه ويعده ويمنيه ولا يرضى منه بدون الكفر ما وجد له إليه سبيلاً.

قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْشَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۝١١٧ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝١١٨ وَلَا ضَلَالَتَهُمْ وَلَا مَئِينَهُمْ وَلَا مَرْثَهُمْ فَلْيُبَيِّنْ لَهُمْ آيَاتِنَا فَالْيَعِزُّ رَبُّهُ فَانْقَسَىٰ أَعْيُنُهُمْ الْغُشَاةُ وَخَسِرَ خَسْرًا ۝١١٩ وَيَعِزُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۝١٢١﴾ [النساء: ١١٧-١٢١].

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

اعلموا عباد الله أن أعظم زاجر عن الذنوب هو خوف الله تعالى وخشية انتقامه وخطوته والرهبة من عقابه وسخطه، قال أبو الفرج ابن الجوزي: (الخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإذا كانت فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة، وبقدر ما يكف عن المعصية، ويحث على الطاعة، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة، وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة والأعمال الفاضلة التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، كما علم من الآيات والأخبار، كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]. وقال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]. قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وكل ما دل على فضيلة العلم يدل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم.

واعلموا أن البكاء إما من حزن، وإما من وجع، وإما من فزع، وإما من فرح، وإما شكرا، وإما من خشية الله تعالى، وهذا هو أعلاها درجة وأعلاها ثمنا في الدار الآخرة، وأما البكاء للرياء والكذب فلا يزداد صاحبه به إلا طردا وبعدا ومقتا.

وحق لمن لم يعلم ما جرى له به القلم في سابق علم الله تعالى، من سعادة مؤبدة، أو شقاوة مخلدة، وهو فيما بين هاتين الحالتين قد ركب المحرمات، وخالف خالقه في المنهيات، أن يكثُر بكاءه وأسفه وحزنه ونحيبه ولهفه، وأن يهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأن يجأر إلى الله تعالى على ما سلف منه، من سوابق مخالفاته، وقبائح شهواته، عسى الله أن يوفقه إلى التوبة النصوح، وأن يخرج من ظلمات الجهل والعصيان إلى العلم والطاعة، وما لهما من ثمرات المعرفة والفتوح.

قال بعضهم: (أرق الناس قلوبا أقلهم ذنوبا).



وقال ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له»^(١).

ومن ثم غلب الخوف على الأنبياء والرسل والعلماء والأولياء، وغلب أمن المكر على الظلمة الأتغيا، والفراغة الأغبياء، والجهلة والعوام، الرعاع والطغام، حتى كأنهم حوسبوا وفرغ منهم، فلم يخشوا سطوة العقاب، ولا نار العذاب، ولا بعد الحجاب: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

وفي صحيح البخاري عن أم العلاء - امرأة من الأنصار - «أنهم اقتسموا المهاجرين أول ما قدموا عليهم بالقرعة قالت: فطار لنا أي وقع في سهمنا عثمان بن مظعون، من أفضل المهاجرين وأكابرهم ومتعبدتهم، ومن شهد بدرا، فاشتكى فمرضناه، حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه، دخل علينا رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله تعالى - فقال لي رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال: أما عثمان فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير، ثم قال رسول الله ﷺ: «ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي». قالت: فوالله لا أزكي أحدا بعده أبدا^(٢).

فتأملوا عباد الله زجره ﷺ عن الجزم بالشهادة على الله في عثمان، مع كونه شهد بدرا وقد قال ﷺ: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٣).

وقد قبله ﷺ لما مات، ووصفه بأعظم الأوصاف وأفضلها، وكان أول من قبر في البقيع. فهذا يدلنا عباد الله على أنه ينبغي لنا وإن عملنا من الطاعات ما عملنا، أن نكون على حال الخوف والخشية من الله تعالى، وعذابه وأليم عقابه، فإنه لا يجب عليه لأحد من خلقه شيء: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

(١) صحيحه الألباني في غاية المرام (٢٠٨).

(٢) رواه البخاري (٢٦٨٧).

(٣) رواه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤).

ومن العجيب أن قوله تعالى: ﴿وَلِيَّ لَغَفَارٍ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. ربما فهم منه بعض من لا تأمل له، أن فيه رجاء عظيم، وأي رجاء عظيم فيه، مع كونه تعالى شرط للمغفرة أربعة شروط: التوبة، والإيمان الكامل، والعمل الصالح، ثم سلوك سبيل المهتدين، من مراقبة الله تعالى وشهوده وإدامة الذكر والفكر والإقبال على الله تعالى بقلبه وحاله ودعائه وإخلاصه.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّيْنَا أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧].

ولا تغتر بما قيل: عسى من الله واجبة الوقوع، فإن ذلك أكثرني لا كلي، قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. وفرعون لعنه الله لم يتذكر ولم يخش، بل نبهك الله تعالى على أنك إذا تبت توبة نصوحا، وآمنت إيمانا كاملا وعملت صالحا، كنت على رجاء حصول الفلاح لك والهداية والقرب من حضرة الحق، فإياك وأن تأمن مكر الله واستحضر قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠٢] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُوَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُفِيَ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ [هود: ١٠٢-١٠٦].

سئل سعيد بن جبير عن الخشية فقال: (أن تخشى الله تعالى حتى تحول خشيته بينك وبين معاصيه، فهذه هي خشيته، وأما الغرة بالله فهي أن يتهادى الرجل في المعصية، ويتمنى على الله المغفرة).

وعن يحيى بن معاذ قال: (من أعظم الاغترار أن المذنب يرجو العفو من غير ندامة، ويتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، ويتنظر الجزاء بلا عمل، ويتمنى على الله مع الإفراط).

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك..





آفات اللسان وأضراره (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله العزيز الحميد، الفعال لما يريد، أمر عباده بالقول السديد، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، القائل: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أشرف الخلق وأزكاهم، وأعبدُهم وأتقاهم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم المزيّد. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

عباد الله: اتقوا الله تعالى واحفظوا جوارحكم، وتحروا طيب الأقوال وجميل الكلام، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ أَعْضَاءَ كُلِّهَا تَكْفُرُ اللِّسَانُ فَتَقُولُ اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا» (٢).

فاللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فهو صغير الحجم عظيم الطاعة والجرم، له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سحب، ولقد تساهل كثيرًا من الناس في حفظ ألسنتهم فأطلقوا لها العنان، وتساهلوا في الاحتراز من آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحباله، فإن لهذا اللسان آفات عظيمة انتشرت بين الناس، نشأ عليها الصغير، ودرج عليها الكبير، وتساهل بها الكثير. آفات عظيمة تَوَلَّدَتْ مِنْهَا الْأَحْقَادُ، وَثَارَتْ الضَّغَائِنُ، وَهَاجَتْ بِسَبَبِهَا رِيَّاحُ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ. آفات عظيمة تغضب الرب جل وعلا، وتخرج

(١) أحمد بن محمد مخترش.

(٢) حسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٤٠٧).



العبد من ديوان الصالحين، وتدخله في زمرة العصاة الفاسقين، أجارنا الله وإياكم وجميع المسلمين.

فمن هذه الآفات: السخرية والاستهزاء والتنازع بالألقاب، يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَتَمُّ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] ولقوله ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(١)، والسخرية تعني الاستهانة والتحقير والتشهير بالعيوب والنقائص على وجه يضحك، وأشد أنواع الاستهزاء وأعظمها خطرًا: الاستهزاء بالدين وأهله، ولقد تعددت أنواع السخرية والاستهزاء بمظاهر الدين، فهناك مَنْ يهزأ بالحجاب، وآخر يسخر بتنفيذ الأحكام الشرعية، ولمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر نصيب من هذه السخرية.. وكما أن سنة نبينا محمد ﷺ أيضًا لها نصيب من مرضى القلوب، فظهر الاستهزاء ببعض السنن النبوية والآداب المحمدية، وقد قال تعالى عن قوم خاضوا في الاستهزاء من مظاهر الدين: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَلَنَعْبُدُ قُلَّ بِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْذَرُوا فَمَنْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ يُعَذِّبُ طَآئِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿[التوبة: ٦٥-٦٦].

ومن الآفات: الفحش والسب واللعن وبذاءة اللسان، وللأسف فإن هذه الأمور قد انتشرت كثيرًا بين الناس في هذا الزمان، فتجد الوالد والأُم يسبان أبناءهم ويلعنونهم، وكذلك الصديق يسب ويلعن صديقه، حتى الطفل الصغير تجده قد تعود كيل السباب واللعن للآخرين، وربما فعل ذلك بآبيه وأمه، وهذا كله لنقص التربية وتعليم الآداب والحث على مكارم الأخلاق، فإن السباب والطعن واللعن يخرج صاحبه من الإيمان، ويصيره إلى منزلة الفساق الفجار، قال ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).



بالبذيء»^(١)، وقال ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»^(٢)، قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: (السَّبُّ في اللغة: الشتم والتكلم في عرض الإنسان بما يعنيه. والفسق في اللغة: الخروج، والمراد به في الشرع: الخروج عن الطاعة). فسبَّ المسلم بغير حق حرام بإجماع الأمة، وفاعله فاسق كما أخبر به النبي ﷺ. فهل تصور أولئك الذين يطلقون ألسنتهم سبًّا وشتْمًا وانتهاكًا لأعراض المسلمين، أنهم يكونون فُساقًا خارجين عن طاعة الله ورسوله، وأن ذلك يوردهم موارد الهلكة ومراتب الحسرات، قال النبي ﷺ: «سباب المسلم كالمشرف على الهلكة»^(٣).

وأحذر أيها الأخ الكريم أن تكون سببًا في سبِّ والديك فتكون كمن سبهما، فقد قال النبي ﷺ: «من الكبائر شتمُ الرَّجُلِ والِدَيْهِ. قالوا: يا رسولَ الله! وهل يشتمُ الرَّجُلُ والِدَيْهِ؟ قال: نعم. يسبُّ أبا الرَّجُلِ، فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمَّه، فيسبُّ أمَّه»^(٤)، ومن المؤسف أن ذلك قد انتشر بين أبناء المسلمين وشبابهم، نسأل الله أن يصلحهم.

ومن آفات اللسان: اللعن، واللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله، وقد ورد في اللعن وعيدٌ شديد وتهديدٌ أكيد، قال ﷺ: «لعن المؤمن كقتله»^(٥) ولقد أخبر النبي ﷺ عن تأخر منازل اللعانيين يوم القيامة فقال: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»^(٦). ويقول ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا بالبذيء»^(٧)،

وقد بلغ الأمر ببعض الناس أنه لم يسلم من لسانه أحد، فتراه يسبُّ ويلعن ويضرب كل شيء قد يغضبه حتى ولو كان حيوانًا أو جمادًا، ولقد نهى النبي ﷺ عن سبِّ أو لعن كل شيء لا يستحق اللعن، حتى ولو كان حيوانًا أو جمادًا، فعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن رجلاً لعن

(١) صحيح الترمذي (١٩٧٧).

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٤) ومسلم (٦٤).

(٣) السلسلة الصحيحة (١٨٧٨).

(٤) رواه مسلم (٩٠).

(٥) رواه البخاري (٦١٠٥) ومسلم (١١٠).

(٦) رواه مسلم (٢٥٩٨).

(٧) صحيح الترمذي (١٩٧٧).



الريح عند رسول الله ﷺ فقال: «لا تلعن الريح فإنها مأمورة، من لعن شيئاً ليس له بأهل؛ رجعت اللعنة عليه»^(١). هل تعلم أخي أين تذهب هذه اللعنة؟ هل تدري أيها اللعان أن لعنتك تصعد إلى السماء، فيهرب أهل السماء منها خشية أن تصيبهم؟! ثم أنها تهبط إلى الأرض بعد ذلك فتهرب الكائنات منها خشية أن تصيبهم؟! ثم تعود إليك إذا كان من لعنت لا يستحق لعنتك؟ فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها، ثم تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يميناً وشمالاً، فإن لم تجد مساعاً رجعت إلى الذي لعن، فإن كان أهلاً، وإلا رجعت إلى قائلها»^(٢).

ولست أنا ولا أنت الذي يقرر من يستحق اللعنة، بل هذا الأمر يعلمه الله فقط، وليس كل من أغضبك أو خالفك أو أخطأ في حقك يستحق اللعن كما تظن أو تعتقد، فلماذا تحمل نفسك أخي هذا الذنب العظيم، وتصر على هذا الجرم الكبير؟ ألا تخشى أن ترجع إليك لعنتك فتكون سبباً في طردك من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وتكون من المبعدين المقبوحين؟ وبما من تسب وتلعن أبناءك! لماذا لا تعود لسانك الدعاء لهم بالهداية والصلاح؟ فكم من شاب قد غرق في لجج المعاصي والآثام، ولم يوفق في شيء، بسبب دعوة أو لعنةٍ لعنها إياه أحد والديه فوافقت ساعة إجابة، والله المستعان.

ومن آفات اللسان: آفة الكذب، والكذب جماع كل شر، وأصل كل ذم، وهو من صفات الكافرين ولا يمكن أن يكون من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، وهذه الخصلة أولى صفات المنافقين، قال ﷺ: «أربعٌ من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا

(١) صحيح الترمذي (١٩٧٨).

(٢) حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٩٠٥).



خاصم فجر»^(١). لو تفكر الكذاب في شدة عقابه يوم القيامة؛ لردعه ذلك عن هذا الخلق الذميم! ففي الحديث الطويل الذي يرويه سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في رؤيا النبي ﷺ التي قصها على أصحابه.. قال: «فأتينا على رجل مُستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكُؤوب من حديد! وإذا هو يأتي شِدْقِي وجهه، فيُشْرِشُرُ شِدْقَهُ إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه! ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل في الجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان! ثم يعود عليه، فيفعل مثلما فعل المرة الأولى، فقلت لهما من هذا؟ فقالا: إنه الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق»^(٢)، فتأمل أيها العاقل في شدة هذا العذاب! هل يطيقه أحد؟ إياك وإياك والكذب، وإنك لتجد بعض الناس مغرماً باختلاف الأخبار والقصص لإضحاك الناس وتسليتهم! ومثل هذا توعده النبي ﷺ بالويل، فقال: «ويلٌ للذي يحدث فيكذب؛ ليضحك به القوم، ويلٌ له، ويلٌ له»^(٣).

لا يكذب المرء إلا من مهاتته
أو فعله السوء أو من قلة الأدب
لبعض جيفة كلبٍ خير رائحةٍ
من كذبة المرء في جدٍّ وفي لعبٍ

ومن الآفات: القذف، أن يقذف أحداً ويرميه بتهمة فعل الفاحشة والعياذ بالله، وهذا صاحبه ملعون في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣] فيا ويل هؤلاء من عذاب الله ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال، وليس بخارج»^(٤). ورددغة الخبال: عُصارة أهل النار، نسأل الله العافية من سخطه وعقابه.

(١) رواه البخاري (٣٤) ومسلم (٥٨).

(٢) رواه البخاري (٧٠٤٧).

(٣) صحيح أبي داود (٤٩٩٠).

(٤) صحيح الجامع (٦١٩٦).



ومن آفات اللسان: الغيبة، وهي ذكر غائبٍ بما يكره، وهي خصلة ذميمة لا تصدر إلا عن نفس دنيئة، اشتغلت بعيوب الناس عن عيوبها، وانصرفت عما يعينها إلى ما لا يعينها، والغيبة كما عرفها النبي ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره»^(١). وحذر منها سبحانه وتعالى فقال: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَجِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] وأخبرنا ﷺ عن قوم ليلة أسري به يأكلون الجيف، فلما سأل جبريل عنهم قال: «هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في غيبتهم»، فمن الناس من يطعن ويغتاب ويتكلم ويعيب في عرض أخيه، وذلك إما لحقده أو لحسده، أو لتطفله وقلة حياته، فليتقي الله هذا وأمثاله، وليعلم المغتاب أنه متعرض لسخط الله تعالى ومقته، وأن الغيبة محبطة لحسناته يوم القيامة، فعليك أخي أن تتدبر وتشتغل بعيوبك عن عيوب غيرك، فربما كنت أكثر منهم عيبا، وهل ترضى أن يغتابك أحد بما فيك من العيوب؟ كلا والله، فكيف سيرضى غيرك بذلك. قال الشافعي وهو يذكر حُق المغتاب الذي هو بمثابة من يوزع حسناته على من اغتابهم، يقول: (لو كنت مغتابًا أحدًا لا غتبتُ أُمي، فهي أحق بحسناتي!).

ومن آفات اللسان: النميمة، وهي نقل الكلام بين الناس بقصد الإفساد وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم، تجد النمام يذهب إلى فلان ويقول له قال فيك فلان كذا وكذا ويذهب إلى الآخر ويقول قال فلان فيك كذا وكذا، فيشب العداوة بينهم، فالنميمة من كبائر الذنوب وهي سبب في عدم دخول الجنة وعذاب النار وعذاب القبر، قال ﷺ: «لا يدخل الجنة تَمَام»^(٢)، ومَرَّ عليه الصلاة والسلام بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»^(٣). وأن النمام يكون في أبعد المنازل يوم القيامة عن النبي ﷺ، قال ﷺ: «إن أحبكم إلي أحاسنكم أخلاقا، الموطؤون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلي المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة؛

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩).

(٢) رواه البخاري (٦٠٥٦) ومسلم (١٠٥) وهذا لفظه، واللفظ المتفق عليه: «لا يدخل الجنة قَتَاتٌ».

(٣) رواه البخاري (١٣٦١) ومسلم (٢٩٢).



الملتزمون للبرآء العيب»^(١). فانظر أخي إلى المنام وما أُعدَّ له من عقوبات، لا يدخل الجنة، معذبٌ في قبره، بعيد عن النبي ﷺ يوم القيامة، فهلا ابتعدت أخي عن هذا العمل المذموم، وأنكرت ونصحت وحذرت من نقل إليك كلام الناس فيك، ورفضت تصديقه وتأكدت من الواقع قبل تصديق كلامه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] ولقد أمر الله عزَّ وجلَّ نبيه بالإعراض عن هؤلاء فقال: ﴿وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَاَفٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿١٠﴾ هَٰذَا مَثَلٌ مِّمَّا يَنْمِيعُ﴾ [القلم: ١٠-١١] واعلم أخي أن من نقل إليك كلام الناس فيك أنه سينقل عنك ما لم تقله.

أيها المسلمون: هناك آفات للسان غير ما ذكرنا، نذكر منها إجمالاً: الكلام فيما لا يعينك، الخوض في الباطل، الغناء، شهادة الزور، وإفشاء السر، واليمين الغموس، والتعير والتوبيخ، وغير ذلك كثيرٌ جداً.

وهناك عباد الله ألفاظ وعبارات نهت عنها الشريعة وحذر منها أهل العلم، ومن هذه الألفاظ: قول: شاءت الأقدار أو الظروف؛ فالأقدار والظروف لا تشاء وإنما هي بيد الله. وقول: وجه الله تفضل، أو وجه الله تأكل؛ وهذا لا يجوز لأنه استشفاع بالله على المخلوق. وقول: أعوذ بالله وبك، أو ما شاء الله وشئت. وقول بعض العامة: الله والنبي، أو الله ومحمد، وقول البعض اللهم اغفر لي إن شئت، وهذا منهي عنه. وقول البعض عن الميت: دُفن في مثواه الأخير، فإن المثوى الأخير هو الجنة أو النار، ومن ذلك قول البعض: ربنا افتركه، وهذا محرم لا يجوز؛ لأن ذلك لا يكون إلا لمن نسي ثم تذكر، ومن الألفاظ قول البعض إذا دُعي إلى الأكل قال: يأكل معكم الرحمن. وقول البعض: المرض الملعون، وهذا من تسخط أقدار الله، وقول البعض: يا حطب جهنم، وهذا لا يجوز. ومن الألفاظ قول البعض: فلان ما فيه خير أبداً، وهذا لا يجوز لأن المؤمن فيه خير وإن كان عاصياً.

نسأل الله أن يوفقنا لخير القول والعمل، وأن يقينا الزيغ والزلل، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم..

(١) حسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٦٥٨).

الخطبة الثانية:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى، وعلى أصحابه الأخيار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

أيها المسلمون: قد عرفنا شدة خطر اللسان، وما يجلبه على من أهمله وأطلق له العنان من ذنوب وأموارٍ عظام، فاللسان خطره عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بقلة الكلام والصمت عما لا ينفع، ولهذا حث النبي ﷺ على قول الخير والصمت عما سواه فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١)، وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إنك لن تزال سالماً ما سكتَ، فإذا تكلمت كُتِبَ لك أو عليك»^(٢). فاحفظ لسانك أخي فإن حفظ اللسان ملاك الخير كله، وهذا ما قاله النبي ﷺ لمعاذ بن جبل بعد أن ذكر له الإسلام والصلاة والجهاد ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله» قال بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «كُفْ عليك هذا» فقال معاذ: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُ الناس في النار على وجههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم»^(٣)، فحفظ اللسان إذن هو ملاك الخير كله، وسبيل الفلاح في الدنيا والآخرة. فأمسك لسانك أخي وأجمها بلجام التقوى، قال بعض السلف: (أعقل لسانك إلا عن حق توضحه، أو باطل تدحضه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تشكرها). فلا تطلق العنان للسانك أخي فتهلك، فرب كلمة تقولها لا تلقي لها بالاً يكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة والعياذ بالله، قال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»^(٤).

(١) متفق عليه.

(٢) حسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٨٦٦).

(٣) صحيح الترمذي (٢٦١٦).

(٤) صحيح الجامع (١٦١٩).



فيا أيها المسلمون: احفظوا ألسنتكم، لا تطلقوها لها العنان فتهلككم، وإذا أردتم الكلام في شيء فتذكروا قول الله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] فما تلفظ يا عبد الله من قول، ولا تعمل من عمل، إلا كتب لك أو عليك، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِلْنَا مَالٌ هَذَا أَلْكَتَبَ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. فاعلموا أخواني، وأيقنوا تمام اليقين، أنكم محاسبون على كل كلمة تخرج من أفواهكم، فما جوابكم يوم القيامة إذا سئلتهم ألم تتكلم بكذا وكذا؟ ألم تقل في أخيك كذا وكذا؟ ما جوابكم إذا سئلتهم عن أذية المسلمين بألسنتكم؟ فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

ذكر الإمام مالك في الموطأ عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه دخل على أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يجبذ لسانه أي يحجره بشدة، فقال عمر: «مه! غفر الله لك، فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن هذا أوردني الموارد». من القائل؟ إنه أفضل أصحاب النبي والرجل الأول بعد الأنبياء والرسول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، القائل هو أبو بكر الصديق، انظر إلى حرصه على لسانه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه..

وقال رجل: رأيت ابن عباس أخذًا بثمرة لسانه وهو يقول: «ويحك! قل خيرًا تغنم واسكت عن شر تسلم». قال: فقال له الرجل: يا ابن عباس، مالي أراك أخذًا بثمرة لسانك وتقول كذا وكذا؟ قال ابن عباس: «بلغني أن العبد يوم القيامة ليس هو على شيء أحق منه على لسانه»، يعني لا يغضب على شيء من جوارحه أشد من غضبه على لسانه. أخرجه ابن المبارك وأحمد وأبو نعيم وأحمد في كتاب الزهد.

وقال عبد الله بن أبي زكريا: (عاجلت الصمت عشرين سنة - انظر للحساب.. انظر محاسبة النفس - عاجلت الصمت عشرين سنة فلم أقدر منه على ما أريد، وكان لا يدع أحدًا يغتاب في مجلسه، ويقول: إن ذكرتكم الله أعناكم، وإن ذكرتكم الناس تركناكم).

وكان طاووس بن كيسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعتذر من طول السكوت ويقول: (إني جربت لساني فوجدته لثيماً راضعاً). هؤلاء هم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.. فماذا نقول نحن عن ألسنتنا؟!



وأخرج وكيع في الزهد وأبو نعيم في الحلية من طريق جرير بن حازم قال: ذكر ابن سيرين رجلاً فقال: (ذلك الرجل الأسود.. يريد أن يعرفه.. ثم قال: أستغفر الله، إني أراي قد اغتبتته).

وقال بكر بن المنير سمعت أبا عبد الله البخاري يقول: (ما اغتبت أحداً منذ احتلمت، وأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً..) اسمع للثقة، والبخاري له كتب في الجرح والتعديل، ويقول الذهبي في سير أعلام النبلاء معلقاً على قول البخاري هذا: (صدق رَحْمَةُ اللَّهِ.. ومن نظر في كلامه في الجرح والتعديل علم ورعه في الكلام في الناس وإنصافه في من يضعفه، فإن أكثر ما يقول -يعني أشد ما يقول البخاري إذا أراد أن يجرح رجلاً - يقول: منكر الحديث، سكتوا عنه، فيه نظر، ونحو هذا، وقُلْ أن يقول: فلان كذاب، أو كان يضع الحديث، حتى أنه قال: إذا قلت: (فلان في حديثه نظر) فهو متهم واهن، وهذا معنى قوله (لا يحاسبني الله أني اغتبت أحداً) وهذا هو والله غاية الورع). انتهى كلام الذهبي.

وكان عبد الله بن وهب رَحْمَةُ اللَّهِ يقول: (نذرت أني كلما اغتبت إنساناً أن أصوم يوماً فأجهدني - يعني تعبت - فكنت أغتاب وأصوم أغتاب وأصوم.. فنويت أني كلما اغتبت إنساناً أن أتصدق بدرهم، فمن حُب الدراهم تركت الغيبة)، جرب هذا، كلما اغتبت أحداً أو ذكرته بسوء فادفع ولو ريالاً قليلة.. الله أعلم بحالنا.. أظن في آخر الشهر لن يبقى من راتبنا ولو ريالاً واحداً!

قال النووي في الأذكار: بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتماعاً، فقال أحدهما لصاحبه: (كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصى، والذي أحصيته ثمانية آلاف عيب، فوجدت خصلة إن استعملتها سترت العيوب كلها.. قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان !!)

قال إبراهيم التيمي: (أخبرني من صحب الربيع بن خثيم عشرين عاماً ما سمع منه كلمة تعاب).

وقيل للربيع: (ألا تذم الناس؟ قال: والله إني ما أنا عن نفسي براضي فأذم الناس؟ إن الناس خافوا الله على ذنوب الناس، وأمنوه على ذنوبهم)، وصدق رَحْمَةُ اللَّهِ، صدق.



ارجع لنفسك وانظر لعيوبها قبل أن تنظر لعيوب الآخرين وتتكلم فيهم.
وقال حماد بن زيد: بلغني أن محمد بن واسع كان في مجلس فتكلم رجل فأكثر الكلام، فقال له محمد: (ما على أحدهم لو سكت فتنقّى وتوقّى. أي اختار كلماته وحسب لها حسابها).

عباد الله: هلا تزودنا من الدنيا بالأعمال والأقوال والذكر الصالح، وهلا تخلقنا بالأخلاق والأقوال الحسنة، بعيدين عن الأخلاق والأقوال السيئة، وهلا تعقلنا واتخذنا من رسولنا ﷺ قدوة وأسوة، وهلا رطبنا ألسنتنا بذكر الله وتلاوة كتابه، وهذبناه بالتقوى، وصناها وحفظناها من الأقوال والألفاظ السيئة، فيا لقرة عين من سلك بلسانه طريق الخير؛ من ذكر وتلاوة واستغفارٍ وتحميدٍ وتسبيحٍ وشكرٍ وتاب، ويا لخيبة من سلك بلسانه طريق الشر، من كذبٍ وهتكٍ للأعراض وجرحٍ للحرمان وأذى به الناس، فطوبى لعبد قال خيراً فغنم، أو سكت عن الشر فسلم.

فاتقوا الله عباد الله، وصلوا وسلموا على من أمركم الله بالصلاة عليه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]...





الاتباع وذم الابتداع^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت
رسل ربنا بالحق المبين، أحمدُه سبحانه، أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا
الإسلام دينًا إلى يوم الدين، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ
الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ربُّ العالمين، وإله الأولين والآخرين، أتقن ما
صنع، فما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فتبارك الله أحسن الخالقين، وأكمل ما شرع،
فأغنى عن الزيادات والبدع، وحفظ الذكر فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل
من حكيم حميد.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبي الأمين، والرسول المبين، وإمام المتقين، وخيرة الله
من خلقه أجمعين، الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على بيضاء نقية،
لا يزيغ عنها إلا هالك: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ
الْمُؤْمِنِينَ تُولَِّهِ مَا يَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] صلى الله عليه وعلى آله
وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

(١) حسين بن عبد العزيز آل الشيخ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

جاء رجل إلى إمام دار الهجرة مالك بن أنس، في مدينة النبي ﷺ، فقال له: من أين أُحرم يا إمام؟ فقال له مالك: (أُحرم من ذي الخليفة، من حيث أُحرم رسول الله ﷺ). فقال: ولكنني أريد أن أُحرم من المسجد من عند القبر؟ فقال له الإمام: لا تفعل، رحمك الله، فإني أخشى عليك الفتنة. فقال الرجل: وأي فتنة هذه؟ إنها هي أميال أزيدها؟ فقال مالك: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها الرسول ﷺ، إني سمعت الله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

أيها المسلمون: يقول تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ لم يتركاً في سبيل الهداية لقائل ما يقول، ولا أبقيا لغيرهما مجالاً يُعتدّ به، فالدين قد كُمّل، والسعادة فيما وضع، والطلبية فيما شرع، وما سوى الحق ليس إلا ضلالٌ وهتانٌ وإفكٌ وخسران، والعاقدة عليها بكلتا يديه مستمسكٌ بالعروة الوثقى، محصّل للخير دنيا وأخرى.

إخوة الإيمان دين الإسلام مبنيٌّ على أصلين عظيمين وركيزتين أساسيتين: الإخلاص لله جل وعلا والاتباع لهدي المصطفى ﷺ، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وخيرُ طريق يكون به الاتباع المحمود ويحصل به الاقتداء المنشود هو طريق نبينا ﷺ؛ إذ هو المعين الصافي، ومصدر النور والهدى، وإشعاع الخير والفلاح والزكاء، والبعد عن هذا الطريق والجنوح عنه بليّة عظمية وفتنة كبرى يدعو إليها إبليس وحزبه، يستغلّ جهل بعض المسلمين لدينهم وميلهم إلى أهوائهم، فيزيّن لهم ما ليس بمشروع، ويُحسن لهم ما ليس بمحمود، يُحدث لهم رهبانيّة مبتدعة وشرائع محدثة تنأى بهم عن علم السنّة المطهرة، يُسوِّغ لهم التعصّب للأراء والرّجال ليحول بين المرء واتباع الدليل وسبيل الحق، وبذا انحرف بعض عن سواء السبيل، فشوّها حقيقة الدين، وأصبحوا لا يفرّقون بين حقّ وباطل، ولا يعرفون



السنة من خلافها، فظنوا الحسن قبيحًا والقبيح حسنًا، فصدق فيهم قول المولى جل وعلا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، فما يفتح لهم الشيطان بابًا من الضلال إلا وجوه، ولا يُزَيِّن لهم طريقًا من طرق البدع إلا سلكوه.

أيها المسلمون: لا شيء بعد الشرك أعظم فسادًا للدين وأشدّ تقويضًا لبنانه وأكثر تفريقًا لشمل الأمة من البدع؛ فهي تفتك به فتك الذئب في الغنم، وتنخر فيه نخر السوس في الحب، وتسري في كيانه سريان السرطان في الدم، وتشتعل فيه اشتعال النار في الهشيم، فلقد جعلت المسلمين شيعًا وأحزابًا، شتت شملهم، وجعلتهم لقمة سائغة لأعدائهم؛ إذ فيها البعد عن الصراط المستقيم والهدي المستبين، وقد قال الله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ومن هنا إخوة الإيثار جاءت النصوص المتكاثرة والأدلة المتضاربة في وجوب اتباع السنة والتحذير من البدعة وبيان سوء عاقبتها في الدنيا والآخرة، يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير هذه الآية: «تَبْيَضُّ وجوه أهل السنة، وتَسْوَدُّ وجوه أهل البدع». ويقول عزّ شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ولذا فمن له عقل رشيد ورأي سديد يجد عظم المصائب والفتن التي وُجدت في هذه الأمة عبر تاريخها إنما ترجع في أصلها ولو من طرف خفي إلى الإفراط أو التفريط، الغلو أو التقصير، في هدي النبي ﷺ، وما تفرقت الأمة أحزابًا وشيعًا إلا بسبب التنكب عن الصراط المستقيم والهدي النبوي الكريم، ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسَكُمْ شِيعًا وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بِأَسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال مجاهد وغيره: (هذه لأمة محمد ﷺ).

أتباع محمد ﷺ!

لقد كان نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام حريصا على أمته مشفقا عليهم رَحِيمًا بِهِمْ، فحذّرهم من الابتداع أشد التحذير، وأوصاهم باتباع سنّته وسنّة خلفائه الراشدين، فقال:



«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين؛ عَضُّوا عليها بالنواجذ»^(١)؛ فلا تخالفوا أمره، ولا تنتهجوا غير نهجه، تمسكوا بهديه، واستنوا بسنته؛ يكن منهجكم سويًا سليمًا وصحيحًا مستقيمًا، فإن ما خالف هديه ليس بدين مقبول، ولا شرع متبوع، في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(٢)، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٣)، قال العلماء: (وهذا الحديث ثلث العلم؛ لأنه جمع وجوه أمر المخالفة لأمره ﷺ).

لقد أوجز لنا ﷺ مكمّن الخير ومستودع السلامة والأمن في اتباع سنته وهديه، وأبان لنا أصل الشر والفساد بما ابتدّع في دينه مما لم يأت عنه قولًا وفعلاً، فيقول محدّثًا: «وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كلَّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(٤). وكان ﷺ يقول في خطبته يوم الجمعة: «أما بعد: فإن خير الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هديُّ رسولِ الله، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكلَّ بدعة ضلالة»^(٥).

أيها المسلمون: إن النبي ﷺ -وهو رسول الله- لم يكن ليزيد في شرع الله من عنده ما ليس منه، فهو القائل كما أمره ربه: ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٠]، فلم يكن ينطق إلا بما أمر، ولم يكن يشرّع إلا وفق ما أوتي، ما أحل إلا ما أحله الله لعباده، ولا حرم إلا ما حرم الله عليهم.

وعلى نهج السنة والهدى سار سلفنا الصالح من صحابة رسولنا ﷺ وأتباعهم وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين من أهل الحديث والأثر، فهم بالوحيين مستمسكون، وعن غيرهما حائدون، وبذا فازوا بحُسن الثناء، وعظيم السيرة والهدى، أجمعت أقوالهم على ذم البدع والنهي عنها والتحذير من عاقبتها.

(١) صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

(٣) رواه مسلم (١٧١٨).

(٤) صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٥) رواه البخاري (٧٢٧٧) ومسلم (٨٦٧) واللفظ له.



فهذا صديق الأمة أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إنما أنا متَّبِعٌ، وليس بمبتدعٍ، فإن استقمْتُ فتابعوني، وإن زغتُ فقوموني»، وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُلُّ عِبَادَةٍ لَا يَتَعَبَّدُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَا تَعَبَّدُوهَا؛ فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَمْ يَدْعَ لِلْآخِرِ مَقَالًا».

كَلِيَّةٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهَا، وَأَصْلٌ مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَهُم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالَ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتَّبَعُوا آثَارَنَا، وَلَا تَبْتَدِعُوا، فَقَدْ كُفَيْتُمْ»، وَبَنِيهِ حَبْرُ الْأَمَّةِ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَى لُزُومِ الْإِتِّبَاعِ وَالْحَذَرِ مِنَ الْإِبْتِدَاعِ فَيَقُولُ: «عَلَيْكُمْ بِالْأَثَرِ، وَإِيَّاكُمْ بِالْبَدْعِ، فَإِنَّ مِنْ أَحَدَثٍ رَأْيًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَمْ تَمُضْ بِهِ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَدِرْ مَا هُوَ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»، وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْصِي مِنْ لِقِيهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالِاتِّبَاعِ وَتَرْكِ الْإِبْتِدَاعِ.

وَهَا هُمُ التَّابِعُونَ لَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ يَأْخُذُونَ مِنْهُمْ بِجَهْمٍ وَيَرْتَسِمُونَ خَطَاهُمْ، فَقَدْ جَاءَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَوْلُهُ: (صَاحِبُ الْبِدْعَةِ لَا يَزِدَادُ اجْتِهَادًا مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ إِلَّا اِزْدَادٌ مِنَ اللَّهِ بُعْدًا).

وَأَسْمِعْ أَخِي الْمُسْلِمَ لَجْهَازَ مِنْ جَهَايِزَةِ الْحَدِيثِ وَعَلَمَ مِنْ أَعْلَامِ السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ إِذْ يَقُولُ: (اعْلَمْ أَخِي، أَنَّ الْمَوْتَ كَرَامَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ عَلَى السُّنَّةِ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَإِلَى اللَّهِ نَشْكُو وَحَشْتَنَا وَذَهَابَ الْإِخْوَانِ وَقِلَّةَ الْأَعْوَانِ وَظُهُورَ الْبَدْعِ، وَإِلَى اللَّهِ نَشْكُو عَظِيمَ مَا حَلَّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ ذَهَابِ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَظُهُورِ الْبَدْعِ).

وَمِنْ مُحَاسِنِ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: (اِخْتِلَافُ النَّاسِ كُلُّهُمْ يَرْجِعُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصُولٍ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا ضِدٌّ، فَمَنْ سَقَطَ عَنْهُ وَقَعَ فِي ضِدِّهِ: التَّوْحِيدُ وَضِدُّهُ الشِّرْكُ، وَالسُّنَّةُ وَضِدُّهَا الْبِدْعَةُ، وَالطَّاعَةُ وَضِدُّهَا الْمَعْصِيَةُ). وَمَا أَرُوْعَ كَلَامَ الْجَنِيْدِ حِينَ يَقُولُ: (الطَّرْقُ كُلُّهَا مَسْدُودَةٌ عَلَى الْخَلْقِ إِلَّا عَلَى مَنْ اقْتَفَى أَثَرَ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَا مَقَامَ أَشْرَفَ مِنْ مَقَامِ مُتَابَعَةِ الْحَبِيبِ ﷺ فِي أَوَامِرِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ).

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْبِدْعَةُ مَا أُحْدِثَ فِي الدِّينِ عَلَى خِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَالْأَرْبَعَةُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ، إِمَّا بِالْإِعْتِقَادِ بِخِلَافِ الْحَقِّ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَإِمَّا بِالتَّعَبُّدِ بِمَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ مِنَ الْأَوْضَاعِ وَالرُّسُومِ الْمُحْدَثَةِ.

وليس في الدين بدعةٌ حسنة، قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: (فَقَوْلُهُ ﷺ: «كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١). مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ، لَا يُخْرِجُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَهُوَ أَصْلُ عَظِيمٍ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ، فَكُلُّ مَنْ أَحْدَثَ شَيْئًا وَنَسَبَهُ إِلَى الدِّينِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ مِنَ الدِّينِ يَرْجِعُ إِلَيْهِ؛ فَهُوَ ضَلَالَةٌ وَالدِّينُ بَرِيءٌ مِنْهُ، وَسَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْإِعْتِقَادَاتِ أَوْ الْأَعْمَالِ أَوْ الْأَقْوَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ)، وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ إِمَامِ دَارِ الْهَجْرَةِ الْإِمَامِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ إِذْ يَقُولُ: (مَنْ ابْتَدَعَ فِي الْإِسْلَامِ بَدْعَةً يَرَاهَا حَسَنَةً فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ خَانَ الرِّسَالَةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿أَيُّومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣])، فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمُئِذٍ دِينًا فَلَا يَكُونُ الْيَوْمَ دِينًا).

يَا دُعَاةَ الْخَيْرِ! الْعِلْمُ أَمَانَةٌ أَنْتُمْ مُطَالِبُونَ بِأَدَائِهَا وَإِظْهَارِهَا، وَإِظْهَارُ الْعِلْمِ هُوَ إِظْهَارُ السَّنَةِ وَالِدُّعَاةُ إِلَيْهَا بِكُلِّ مُمْكِنٍ، قِيلَ لِلْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ رَحِمَهُ اللهُ: مَا إِظْهَارُ الْعِلْمِ؟ قَالَ: (إِظْهَارُ السَّنَةِ).

والتنبيه على البدع سبيلُ الصالحين ومنهج الصحابة والتابعين، ولكن ذلك يحتاج إلى فقه، ليحقق مقاصد الشارع، فيكون بالحكمة والموعظة الحسنة، والموازنة بين الحزم واللين، والمصلحة والمفسدة، والأهم والمهم، قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ وهو في القرن الأول: «أَلَا وَإِنِّي أَعَالِجُ أَمْرًا لَا يَعِينُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ، قَدْ فَتِنِيَ عَلَيْهِ الْكَبِيرُ، وَكَبُرَ عَلَيْهِ الصَّغِيرُ، وَفَصَحَّ عَلَيْهِ الْأَعْجَمِيُّ، وَهَاجَرَ عَلَيْهِ الْأَعْرَابِيُّ، حَتَّى حَسْبُوهُ دِينًا، لَا يَرُونَ الْحَقَّ غَيْرَهُ»، لَذَا كَانَ يَأْخُذُ النَّاسَ بِالتَّدْرِجِ شَيْئًا فَشَيْئًا، فَمَاذَا نَقُولُ نَحْنُ الْيَوْمَ؟

ويقول ابن مسعود رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ عِنْدَ كُلِّ بَدْعَةٍ كَيْدَ بَهَا الْإِسْلَامَ دَلِيلًا مِنْ أَوْلِيَائِهِ يَذُبُّ عَنْهُ وَيَنْطِقُ بِعَلَامَتِهَا، فَاعْتَنِمُوا حُضُورَ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ، وَكُفَى بِاللَّهِ وَكَيْلًا».

وإن سكوت من يعلمون عن الإنكار على البدع وأهلها يصيرها وكأنها سننٌ مقررات وشرائع محررات، قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: (إِنَّ السَّلَفَ رَحِمَهُمُ اللهُ تَشَدَّدَ أَلَسْتَهُمْ عَلَى أَهْلِ الْبَدْعِ وَتَشَمَّرَ قُلُوبُهُمْ مِنْهُمْ وَيَحْذَرُونَ النَّاسَ بِدَعَتِهِمْ، وَلَوْ كَانُوا مُسْتَتَرِّينَ بِدَعَتِهِمْ دُونَ النَّاسِ مَا كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَهْتِكَ سِتْرًا عَلَيْهِمْ وَلَا يَظْهَرَ مِنْهُمْ عَوْرَةٌ، اللَّهُ أَوْلَى بِالْأَخْذِ بِهَا وَبِالتَّوْبَةِ عَلَيْهَا،



فأما إذا جاهرُوا بها فنشر العلم حياة، والبلاغ عن رسول الله ﷺ رحمة، يُعتَصَم بها على مُصِرٍّ ملحد).

ثم إنَّ منهجَ السلف عدمُ الإسراف في إطلاقِ كلمة البدعة على كلِّ أحد خالف بعض المخالفات، إنها يصفون بالبدعة من فعل فعلاً لا أصل له من الشرع ليتقرب به إلى الله جلَّ وعلا، فليس كلُّ عاصٍ ومخطئٍ مبتدعاً.

ومنهج السلف رَحْمَةُ اللَّهِ مع المبتدع مناصحته وإقامة الحجة عليه بكلِّ حكمة ولين، ومتى عاند واستكبر عن الحقَّ وجب هجره إن كانت بدعته مكفرة، وإن كانت دونَ ذلك فالأصل هو الهجر إلا إن كان في هجره مفسدة وكان في مجالسته مصلحة ظاهرة لتبيين الحق والتحذير من البدعة، وإلاَّ وجب الابتعاد عنه، ويلحق بذلك ترك النظر في كتب هؤلاء خوفاً من الفتنة بها أو ترويحها بين الناس، إلا لمن كان عنده من العلم والبصيرة ما يحذر به من شرِّها.

أيها المسلمون: من مفهوم الولاء والبراء في الدين عدمُ تعظيم المبتدع أو الثناء عليه مطلقاً، فهذا ذأب المؤمنين الصالحين المعتصمين بكتاب الله المهتدين بهدي رسول الله ﷺ.

فاتقوا الله عباد الله، واستجلبوا محبة الله باتباع هدي نبيه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كلِّ ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك تعظيماً لشأنه، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (أهل الإسلام في الناس غرباء والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع هم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً فلا غربة عليهم).

لقد بايع الصحابة محمداً ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والعسر واليسر، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن، متبعاً لأداب النبوة، حريصاً على التحلي بكريم الشرائع وجميل الفضائل، في الشدة والرخاء، والغربة والكربة، قال الإمام أحمد لإبراهيم بن هانئ: (ليس ينبغي أن يتبع الرسول ﷺ في الرخاء ويترك في الشدة).

وأوصى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ أحدَ ولاته فقال: «أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره وأتباع سنة نبيه ﷺ وترك ما أحدث المحدثون بعدما جرت به سنته وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة، فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة منها، فإن السنة إنما سنّها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتملق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فقد قصر قومٌ دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فضلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدي مستقيم».

قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «من كان منكم مستنّاً فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عيه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة وأبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم».



وقال أيضا: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه لرسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رأوا سيئا فهو عند الله سيء». وقد قال الله في نبيه وأصحابه: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة: ١٣٧].

قال الإمام أحمد: (أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والافتداء بهم). وقال لبعض أصحابه: (لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي، وخذ من حيث أخذنا)، أي: السنة وأحاديث النبي ﷺ!

خُذْ مَا أَرَدْتَ مِنْ الْأَنْبَاءِ وَدَعْ وَلَا تَتَشَدَّدْ
أَمَّا إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ فَغَضَّ طَرْفَكَ تَسْعِدْ
مَا اخْتَارَ رَبُّكَ أَسْوَةَ غَيْرِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

أيها المؤمنون: اجعلوا قدوتكم وقدوة أبنائكم وأهلكم أحاديث المصطفى وآداب النبوة، فإنه ليس في الدين قدوة مطلقة لمؤمن يرجو الله واليوم الآخر إلا النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، فطاعته طاعة الله، ومعصيته معصية الله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، طاعته هي الهداية بحذافيرها، ومعصيته هي الضلالة بعينها: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، من أطاعه عليه الصلاة والسلام واتبع هديه وسنته نال شرف محبة الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. فخذوا كل ما عنه جاءكم، واتبعوا كل ما صح من سنته عنكم، (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)،

فبالسنة الغراء كن متمسكا هي العروة الوثقى التي ليس تُفصم
تمسك بها مسك البخيل بماله وعض عليها بالنواجذ تسلم
ودع عنك ما قد أحدث الناس بعدها فمرتع هاتيك الحوادث أوخم



عليكم بسنة نبيكم، أحيوها في حياتكم، وتمثلوا آدابها في معاشكم؛ تفوزوا بخيري الدنيا والآخرة، فمن أراد النجاة فعليه بلزوم السنة واتباع الأثر، في قوله وفعله، فطوبى لمن كان محباً لهدي النبوة، ملتصقاً من مشكاتها، فلا تراه ينطق إلا بالخير، ولا يمشي إلا إلى خير، ولا يحرك جوارحه إلا بخير، بل لا يشتغل قلبه إلا بما يرضي الله، فهو محب لنبيه، متبع لهديه، يتحرى مواضع الاقتداء به قولاً وفعلًا، في حال الحضر والسفر، والصحة والمرض، والفقر والغنى، والرضى والغضب، يا طوبى لمن كان هذا حالهم، ما أقلهم هذه الأيام، وما أشد غربتهم بين الأناس، اللهم اجعلنا من أتباع نبيك، ومن أحب الناس إليه وأقربهم منه يوم القيامة.

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.





فضل العمل والتكسب (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله ذي النعم والآلاء، رازق الطير في السماء، والسماك في الماء، والدود في الصخرة الصماء، تكفل بالأرزاق وكتب الآجال، أشهد أن لا إله إلا هو ذو العزة والجلال، ومصرف الشئون والأحوال، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، نبي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد وعلى أزواج محمد وعلى أصحاب محمد، ما اتصلت عين بنظر، وأذن بخبر، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم المحشر.

أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

أيها الإخوة: خلق الله البشر في هذه الدنيا، وأنشأهم من الأرض واستعمرهم فيها، وتتعاقب على هذا الاستخلاف الأمم والأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ كل ذلك: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكْمَلُوا خَيْرًا مِمَّا أَرْسَلْنَاكُمْ فِيهَا﴾ [الملك: ٢].

والأحق بهذا الاستخلاف، والأجدر به عباد الله الصالحون، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا بَلَاءً لِقَوْمٍ عَكِيدِينَ ﴿ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٦].

ومن هنا فإن كل قصد من عمارة الأرض كما أمر الله تعالى فهو توجه محمود، وكل عمل في هذا السبيل من الأعمال الصالحات، وكل مجهود في سبيل الحق سعي مبرور.

إن هذا الدين يوجب على أهله أن يكونوا أجدر بالحياتين: الآخرة بالعمل الصالح، والدنيا بعمارة الأرض، واتخاذ أسباب القوة بخوض المجالات المشروعة من تجارة، وصناعة وحرفة، وقد حث الله تعالى على السعي والتكسب، من ذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١١].

فذكره في معرض الامتنان، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]. فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها، بل جعل سبحانه السعي في الكسب والمعاش عذرًا لترك قيام الليل الطويل والاكتفاء بيسيره، فقال: ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] أي مسافرون في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والتاجر. وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] أي: لطلب المكاسب والتجارات.

وعَنِ الْمُقَدَّامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»^(١). قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (والحكمة من تخصيص داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بالذكر، أن اقتصاره في أكله على ما يعمل به يده لم يكن من الحاجة؛ لأنه أوتي ملكًا عظيمًا وكان خليفة في الأرض كما قال الله -تعالى: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص ٢٦]).

وإنما ابتغى الأكل من طريق أفضل، ولهذا أورد النبي ﷺ قصته في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد.

(١) رواه البخاري (٢٠٧٢).



وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ»^(١).

هذا هو الخلق النبيل الذي تقتضيه المروءة، ويحث عليه الدين، أن لا يخضع الإنسان لأحد، ولا يذل لمخلوق، ولا يتكل على غير الله، بل يأكل من كسب يده، من عمله، وتجارته، وصناعته، وحرثه.

وقد رعى موسى الكليم لشعيب عشر حجج كمهر لزوجته، بل إن جميع الأنبياء كانوا رعاة أغنام، يقول النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ» فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطٍ لِأَهْلِ مَكَّةَ»^(٢).

(قراريط) جمع قيراط وهو جزء من النقد.

وكما أن كسب الحرام من أعظم الجرائر وأقبح الجرائم، فإن كسب الحلال من أعظم القربات وأجل الطاعات لمن احتسب أجر ذلك، والإنفاق على العيال أفضل الإنفاق على الإطلاق؛ فَعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفَقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفَقُهُ الرَّجُلُ عَلَى ذَاتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣) قَالَ أَبُو قَلَابَةَ: وَبَدَأَ بِالْعِيَالِ، ثُمَّ قَالَ أَبُو قَلَابَةَ رَاوِي الْحَدِيثِ: وَأَيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجْرًا، مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ، يُعْفُهُمْ أَوْ يُنْفَعُهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَيُعْزِيهِمْ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مُسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ»^(٤).

(١) رواه البخاري (٢٠٧٤).

(٢) رواه البخاري (٢٢٦٢).

(٣) رواه مسلم (٩٩٤).

(٤) رواه مسلم (٩٩٥).

ويقول ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمُسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَكَالْقَائِمِ لَا يَفْزُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ»^(١). والساعي: الكاسب لهما العامل لمؤنتهما، والأرملة من لا زوج لها، سواء كانت تزوجت قبل ذلك أم لا.

وإن من أعظم الآثام تضييع من تجب عليك نفقتهم، فـ «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»^(٢). وكفى به خذلاناً ومهانة أن يقضي وقته فيما لا ينفعه، يقول ابن مسعود: «إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَرَى الرَّجُلَ فَارِغًا، لَا فِي عَمَلِ الدُّنْيَا، وَلَا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ».

وكان زيد بن مسلمة يغرس في أرضه، فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أصببت؛ استغن عن الناس يكن أصون لدينك، وأكرم لك عليهم». وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إلي من موطن أتسوق فيه لأهلي أبيع وأشتري». ذلك ليس لعظم الدنيا في أعينهم، أو دخولها إلى قلوبهم، وإنما لحرصهم على كسب الحلال، واحتسابهم أجر النفقة على العيال، وفراهم من الحاجة إلى الناس.

وجاءت ريح عاصفة في البحر، فقال: أهل السفينة لإبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ - وكان معهم - فيها: أما ترى هذه الشدة؟ فقال: (ليست هذه الشدة، إنما الشدة الحاجة إلى الناس!). وقال أيوب: قال لي أبو قلابة: (الزم السوق؛ فإن الغنى من العافية) يعني الغنى عن الناس.

وَقَالَ ابْنُ الْجَوَزِيِّ: قِيلَ لِأَحْمَدَ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ جَلَسَ فِي بَيْتِهِ أَوْ مَسْجِدِهِ، وَقَالَ: لَا أَعْمَلُ شَيْئًا حَتَّى يَأْتِيَ رِزْقِي؟ فَقَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (هَذَا رَجُلٌ جَهْلُ الْعِلْمِ، أَمَا سَمِعَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْمِي»؟)^(٣).

وَقَالَ حِينَ ذَكَرَ الطَّيْرَ: «تَغْدُوا حِمَاً، وَتَرُوحُ بِطَانًا»^(٤).

(١) رواه البخاري (٦٠٠٧) ومسلم (٢٩٨٢).

(٢) رواه أبو داود وحسنه الألباني (١٦٩٢).

(٣) صحيح الجامع (٢٨٣١).

(٤) صححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٥٢٢٩).



فذكر أنها تغدوا في طلب الرزق، وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَجَرَّوْنَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَيَعْمَلُونَ فِي نَخْلِهِمْ، وَالْقُدُوءُ بِهِمْ، وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَيْسَ الْعِبَادَةُ عِنْدَنَا أَنْ تَصُفَّ قَدَمَيْكَ وَغَيْرُكَ يَقُوتُ لَكَ، وَلَكِنْ ابْدَأْ بِرَغِيْفِكَ فَاحْرُزْهُمَا ثُمَّ تَعَبَّدْ).

ورُوي أن الأوزعي لقي إبراهيم بن أدهم وعلى عنقه حزمة حطب، فقال له: يا أبا إسحاق إلى متى هذا؟ إخوانك يكفونك، فقال: دعني عن هذا يا أبا عمرو، فإنه بلغني أنه من وقف موقف مذلة في طلب الحلال، وجبت له الجنة).

أيها المؤمنون: إن الكسب بقدر الكفاية لنفسه وعياله، وقضاء دينه، ونفقة من يجب عليه نفقته؛ فرض من الفروض. ولا يجوز للقوي القادر أن يجلس، أو يسأل الناس، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»^(١).

لقد سُمي فقهاؤنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ حاجات الأمة من الأعمال والصنائع والحرف فروض كفايات، وهي صنوف متعددة لا يحسنها كل أحد، ولا يقوى عليها كل أحد، ولكن يحتاج إليها كل أحد، فإنها هي مواهب وقدرات، وهم متفاوتة، قسمها الله بين خلقه، في تنوع واختلاف ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، وليعمروا هذه الأرض التي استُخلفوا فيها، دون بطالة وتواكل، أو ملل وتكاسل.

فكان لا بد من ارتفاع الهمم، ونفض غبار الكسل، وإنك لا تكاد ترى سبباً لأنواع البطالات المكشوفة والمقنعة إلا سقوط الهمة، وفطور العزيمة، فالرجل إنما يترك الجد في طلب العمل، ويتهاون في السعي من أجل الرزق، حين تنحط همته، وتصغر نفسه، أما من شمر عن الساعد وضرب في الأرض ابتغاء فضل الله، فطرق الأبواب، وسلك المسالك، واستسهل كل صعب من أجل معالي الأمور، فهو الجدير بالحياة الكريمة، تأسيساً لبعضاء الرجال؛ الذين سعوا إلى غاية ما يمكنهم من التفوق والكمال.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: (فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يُتصور للآدمي صعود السموات لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض، ولو كانت النبوة تحصل

(١) رواه أبو داود وحسنه الألباني (١٦٩٢).



بالاجتهاد رأيتُ المقصرَ في تحصيلها في حضيض، غير أنه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن، والسيرة الجميلة عند الحكماء خروجُ النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل).

أسأل الله بمنه وكرمه أن يوفقَ شباب أمتنا للخير، وأن يجعلهم ممن يعمر الأرض حق العماره؛ إنه جواد كريم؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم..



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه؛ وبعد:

أيها الناس:

وإذا كان العمل يُلبسُ أهله لباس الاستغناء والكرامة، فإن البطالة ثوبُ حقارة فضفاض؛ يقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أرى الفتى فيعجبني فإذا قيل لا حرفة له سقط من عيني». ويقول أيضًا: «مَكْسَبَةٌ فيها دناءة خيرٌ من مسألة الناس».

ويأبى الرجال، أصحاب الهمم العالية، الرضا بالدون من العيش، حتى لو وجدوا ما يكفلُ لهم معاشهم؛ ها هو عبدُ الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يقبل عرض أخيه الأنصاري سعد بن الربيع، ليشاطره ماله، بل قال له حين عرض عليه نصف ما يملك: بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دلوني على السوق! فعمل في التجارة، حتى أصبح من أثرياء الصحابة، بل صار ينفق على المحتاجين ويساهم في تجهيز الجيوش في سبيل الله، وتسيير القوافل لنصرة دين الله.

إن البطالة -أيها الأحبة-: تجعل صاحبها مهيبض الجناح، كلاً على غيره، متطلعاً إلى ما عند الآخرين، لا يسلم من ذلة السؤال، يتنكرُ له العارفون ويستثقله حتى الأقربون، تنفكُ من حوله الأواصر، وتنقطع الصلات، وإنما والله مصيبة ماحقة، تحترق في سعيها الفضائل والمصالح، وتذوب في مضاعفاتها الأفراد والجماعات، ولا يرضاها أولو الألباب وأصحاب المروءات.

أيها الإخوة: إن الجد والنشاط في العمل من أعظم الأعمال وأجلها إذا صلحت النية، واسمعوا -يا رعاكم الله- إلى هذا الموقف العجيب؛ فعن كعب بن عجرة قال: مرَّ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَرَأَوْا مِنْ جَلْدِهِ وَنَشَاطِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ -يعني في الجهاد- فَقَالَ ﷺ: «إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ



كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعْقُهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ^(١).

أيها الإخوة: ليست هذه دعوة لتعظيم ما حقره الله من أمر الدنيا، ولا لمزيد التكالب عليها وتأجيج الطمع والهلع في الاستكثار منها، إلى الحد الذي يُنسي الآخرة ويُجحف في حقها، فإن ذلك من سوء التدبير وضعف التقدير، إنما المقصود هو العلم بفضيلة طلب الحلال، واحتساب ما يقوم به الإنسان من ذلك، وما ينفقه على نفسه وأهله ومن يعول، ولا يجعلها عادة من العادات فحسب أو سبيلاً للمباهاة والغرور بها أعطاه الله.. إنها يجعلها وسيلة لحفظ ماء الوجه عن مذلة السؤال والحاجة إلى الناس، وإغناء النفس عن الدخول في مداخل الرِّيب، والتجرؤ على مواطن الشُّبه، وتعدي الحدود وانتهاك الحقوق، ونحو ذلك مما قد توجهه الحاجة الناتجة عن البطالة،

وإن على الآباء والمربين، والقادة والمصلحين، أن يرشدوا الشباب إلى العمل ويحثوهم على علو الهمة وعزة النفس، وسلوك سبل الرزق الحلال، وأن يبينوا لهم طرق السعي في الخير، وأن يغرسوا فيهم حب العمل واحتساب ثوابه، وأن الكسب يحتاج إلى صبر ومثابرة، وحسن تدبير.

وإن من أهم أسباب البركة في الرزق: التزام الآداب والأخلاق، والصدق والأمانة، والعفة والصيانة، مع كثرة الاستغفار والدعاء، والابتغال إلى رب الأرض والسماء، فذلك كله مجلبةٌ للرزق مدعاةٌ للبركة.

ومن ذلك غرس اليقين في القلب، وقوة التوكل على الرب، لأن مفاتيح الرزق بيده، ومقاليذ الأمور كلها بيده، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، وعليه رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، كلٌّ في كتاب مبين.

واعلموا أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، وذلك كله بيد الله وحده، فهل يملك أحد أن ينقص من رزق مخلوق شيئاً؟ وهل يملك أحد أن ينقص من أجل مخلوق

(١) رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٢٨).



يومًا؟ كلا. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢]، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وذلك لا ينافي العمل، بل ما أجمل أن يجتمع بذل الأسباب وحسن التدبير مع صدق التوكل على العليّ القدير، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]، ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]. وقد قيل: الجوارح تعمل بالأسباب، والقلب يتوكل على رب الأرباب.

توَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ ولا تؤثرنَّ العجز يومًا على الطَّلَبِ
ألم تر أن الله قال لمريم إليك فهزِّي الجذع يسَّاقط الرُّطْبِ
اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك، واغننا بفضلك عمن سواك، واجعل ذلك عونًا لنا على طاعتك، وبلاغًا لنا إلى مرضاتك، وارزقنا شكر نعمك..
هذا وصلوا وسلموا...





فضل القرض وضوابطه (١)

الخطبة الأولى:

اللهم إِنَّا نحمدُكَ ونستعينُكَ ونتوبُ إليك، ونشني عليك الخير كله، نحمدُكَ اللهم كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، لك الحمد كالذي نقول وخيرًا مما نقول، ولك الحمد كالذي تقول، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، أرسله رحمة للعالمين، وحجة على الهالكين، فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الغرِّ الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله ربكم، فبتقواه سبحانه وتعالى تركوا النفوس، وتصلح الأحوال، ﴿وَتَكَرَّوْا فِائِبَ خَيْرَ الزَّادِ النَّفْوَى وَأَتَّقُونِ يَتَأُولِي الْأَلْبَبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

روى البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الرسول ﷺ: «أن رجلاً سأل بعض أهله سلف ألف دينار، قال: اتني بالشهداء أشهدهم قال: كفى بالله شهيداً، قال: اتني بكفيل قال: كفى بالله كفيلاً قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته؛ ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي كان أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها وأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أي استلفت من فلان ألف دينار فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً؛ فرضي بك، وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وإني قد جهدت أن أجد



مركباً أبعث إليه بالذي له فلم أجد مركباً، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف ينظر، وهو في ذلك يطلب مركباً، يخرج إلى بلده. فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً يجيء به، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي تسلف منه فأتاه بألف دينار، فقال: والله ما زلتُ جاهدًا في طلب مركبٍ لآتيك به، فما وجدت مركباً، قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنتَ بعثتَ إليَّ بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه. قال: فإنَّ الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرف بألفك راشداً^(١).

أيها المسلمون:

أخرج الطبراني في الكبير وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في المسجد شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظاً، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضى يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل، كما يفسد الخل العسل»^(٢).

إن من محاسن شريعتنا الغرَّاء سعيها للتعاون والتكافل من أجل تحقيق مصالح العباد في أمور المعاش والمعاد، وحرصها على إقامة المجتمع الإسلامي الفريد المتعاضد، في بُعدٍ عن الأنانية المقيتة، وحبِّ الذات، وعدم الشعور والاهتمام بأحوال المسلمين وظروفهم. ولذلك كله حرص الإسلام على إشاعة المحبة بين أفراد المجتمع، وتقوية الروابط والصلات والعلاقات والمودات، ولا يكون ذلك إلا بالتعاون والتعاضد بين أفراد المجتمع.

(١) رواه البخاري (٢١٦٩).

(٢) حسنه الألباني.



إن الإنسان في هذه الحياة معرض للابتلاء والامتحان، ومعرض لمحن الدنيا ونائبات الدهر، فقد تظهر له حاجة، أو تُلْمُّ به فاقة لا يجد ما يسدها ولا ما يقضيها به، ثم قد يوقعه في الحرج والضيق.

وهذا -عباد الله- تبرز مكانة القرض في الشريعة، فحين يحتاج أحد لبلغ من المال؛ من أجل حاجة أو فاقة أو جائحة فإن الشريعة تتيح له الاقتراض من أخيه لسد حاجته، وإغناء فاقته، وتفريج كربته.

وقد كان رسول الله ﷺ يستقرض من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عند حاجته، وكان أحسن الناس قضاءً، قال عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: استقرض مني رسول الله ﷺ أربعين ألفاً، فجاء مأل فدفعه إليّ، وقال: «إنما جزاء السلف الحمد والأداء»^(١).

كما ندب الإسلام إلى مساعدة المسلم عند حاجته، وأمر بإعانتة وتفريج كربته؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ يَسِّرْ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(٢).

ولقد تواترت نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة سلفاً وخلفاً على فضل القرض وثوابه، بل إنَّ القرض في الشريعة الإسلامية من أبرز مبادئها، وأظهر معالمها الدالة على سعيها للتيسير والتسهيل على المسلمين. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَزْوَاجًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقد ذكر الله هذه الآية في كتابه مراراً مبيناً فضل القرض وثوابه، وأنه سبحانه متكفل بالأجر العظيم، والثواب الكبير لمن أقرض مسلماً، ونفس عنه كربته، فكأنه إنما يقرض الله سبحانه وتعالى.

(١) صحيح النسائي (٤٦٩٧).

(٢) رواه مسلم (١٨٥).



قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «لأن أقرض مسلماً دينارين ثم يردان ثم أقرضهما أحبُّ إليَّ من أتصدق بهما». وما ذاك إلا لما في القرض من تفريج كُرب المسلمين، وقضاء حوائجهم، والعون لهم على البعد عن الحرام. وروى النسائي وابن ماجه من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما من مسلم يقرض مسلماً قرضاً مرتين إلا كان كصدقة مرة»^(١).

وإن من أفضل الطاعات وأجل القربات إمهال المدين وإنظار المعسر، فقد أمر الله تعالى بإنظار المعسر حيث لم يجد وفاء فقال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]. ثم ندب إلى الوضع عنه والتصدق عليه به أو ببعضه فقال: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وروى مسلم (٣٠١٤) عن أبي اليسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظْلَمَ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ».

وأخبر النبي ﷺ أن من أنظر معسراً كان له بكل يوم مثل قرضه صدقة قبل أن يحل ميعاد الدين، وله مثل ضعف قرضه صدقة بعد حلول الدين عن كل يوم من أيام التأجيل والتوسعة على المدين؛ وذلك ترغيباً في إعانة المسلم وإنظار المعسر لئلا يلجئه إلى التعامل بالربا المحرم الذي يوبق عليه كسبه ويؤذنه بحرب من الله ورسوله، أو يضيق عليه أمره، ويوقعه في الحرج.

روى الإمام أحمد (٢٢٥٣٧) عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِيهِ صَدَقَةٌ» قَالَ ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِيهِ صَدَقَةٌ» قُلْتُ: سَمِعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَقُولُ مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِيهِ صَدَقَةٌ، ثُمَّ سَمِعْتُكَ تَقُولُ مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِيهِ صَدَقَةٌ؟ قَالَ: «لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَانْظَرُهُ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِيهِ صَدَقَةٌ»^(٢).

(١) صحيح الترغيب (٩٠١).

(٢) صحيحه الألباني في الصحيحة (٨٦).



وفي هذا من الشرع الحكيم ومن رحمة الله بعباده ما هو ظاهر بأدنى تأمل، ولو علم
الميسورون والدائنون بما لهم من الأجر عند الله تعالى بالتعاون مع المعسرين؛ لأحسنوا إليهم
بالإمهال لهم والتيسير عليهم.

أيها الناس:

ولقد وضعت الشريعة الإسلامية للقرض الحسن المشروع ضوابط شرعية تُحقق المقصود
منه دون ضرر أو إضرار، وتُخرجه من الربا والشبهات المحرمة، ومن أهم هذه الضوابط:
أن يردَّ القرض كما هو دون زيادةٍ أو نقصان. وأن لا يكون القرض وسيلة وحيلة توصله
إلى المحاباة في بيع أو شراء أو نحوه. وأن لا يشترط المقرض شرطاً فيه ضرراً على المقرض؛
كاشتراط الوفاء ببلدٍ معيّن يكون في الوفاء فيه كلفةٌ ومشقةٌ على المقرض.

وذلك لما أخرجه الإمام البغويُّ من حديث العلاء بن مسلم أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُلُّ قَرْضٍ جَرٌّ
منفعةٌ فهو ربا»^(١). وهذا الحديث ضَعَفَهُ جمهور المحدثين لكنَّ العمل عند أهل العلم بما دلَّ
عليه، وله من الأحاديث والآثار ما يُعَصِّدُهُ وَيُقَوِّيه، فقد جاء عن أبي بن كعبٍ وابن مسعود
وابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين - : «أَتَمُّهُوا عَنْ قَرْضٍ جَرٍّ مَنْفَعَةٌ»^(٢).

ومثله ما رواه البخاري والبيهقي والطبراني من حديث أبي بردة قال: «أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَلَقِيتُ
عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ فَقَالَ لِي: أَلَا تَحِيَّاءُ إِلَى الْبَيْتِ حَتَّى أُطْعِمَكَ سَوِيْقًا وَتَمْرًا؟! فَذَهَبْنَا، فَأُطْعِمَنَا
سَوِيْقًا وَتَمْرًا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّكَ بَارِضٍ الرِّبَا فِيهَا فَاشِ، فَإِنْ كَانَ لَكَ عَلَى رَجُلٍ دَيْنٌ فَأَهْدِي إِلَيْكَ
حَبْلَةً مِنْ عَلَفٍ أَوْ شَعِيرٍ أَوْ حَبْلَةً مِنْ تَبْنٍ فَلَا تَقْبَلْهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الرِّبَا»^(٣).

وعند البيهقي وصححه الألباني من حديث الأثرم: أَنَّ رَجُلًا كَانَ لَهُ عَلَى سَمَّاكَ عَشْرُونَ
دِرْهَمًا، فَجَعَلَ يُهْدِي إِلَيْهِ السَّمَكَ، وَيُقَوِّمُهُ حَتَّى يَبْلُغَ ثَلَاثَةَ عَشْرِ دِرْهَمًا، فَسَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ:
«أَعْطَهُ سَبْعَةَ دِرْهَمٍ».

(١) ضعيف الجامع (٤٢٤٤).

(٢) صححه الألباني في إرواء الغليل (١٣٩٧).

(٣) رواه البخاري (٣٨١٤).



فلا يجوز أيها الإخوة الاقتراض بفائدة كما هو الحال في البنوك الربوية وغيرها؛ فإن ذلك رباً محرم.

وأما ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «استسلف النبي ﷺ بَكْرًا، فجاءته إبل الصدقة فامرني أن أقضي الرجل بكَرِه، فقلتُ: يا رسول الله إنِّي لم أجِد في الإبل إلا جملاً رَبَاعِيًّا، فقال: أعطه إِيَّاه، فإنَّ من خير الناس أحسنهم قضاءً».

فإنَّه محمولٌ على حُسن القضاء منه ﷺ، وردَّه لجميل المقرض، واعترافه بفضلِه، وإِحسانه إليه دون أن يكونَ هناك شرطٌ من المقرض أن يردَّ إليه زيادةً على قرضه. فأما إذا وجدَ الشرطُ بالزيادة عن الاقتراض؛ كأن يُقرضه ألفاً، ويشترطَ عليه أن يردَّ ألفين - مثلاً - فهذا هو الربا الذي لا يجوز.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.
أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى واشكروه وأطيعوه وراقبوه، واعلموا أنكم ملاقوه.
عباد الله: إن العَجَب أن بعض المدينين -للأسف- قد يستدين لغير حاجة ماسة، وتحمل الديون العظيمة، وذلك بسبب الإغراق في الكماليات، والبذخ في الحفلات والمناسبات والزواجات والملابس والجوالات والأثاث وغير ذلك! فيستدين البعض من أجل شراء حاجيات ليست ضرورية، بل ربما استدان البعض لأمر محرم وعبث وإسراف، ومن يؤث الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، ومن يُجرمها فقد حُرِم خيرًا كثيرًا.
أيها المسلمون: وكما أمر الإسلام بالقرض وندب إليه أمر بالوفاء وحرص عليه؛ وفاء لحقوق الناس، وشكرًا لجميلهم، وعرفانًا بفضلهم.

وقد بين رسول الله ﷺ وجوب أداء الدين، والنية الحسنة في قضائه، وبين أن مدار الأعمال على ذلك، وأن من استدان الناس ناويًا الإيفاء لحقهم أعانه الله على قضاء دينه، فقد روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله تعالى»^(١).

وعند ابن ماجه والحاكم بإسناد حسن أنه ﷺ قال: «إن الله مع الدائن حتى يقضي دينه»^(٢).

ولكن ومع شديد الأسف لما ضَعُفَ إيمان كثير من الناس، ضيَّعوا الأمانة وتساهلوا بالحقوق فلم يعودوا يهتمون بوفاء ديون الناس، وإعطائهم حقوقهم، بل يماطلون صاحب

(١) رواه البخاري (٢٣٨٧).

(٢) صحيح ابن ماجه (١٩٦٨).



الحقّ حقه، حتى أحجم كثيرٌ من الناس عن القرض والتسليف خوفاً على أموالهم من الضياع؛ لضعف ذمِّم الناس؛ حيث يأتي الإنسان إلى أخيه فيشكو إليه الحاجة والفقر فيقرضه على أن يرد إليه حقه بعد شهر أو بعد سنةٍ أو نحو ذلك، فإذا استقرض منه مضت تلك المدة وتوالت الشهور وتتابعَت السنون، وهو لا يزال يباطله في الوفاء بحقه، حتى لربما احتاج الدائن ووقع في الحرج الشديد ودخل في المتاهات التي ليس لها نهاية وهو يطالب بحقه فلا يجد وفاءً، فإذا بالجميل ينقلب على صاحبه هماً وندماً، وبدل أنه أنقذ صاحبه ليكسب قلبه، إذا به يفقد نقوده ويفقد ود ووفاء صاحبه، بل إن البعض قد يباطل عمداً مع قدرته على الوفاء، فإذا جدَّ صاحب الحق في مطالبته جحد وأنكر وقابل الحسنة بالسيئة، وذلك كله لرقّة الدين، وضعف الإيمان، وغياب الأخلاق وضياع المروءة.

قال رسول الله ﷺ: «لِيُ الْوَاجِدُ يُحْلُ عِرْضَهُ وَعَقُوبَتَهُ»^(١). والمراد بذلك: أنَّ مطل الغنيِّ لحقوق الناس، يُحْلُ التظلم عليه بقوله مطلني حقي، ويُحْلُ حبسه عقوبةً له على ذلك حتى يفي بالدين لصاحبه.

ومثله ما ثبتَ في الصحيحين من قوله ﷺ: «مطلُ الغنيِّ ظلمٌ»^(٢). إنَّ الواجب على المسلم إذا اقترض من أخيه مبلغاً من المال، أو استلف منه شيئاً أن يردّه إليه شاكراً لفضله، معترفاً بجميله، سائلاً له الأجر من الله تعالى، ولقد كان النبي ﷺ أحسن الناس قضاءً.

وقد ورد الترهيب والوعيد على عدم وفاء الحقوق والديون لأصحابها، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: توفي رجلٌ منّا، فغسلناه، وحنّطناه، وكفّناه، ثم أتينا به رسول الله ﷺ؛ ليصلي عليه، فخطا خطي، ثم قال: أعليه دين؟ قلنا: عليه ديناران، فانصرف، فتحملها أبو قتادة. فأتيناه، فقال أبو قتادة: الديناران عليّ. فقال رسول الله ﷺ: «حقّ الغريم، وبرئ منها الميت؟». قال نعم! فصلى عليه»^(٣).

(١) حسّنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٢٨).

(٢) رواه البخاري (٢٢٨٧) ومسلم (١٥٦٤).

(٣) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (١٨١٢).



في رواية الحاكم: أَنَّهُ ﷺ جعل إذا لقي أبا قتادة يقول: «ما صنعت الديناران، حتى كان آخرُ ذلك أن قال: قضيتها يا رسول الله، قال: الآن بردت جلده»^(١). وروى الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ ﷺ كان يُؤْتَى بالرجل المُتَوَفَّى عليه الدين، فيسأل: «هل ترك لدينه من قضاء؟ فإن حُدِّثَ أَنَّهُ ترك وفاءً صلى عليه، وإلا قال: صلوا على صاحبكم»^(٢).

إن أمر الدين خطير أيها الإخوة، ويكفي في ذلك أن نعلم أن الشهيد يُغفر له كل ذنب إلا الدين؛ ذلك لأهمية حقوق العباد، وعظم شأنها عند الله تعالى.

عباد الله: ألا وإن من الحقوق الواجبة التي أكد الإسلام على الحرص عليها، وعلى عدم تأخيرها عند استحقاقها، أجرة العمال الضعفاء كالسائقين والخدم و عموم الأجراء، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «قال الله عَزَّوَجَلَّ - ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة»، وذكر منهم: «رجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره»^(٣).

وفي حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»^(٤).

فاتقوا الله رحمكم الله، أدّوا الحقوق لأصحابها، وإياكم ومما طلة ذي الحقِّ حقّه، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، وتزّنوا للعرض الأكبر على الله يومئذٍ تُعرضون لا تحفى منكم خافية، واحذروا دعوة المظلوم فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب، واستغفروا الله وتوبوا إليه إنّه هو الغفور الرحيم.

ثم صلوا وسلموا رحمكم الله على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام...



(١) حسّنه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ٢٤٨).

(٢) رواه البخاري (٢٢٩٨) ومسلم (١٦١٩).

(٣) رواه البخاري (٢٢٢٧).

(٤) صحيح ابن ماجه (١٩٩٥).



التحذير من الكسب الحرام^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، أحمدُه سبحانه هو الملك القدُّوس السلام، وأشكُرُه على ما حبَّانا به من الفضل والإنعام، وأشهَدُ أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له الذي رضي لنا شرعة الإسلام، وأوضَحَ ما فيها من الأحكام، ويبيِّن الحلال من الحرام، وأشهَدُ أنَّ محمدًا عبده ورسوله سيد الأنام، أفضلُ مرَّسل وأكمل إمام، صلَّى الله عليه وعلى آله الكرام، وأصحابه الأئمة الأعلام؛ أمَّا بعدُ:

فيا أيُّها الناس: اتقوا الله حق تقاته، فإن تقواه سبحانه شعار المؤمنين، وثمار المتقين، ووصية الله للناس أجمعين، فاتقوا الله تعالى في كل ما تأتون وتذرون، واتقوا الله لعلكم تفلحون، وابتغوا عنده الرِّزق واشكروا له إليه ترجعون، واعلموا أنَّ الله تعالى طيب لا يقبل إلاَّ طيبًا، وأنَّه سبحانه أمر المؤمنين بالابتغاء من فضله، والأكل من طيب رزقه، وهو ما جاء من حلِّه؛ فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢].

عباد الله: لقد جبل الله عزَّ وجلَّ الخلق على حب المال، ورَكَّبَ في الطباع الحرص على طلبه وتحصيله؛ لأن به قوام حياة الناس وانتظام أمر معاشهم وتمام مصالحهم. وقد جاء الشرع الحنيف بالحث على السعي في تحصيل المال واكتسابه على أنه وسيلة لغايات محمودة ومقاصد مشروعة، وجعل للحصول عليه ضوابط وقواعد واضحة المعالم، لا يجوز تجاوزها ولا التعدي لحدودها كي تتحقق منه المصالح للفرد وللجماعة.

(١) لم يتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



وقد أوجب الشارع على المسلم أن يطلب المال ويسعى في أسباب تحصيله مما أذن الله به وشرعه من طرق الكسب الحلال والعمل المباح، حتى يستغني المرء به عن ذل السؤال للغير والحاجة للخلق، فيكفي به نفسه، ويحفظ به مروءته، ويصون به ماء وجهه، ويعيل به أسرته، ويصل به رحمه، وينفق منه على أبواب الخير وطرق البر.

لذا كان طلب الرزق وتحصيله شرف للمؤمن وعزة للمسلم، لا سيما إذا احتسب فيه النية واستشعر عظم الأجر، فنعم المال الصالح للمرء الصالح، كما قال الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا حبذا المال، أصون به عرضي، وأرضي به ربي».

الكسب الطيب والمال الحلال ينير القلب، ويشرح الصدر، ويورث الطمأنينة والسكينة والخشية من الله، ويعين الجوارح على العبادة والطاعة، ومن أسباب قبول العمل الصالح وإجابة الدعاء.

أما الكسب الخبيث فإنه شؤم وبلاء على صاحبه، بسببه يقسو القلب، وينطفئ نور الإيمان، ويحل غضب الجبار، ويمنع إجابة الدعاء. المال الحرام مستخبث الأصول، محقوق البركة والمحصول، إن صرفه صاحبه في برٍ لم يؤجر، وإن بذله في نفعٍ لم يُشكر، ثم هو لأوزاره مُحْتَمِلٌ وعليه معاقب. قال بعض الحكماء: (شر المال ما لزمك إثم مكسبه، وحُرمت أجر إنفاقه).

وكفاه شؤماً وخذلاً لصاحبه أنه يرد الدعاء ويمنع الإجابة، روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ» فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] «ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبَّ يَا رَبَّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»^(١).

لقد استجمع هذا الرجل من صفات الذل والمسكنة والحاجة والفاقة إلى ربه ما يدعو إلى رثاء حاله ويؤكد شدة افتقاره، ولكنه قد قطع صلته بربه، وحرَمَ نفسه من مدد الله وفضله،

(١) رواه مسلم (١٠١٥).



وحال بينه وبين قبول دعائه ما هو عليه من استعمال للحرام في المأكل والمشرب والملبس، وماذا يبقى للعبد إذا انقطعت صلته بربه، وحُجب دعاؤه، وحيل بينه وبين رحمة الله؟!

فهذا الحديث فيه تحذير لمن خدعهم الشيطان، وزين لهم أعمالهم السيئة، فتراهم يأكلون الحرام، وينفقون منه في بعض الأعمال الصالحة؛ كبناء المساجد أو المدارس، أو حفر الآبار، أو غير ذلك، ويظنون أنهم بهذا برئت ذمتهم، فهؤلاء يعاقبون مرتين:

الأولى: أن الله لا يقبل منهم أعمالهم الصالحة التي أنفقوا عليها من الأموال المحرمة؛ لقوله ﷺ: «إن الله طيبٌ، لا يقبل إلا طيباً».

الثانية: أن الله يعاقبهم على هذا المال الحرام، ويحاسبون عليه يوم القيامة؛ فعن خولة الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنْ رَجُلًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). قال سفيان الثوري: (مَنْ أَنْفَقَ الْحَرَامَ فِي الطَّاعَةِ، فَهُوَ كَمَنْ طَهَّرَ الثَّوبَ بِالْبَوْلِ، وَالثَّوبَ لَا يَطْهَرُ إِلَّا بِالْمَاءِ، وَالذَّنْبَ لَا يَكْفُرُهُ إِلَّا الْحَلَالُ).

ولذا كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ كانوا في غاية الخوف من أكل الحرام والمبالغة في التحذير منه، حتى قال بعضهم: (لَوْ قُتِمَ فِي الْعِبَادَةِ قِيَامُ السَّارِيَةِ مَا نَفَعَكَ ذَلِكَ حَتَّى تَنْظُرَ فِيهَا يَدْخُلُ بَطْنُكَ).

وروى البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غَلَامٌ فَجَاءَ لَهُ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الْغَلَامُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: تَكْهَنُ لِإِنْسَانٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا أَحْسَنُ الْكِهَانَةَ إِلَّا أَنِّي خَدَعْتَهُ، فَلَقِينِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ هَذَا الَّذِي أَكَلْتُ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فَنَقَلَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ»^(٢)، وفي رواية أنه قال: «لَوْ لَمْ تَخْرُجْ إِلَّا مَعَ نَفْسِي لَأَخْرَجْتُهَا»^(٣)، اللهم إني أبرأ إليك مما حملت العروق وخالط الأعماء»^(٤).

(١) رواه البخاري (٣١١٨).

(٢) رواه البخاري (٣٨٤٢).

(٣) هذه الرواية رواها أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠).

(٤) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٠٨).



ورُوي أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شرب لبنًا فأعجبه، فقال للذي سقاه: «من أين لك هذا؟ فقال: مررت بإبل الصدقة وهم على ماء فأخذت من ألبانها، فأدخل عمر يده فاستقاء»^(١).

وهذا موقف لإحدى النساء الصالحات العاقلات الفاضلات وهي تمثل نموذجًا فذاً للمرأة المسلمة حيث توصي زوجها قائلة له: يا هذا، اتق الله في رزقنا، فإننا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار.

وإن من العجب أن يحتمي بعض الناس من الحلال مخافة المرض ولا يحتمون من الحرام مخافة النار، وما ذاك إلا لقسوة القلوب واستيلاء الغفلة على النفوس وضعف الإيمان وقلة البصيرة في الدين.

عباد الله: إن للمكاسب المحرمة آثارًا سيئة على الفرد والمجتمع، فإنها تُضعف الديانة، وتعمي البصيرة، ومن أسباب محق البركة في الأرزاق، وحلول المصائب والرزايا، وحصول الأزمات المالية المستحكمة والبطالة المتفشية، وانتشار الإحزن والشحناء والعداء والبغضاء.

وإن مما يؤسى له عظيم الأسى أن في الناس من لا يتحاشون عن اكتساب المال الحرام وتحصيله من أي طريق وعبر أي وسيلة، إذ ليس لهم همٌّ إلا تكديس الأموال وتضخيم الثروات، فالحلال في عرفهم ما أُتيح لهم وقدروا عليه، والحرام ما عجزوا عن الوصول إليه، يسلكون في طلبه مسالك معوجة وسبلاً مشبوهة، بل وقد لا يكتثرون من المجاهرة والمفاخرة بالمكاسب الخبيثة والاستيلاء على الأموال المحرمة التي لا شبهة في تحريمها، حتى أصبح هذا المسلك المشين لشيوعه وانتشاره ظاهرة مألوفة في كثير من مجتمعات المسلمين، حيث فشا فيها أكل الربا وتعاطي الرشوة والغصب والسرقة والمتاجرة بالمحرمات كالخمور والمخدرات وآلات اللهو والغناء ونحوها، وتطيف المكايل والموازين والغش والخداع في البيوع والمعاملات، وإنفاق السلع بالأيمان الفاجرة، وأكل أموال اليتامى والقاصرين، والاستيلاء على الحقوق والممتلكات، واختلاس الأموال الخاصة والعامة، بأساليب مختلفة وسبلٍ

(١) رواه البيهقي في شُعب الإيمان (٦٠ / ٥).



متنوعة، بلا خوفٍ من الله ولا حياةٍ من عباد الله، في صور مهينة من صور البطر والأشر والجشع والطمع لدى بعض النفوس، حين يضعف فيها وازع الإيمان، وتتحلل من المروءة ومكارم الأخلاق، وإنه ليكاد يصدق على هذا الزمان ما جاء في الحديث عند البخاري وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن الحلال أم من الحرام؟»^(١).

لكن لم يعلم هؤلاء أن الحرام يمحق بركة المال والعمر والذرية، كما قيل:
جمع الحرام إلى الحلال ليكثره جاء الحرام على الحلال فبعثره

وإن الله أعدل من أن يمنح السعادة من طلبها بالحرام، بل إنك ترى هؤلاء تُسرّع إليهم الأمراض والمحن، فهم يشكون من قلة البركة، وضنك العيش، وصدق الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤].

فأين هؤلاء عن قوارع التنزيل التي تُتلى والأحاديث التي تُروى في التحذير من أكل الحرام وبيان عاقبة صاحبه وسوء مصيره ومنقلبه؟! أليس لهم فيها مُذكرٌ وواعظٌ ومزدجرٌ وراعدٌ؟! ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَفْهًا﴾ [محمد: ٢٤].

يقول الحق جل وعلا في التحذير من الربا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا اللَّهُ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]، ويقول عز شأنه في بيان ما أعد من العذاب لأكلة أموال اليتامى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، ويقول جل وعلا متوعداً أهل التطفيف للمكاييل والموازين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[المطففين: ١-٦]، وفي الحديث عن أبي أمامة الحارثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع حق امرئ مسلمٍ بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة»، فقال له رجل:

(١) رواه البخاري (٢٠٥٩).



وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «وإن كان قضيباً من أراك»^(١)، وجاء أيضاً عن عدي بن عميرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة»^(٢)، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

فاتقوا الله عباد الله: ولتجتنبوا ما حرم ربكم عليكم ونهاكم عنه من المكاسب الخبيثة والأموال المحرمة، ولتقنعوا بما أحل لكم من الطيبات، ففي الحلال الغنية والكفاية والسعادة في الدنيا والآخرة.

اللهم أغننا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك، يا واسع الفضل والإحسان، يا أكرم الأكرمين.

نفعني الله وإياكم بالقرآن الكريم وبهدي سيده المرسلين، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه مسلم (١٣٧).

(٢) رواه مسلم (١٨٣٣).



الخطبة الثانية:

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده سبحانه وأشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليفه، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد:

روى الإمام أحمد في مسنده، من حديث كعب بن عياض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِي الْمَالُ» [سنن الترمذي (٢٣٣٦)، وصححه الألباني، صحيح الجامع الصغير (٢١٤٨)].

وإن من أعظم المصائب التي عمت وطمت في هذا الزمان الجشع والطمع والحرص على جمع المال من كل الطريق وبكل وسيلة ممكنة بغض النظر عن كون هذه الوسيلة تجوز أو لا تجوز حلالاً كانت أو حراماً.

فهذا تاجر يغش الناس بسلعته، وذاك موظف لا ينهض بمسئولية وظيفته، والآخر يمنع أصحاب الحقوق حقوقهم مع غناه وقدرته، وهذا يرتشي ولا يعطي المسلمين ما يستحقون حتى يكلفهم ما لا يطيقون، وذاك لا يتورع عن السرقة، والآخر يلف ويدور ويكذب ليحصل ما ليس له بحق، والرابع يغش ويحتال وينصب ويطفف المكيال والميزان، وذاك يتعامل بالربا، وهذا يتاجر بما يفسد عقول الناس ويدمر حياتهم.

انظر إلى أسواقنا لتسمع الأيوان الكاذبة وترى الغش الواضح وتطفيف المكيال والميزان واختلاس الأموال وبيع ما لا يجوز بيعه، واللف والخداع والقمار، يقول الله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]. ويقول الله في كتابه العظيم ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۚ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۚ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۚ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۚ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۚ (٥) نَارُ اللَّهِ الَّتِي الْمَوْفِدَةُ ۚ﴾ [الهمزة: ١-٦].

إننا في زمان لم يعد بعض الناس يبالي فيه بما أكل أمن حرام أو من حلال ولا يهيمه أن يغذي أهله وأولاده من الحرام أو الحلال، إن هذا الزمان أخبر به الصادق المصدوق ﷺ فقال «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن الحلال أم من الحرام؟» رواه البخاري.



وأكل الحرام إنما يعرّض نفسه للعقوبة في الدنيا، وفي قبره، ويوم القيامة:
أما في الدنيا، فقد تكون العقوبة خسارة في ماله، أو محق إلهي للمال الذي اكتسبه، ونزع
البركة منه، أو مصيبة في جسده؛ كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وأما في قبره، فقد ورد في الحديث: أن عبداً يُقال له مَدْعَمٌ، كان مع النبي ﷺ واستشهد في
غزوة خيبر؛ أصابه سهم طائش، فقال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: هنيئاً له الشهادة، فقال النبي ﷺ:
«كَلَّا، والذي نفسي بيده، إن السَّمْلَةَ التي أصابها يوم خيبر من المغانم، لم تُصَبَّها المقاسم -
لَتَشْتَعِلَ عليه ناراً»، فلما سمع الناس ذلك، جاء رجلٌ بِشِرَاكِ أو شِرَاكَيْنِ إلى النبي ﷺ فقال:
«شِرَاكٌ أو شِرَاكَيْنِ من نارٍ»^(١)؛ وهذه السَّمْلَةُ عباءةٌ قيمتها دراهم معدودة، ومع ذلك لم يسلم
صاحبها من عقوبة أكل المال الحرام.

وأما في الآخرة، فعن كعب بن عجرة: أن النبي ﷺ قال له: «يا كعب، لا يَرَبُّوْا لَحْمَ نَبَتٍ
من سُحَّتٍ؛ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوَّلَى بِهِ»^(٢).

إن من دلائل التوفيق وأمانة السعادة والفلاح للعبد أن يكف عما حرم الله من المكاسب
الخبیثة، وما نهى عنه من الأموال المحرمة، وأن يتورع عما يشتهه عليه من ذلك، حرصاً على
سلامة دينه وصيانة عرضه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ
لدينه وعرضه»^(٣)، وقال الإمام الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: (ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا
كثيراً من الحلال مخافة الحرام).

ولتعلموا عباد الله أن المشتبهات يحصل للقلوب عندها قلق واضطراب يحمل على الشك
والتردد في حلها، والورع من عباد الله يكون وقافاً عند المشتبهات، فيدع ما يريبه إلى ما لا
يريبه، فذلك مسلك الصالحين ونهج المتقين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ
وَتُدْءُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

(١) رواه البخاري (٦٧٠٧).

(٢) رواه الترمذي (٦١٤).

(٣) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).



قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «هذا في الرَّجُل يكون عليه مَالٌ، وليس عليه فيه بَيِّنَةٌ، فَيَجْحَدُ الْمَالَ، ويخاصمهم إلى الحُكَّام، وهو يعرف أَنَّ الْحَقَّ عليه، وَأَنَّهُ أَثِمُّ أَكِلٌ لِلْحَرَامِ». اهـ.

قال ابن المبارك: (لأنَّ أَرَدَ دِرْهَمًا من شُبْهَةٍ؛ أَحَبَّ إِلَيَّ من أن أتصدَّق بِأَئِثَّةِ أَلْفٍ).

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا نَدْعُ تِسْعَةَ أَعْشَارِ الْحَلَالِ؛ خِيفَةَ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ»، وإنما فعل ذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امتثالاً لقول النبي ﷺ في حديث النعمان بن بشير: «فَمَنْ أَتَقَى الشُّبُهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَقَعَ فِي الْحَرَامِ».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَرَّغَ خَاطِرُكَ لَهُمْ بِأَمْرٍ بِهِ، وَلَا تَشْغَلْهُ بِمَا ضَمَنَ لَكَ؛ فَإِنَّ الرِّزْقَ وَالْأَجَلَ قَرِينَانِ مَضْمُونَانِ، فَمَا دَامَ الْأَجَلُ بَاقِيَا كَانَ الرِّزْقُ آتِيَا، وَإِذَا سَدَّ عَلَيْكَ بِحِكْمَتِهِ طَرِيقًا مِنْ طَرَفِهِ، فَتَحَ لَكَ بِرَحْمَتِهِ طَرِيقًا أَنْفَعَ لَكَ مِنْهُ؛ فَتَأَمَّلْ حَالَ الْجَنِينِ: يَأْتِيهِ غِذَاؤُهُ وَهُوَ الدَّمُ، مِنْ طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ السَّرَّةُ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ بَطْنِ الْأُمِّ وَانْقَطَعَتْ تِلْكَ الطَّرِيقُ، فَتَحَ لَهُ طَرِيقَيْنِ اثْنَيْنِ، وَأَجْرَى لَهُ فِيهِمَا رِزْقًا أَطْيَبَ وَأَلْذَّ مِنَ الْأَوَّلِ: لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا، فَإِذَا تَمَّتْ مَدَّةُ الرِّضَاعِ وَانْقَطَعَتْ الطَّرِيقَانِ بِالْفِطَامِ، فَتَحَ طَرِيقًا أَكْمَلَ مِنْهَا، فَهَكَذَا الرَّبُّ سَبِّحَانَهُ لَا يَمْنَعُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَيُؤْتِيهِ أَفْضَلَ مِنْهُ، وَأَنْفَعَ لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِغَيْرِ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَمْنَعُهُ الْحِظَّ الْأَدْنَى الْخَسِيسَ، وَلَا يَرْضَى لَهُ بِهِ، لِيُعْطِيَهُ الْحِظَّ الْأَعْلَى النَّفِيسَ، وَالْعَبْدَ لَجْهَلِهِ بِمُصَالِحِ نَفْسِهِ، وَجْهَلِهِ بِكَرَمِ رَبِّهِ وَحِكْمَتِهِ وَلَطْفِهِ، لَا يَعْرِفُ التَّفَاوُتَ بَيْنَ مَا مُنِعَ مِنْهُ وَبَيْنَ مَا ذُخِرَ لَهُ، بَلْ هُوَ كَالطِّفْلِ مُوَلَّعٍ بِحَبِّ الْعَاجِلِ وَإِنْ كَانَ دُنِيئًا، وَبِقِلَّةِ الرِّغْبَةِ فِي الْأَجَلِ وَإِنْ كَانَ عَلِيًّا!!).

فاتقوا الله أيها المؤمنون، ولتستطيبيوا مطاعكم ومشاربكم وسائر مكاسبكم، ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢٨١﴾	الْمَالُ يَذْهَبُ حِلُّهُ وَحَرَامُهُ
يَوْمًا وَيَبْقَى فِي غَدٍ آثَامُهُ	لَيْسَ التَّقِيُّ بِمُتَّقٍ لِإِلَهِهِ
حَتَّى يَطِيبَ شَرَابُهُ وَطَعَامُهُ	وَيَطِيبُ مَا تَحْوِي وَتَكْسِبُ كَفُّهُ
وَيَكُونُ فِي حُسْنِ الْحَدِيثِ كَلَامُهُ	نَطَقَ النَّبِيُّ لَنَا بِهِ عَنْ رَبِّهِ
فَعَلَى النَّبِيِّ صَلَاتُهُ وَسَلَامُهُ	

اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك، وأغننا بفضلك عمن سواك.

ألا وصلوا عباد الله على نبي الرحمة والهدى..



الظلم ظلمات (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله العظيم في قدره، العزيز في قهره، العليم بحال العبد في سرّه وجهره، يسمع أنينَ المظلوم عند ضعف صبره، ويجود عليه بإعانتته ونصره، أحده على القدر خيره وشرّه، وأشكره على القضاء حلوه ومّره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الآيات الباهرة، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، جاهد في الله حقّ جهاده طول عمره وسائر دهره، صلى الله عليه وعلى سائر آله وأصحابه، ما جاد السحاب بقطره، وطلّ الربيع بزهره، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

يقول أحدهم: استدنت من رجل مبلغاً من المال من أجل إتمام مشروع خاص، وبعد انتهاء المدة المحددة لإعادة المبلغ حضر صاحبه للمطالبة بحقه، ولكنني قمت بطرده وأنكرت أنه أعطاني أي مبلغ خاصة، وأنه لم يأخذ مني أي إثبات، لم أكن أعلم ما ينتظرني بسبب ظلمي، فبعد مضي ثلاثة أشهر خسرت صفقة بقيمة نصف مليون ريال ومنذ ذلك اليوم والخسارة تلازمي، وقد نصحتني زوجتي بإرجاع المبلغ لصاحبه لأن ما يحدث لنا هو عقاب من الله، ولكنني مع الأسف لم أستمع إليها وتماديت في المكابرة حتى خسرت أعز ما أملك وهم أبنائي الثلاثة في حادث سيارة أثناء عودتهم إلى البيت.

ويتابع: وأمام ذلك الحدث الرهيب قررت بدون تردد إعادة الحق لصاحبه، وطلبت منه أن يسامحني حتى لا يجرمني الله من زوجتي وابني ذي السنوات السبع، فهما كل ما بقي لي! عباد الله: إن من أشد الأمور حرمةً وأسرعها عقوبةً وأعجلها مقتاً عند الله وعند المؤمنين، ومن أشد ما يؤثر في النفس ويذهب إنسانيتها ويحيل قلب صاحبها من اللحم والدم إلى أن يصير كالحجارة أو أشد قسوة هو ذلك الداء الخطير والشر المستطير الذي انتشر في الوقت الحاضر انتشاراً يندر بالخطر وبانتقام الجبار جلّ جلاله، ألا وهو الظلم.

فقد تفشى الظلم في مجتمعاتنا ليس على مستوى الأفراد فحسب، بل حتى على مستوى الأقارب والأرحام والأصهار، بل وحتى على مستوى المجتمعات والشعوب والدول، نسأل الله السلامة والعافية.

الظلم مرتعه وخيم، وعاقبته سيئة، وجزاء صاحبه النار، ولو بغى جبل على جبل لذكّ الباغي منهما.

يقول تعالى عن قوم: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]، الظلم يهدم البيوت، ويمحق البركات، ويورث النقمات، والله يتولى الانتقام من الظالم حتى لو كان المظلوم كافراً مشركاً؛ لأن الله قد حرم الظلم على نفسه قبل أن يجرمه على عباده؛ إذ هو منبع الرذائل ومصدر الشرور، وهو انحراف عن العدالة، ومتى فشا وشاع في أمة أهلكها، وإذا حل في قرية أو مدينة دمرها.

لقد حرم الله تعالى الظلم، وتوعد عزّ وجلّ الظالمين بعذاب أليم في الدارين، وذلك لما له من عواقب وخيمة على الأفراد وعلى المجتمعات، قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي: «قال الله تعالى: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا». وأخبر عزّ وجلّ أن من الناس من هو كثير الظلم لنفسه ولغيره فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ نَعْدُوْا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال جل وعز: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].



أيها المسلمون: إن الله تعالى توعد الظالمين بعذاب أليم في الدارين، وهذا هو عزاء المظلومين، فكل من ظلم عزأوه في وعيد الله عز وجل بالظلمة.

أما في الدنيا فإن الظالم لا يُفلح في دنياه، من سلك طريق الظلم فإن بابه في النهاية مغلق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقد يحرم الظالم من هداية التوفيق أيضًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

الظلم سبب مصائب الدنيا من أوجاع وأسقام وفقر وذهاب الأولاد والأموال والقتل والتعذيب وغلاء الأسعار وغيرها. إن ما تعانيه الأمة اليوم هو بسبب وجود الظلم بما كسبت أيدي الناس، يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٧]، دُونَ ذَلِكَ أي: قبل موتهم عقوبة شاملة للقرى الظالمة، عقوبة شاملة للمدن الظالمة، عقوبة شاملة للمجتمعات الظالمة.

إذا انتشر الظلم في مجتمع وجاهر أهله به وصار الصبغة العامة لهذا المجتمع هو الظلم فقد يعجل الله لهم العقوبة الشاملة التي لا يكاد يسلم منها أحد، بل تعم الصالح والطالح. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة المسلمة إذا كانت ظالمة).

إهلاك الله تعالى للظالمين في الدنيا وما أعده لهم من النكال والعذاب في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. لقد ذكر لنا ربنا تبارك وتعالى ما فعله بالقرى الظالمة فقال سبحانه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١]، وقال عز وجل: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِىٰ مُعْتَلَّةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]، ويقول جل وعلا: ﴿وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا﴾ (٨) فذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خَسِرًا [الطلاق: ٨-٩]. هذه بعض العقوبات الدنيوية.

أما في الآخرة فقد توعده الله الظالمين باللعة وأليم العقاب، فقال جل وعلا: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]. ثم إن هذا الظالم لن يكون له يوم القيامة نصير ولا شفيع ولا حميم، يحرم الظلمة من شفاعته إمام المرسلين وشفاعته من يأذن الله لهم في الشفاعته لعباده، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، ويقول عز وجل: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

ومما يصيب الظلمة يوم القيامة أيضًا الحسرة والندم، فكل ظالم سيندم هناك ولات ساعة مندم، ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٧٧) ﴿يَوَيْلَ لِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ (٧٨) ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفراق: ٢٧-٢٩].

وبعد هذا المشوار، وبعد كل هذا سينكس الظلمة في نار جهنم وتكون هي نهايتهم، فبئست النهاية وساءت الخاتمة، قال الله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبا: ٤٢]، فعاقبة الظالمين جهنم، لا يموتون فيها ولا يحيون، قال: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة»، فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله، فقال: «وإن كان قضيبًا من أراك»^(١)، وعن أبي سلمة أنه كانت بينه وبين أناس خصومة فذكر لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت له: يا أبا سلمة، اجتنب الأرض فإن النبي ﷺ قال: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين»^(٢)، وقال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]^(٣). فمن يجرو بعد هذا على شيء من الظلم؟!

(١) رواه مسلم (١٣٧).

(٢) رواه البخاري (٢٤٥٣) ومسلم (١٦١٢).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).



أيها المسلمون: لقد بين الرسول أن دعوة المظلوم مستجابة فقال: «واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(١). دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً؛ لأن فجوره لا يجيز التعدي عليه، وفجوره على نفسه، وعن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»^(٢)، وعن أبي الدرداء قال: «إياك ودعوة المظلوم، فإنها تصعد إلى السماء كشرارات نار حتى يفتح لها أبواب السماء». وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: (بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد).

ألا فليعلم كل من يقع في شيء من الظلم أن صاحب الحق وإن لم يستوفِ حقه اليوم فسوف يستوفيه في موقف أشد صعوبة وأقسى، يوم يقوم الناس لرب العالمين، يستوفيه حينئذ خيراً من ذلك، حسنات هي خير من الدنيا وما فيها، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»^(٣).

إنه الظلم الذي حرمه الله على نفسه وجعله بين عباده محرماً، إنه الظلم الذي يؤهل المعتدي للاستيلاء على حقوق الآخرين، إنه الظلم الذي يقلب الحقائق ويغيّر النتائج، إنه الظلم الذي توعد الله عليه أشد الوعيد: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢].

أيها المسلمون: إن الظلم مذهب لبركة العمر مضيع لجهد الإنسان محقق للكسب، بل إن الظلم إفلاس من كل مكسب في الدنيا والآخرة. روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس من لا درهم له ولا دينار ولا متاع، قال: «إنَّ

(١) رواه البخاري (١٤٩٦) ومسلم (١٩).

(٢) صحيح الترمذي (٢٥٢٦).

(٣) رواه البخاري (٢٤٤٩).



المفلس من أمّتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيُعْطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته. فإن فَنِيَتْ حسناته، قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه. ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ»^(١)، وعند مسلم أيضًا من حديث جابر أن رسول الله قال: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»^(٢).

أيها الظالم: أبشر بما أعدّه الله لك يوم القيامة: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، أبشر بعد سعادتك بظلم الناس وفرحتك بأكل أموالهم وانتهاك حقوقهم، أبشر بآل كَلَّه ظلم كَلَّه حزن كَلَّه حسرة كَلَّه ندم، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

أيها المسلم: الظلم خلق ذميم، الظلم عمل سيئ، الظلم عاقبته سيئة في الدنيا والآخرة، إنه سبب لزوال النعم، سبب لانتقاص الأعمار، سبب لحلول العقوبات والمثالات، وفي الآخرة ظلمات بعضها فوق بعض. فليتنق الظلمة من الظلمة، وليزلم العدل في كل أحواله، فالعدل به قامت الأرض والسموات، والظلم ظلمات يوم القيامة.

خلص نفسك من مظالم العباد، أي مال دخل عليك بغير حق فتخلص منه، ردّ الحقوق إلى أهلها، تخلص من التبعات ما دمت قادرًا في هذه الدنيا قبل أن ينزل بك الموت وترى ملائكة الجبار وترى ملك الموت، عندها تتمنى ساعة تعيش في الدنيا لترد المظالم وتخلص من الحقوق ولا ينفعك ذلك.

فيا أخي المسلم، أنت المحاسب، أنت المعذَّب، أنت المعاقب، إن ما أكلت من مظالم العباد ينساها الناس، ولكنها محفوظة عند الله، ﴿أَخْصَهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

(١) رواه مسلم (٢٥٨١).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٨).



كل مذكور سيئسى، وكل ملبوس سيلى، وكل مدخور سيفنى، ليس غير الله يبقى، من علا فالله أعلى، وإياك والماطلة، وإياك والتسويق، وإياك واللجوء إلى الخيل والخذاع، خلص نفسك فإنه لا ينقذك إلا أن تخلص نفسك في الدنيا قبل الوقوف بين يدي الله، ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

أيها الظالم: ثمة مواقف تمرّ بها وضعها في بالك حين ولوغك في الظلم، حين تبلغ الروح منك الحلقوم، يوم تعالج سكرات الموت وكرباته، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ عِزِّ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فأين النصير؟! وأين المعين؟! وأين الرفيق؟! فلا أحد ينجيك إلا الله. وموقفٌ في القبر حين يفرش لك فراش من جهنم، وتغطى بغطاء من جهنم، فيما تصعد روحك فتوصد أبواب السماء دونها، فترد إلى سجين وأسفل سافلين، ويفرش لك فراش من النار، قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نُجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١]، ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥]. فهل فكرت يا عبد الله في هذه المواقف؟! وهل فكرت في وقوفك أمام الجبار وسؤاله لك عن هذه المظالم؟! فهل ستعترذ أم ستفتدي نفسك أم ستطلب الرجعة إلى دار الدنيا لتتخلص من المظالم؟! كل ذلك محال وبعيد.

لماذا تظلم يا عبد الله؟! أهى قدرتك وقوتك؟! فسوف يسلط الله عليك من هو أقدر منك، أم هي عزتك ومالك وجاهك؟! فكل ذلك صائر إلى الذل والهوان، أم هو إمهال الله لك وإغداقه عليك النعم؟! فاتق الله، وأقلع عن ظلم المسلمين، وكُفَّ عن التعدي عليهم في أموالهم وأعراضهم ودمائهم قبل أن تلقى الله بهذا الظلم الشنيع.

الويل لأهل الظلم من ثقل الأوزار، وذكرهم بالقبائح قد ملأ الأقطار، يكفيهم أنهم وُسموا بالأشرار، ذهبت لذاتهم بما ظلموا وبقي العار، انتقلوا إلى دار العقاب ومَلَكَ غيرهم الدار، وخلوا بالعذاب في بطون تلك الأحجار، ولا مغيث ولا أنيس ولا جار، ولا راحة ولا سكون ولا قرار، سالت دموعهم على ما جرى منهم من الظلم كالأنهار، شيّدوا بنيان الأمل فإذا به قد انهار، فإذا قاموا في القيامة زاد البلاء

على المقدار، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبَّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّيِعَ الرَّسُولَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَكَانَتْكُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطَرَانٍ وَتَعْشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾ [إبراهيم: ٤٢-٥٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم..



الخطبة الثانية:

الحمد لله ولي الصالحين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلى الله وبارك على نبيه وصفيه محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون: الظلم والفساد قرينان، بهما تخرب الديار، وتزول الأمصار، وتقل البركات، ويحل الغش محلها، والظلم ظلمات، في غياهبه تزل الأقدام وتضل الأفهام ويظهر الفساد وتمحق البركة، وكيف يقدس الله قومًا لا يؤخذ من شديدهم لضعيفهم؟! عن جابر بن عبد الله قال: لما رَجَعْتُ إلى رسول الله مهاجرة البحر أي: الحبشة عام خيبر قال: «ألا تحدّثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟» قال فتية كانوا منهم: بلى يا رسول الله، بينا نحن جلوس مرت بنا عجوز من عجائز رهايينهم تحمل على رأسها قُلةً من ماء، فمرّت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفها ثم دفعها فخرت على ركبتها فانكسرت قُلتها، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسيَّ وجمع الله الأولين والآخرين وتكلّمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم من أمري وأمرك عنده غداً، قال: قال رسول الله: «صدقت صدقت، كيف يقدس الله أمةً لا يؤخذ من شديدهم لضعيفهم؟!»^(١).

قد يستبطئ الظالم العقوبة فيتأدى في ظلمه، ولا يتذكّر أن الله سبحانه يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

أيها الظالم: إن الخير يُقفل في وجهك، وإن الشر والبؤس والخذلان حليفك، ألا تعلم أن هناك دعوات تنطلق بالأسحار، فإذا هي تخرق الحجب فتصل إلى باريها وناصرها، فيقول لها: «وعزّي وجلالي، لأنصرتك ولو بعد حين»^(٢).

(١) حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٥٥).

(٢) صحيح الجامع (١١٧).



تقول أستاذة جامعية: حدثت قصتي مع الظلم قبل سنوات، كنت متزوجة فطلقت، وبعد طلاقي قررت الزواج بأحد أقاربي الذي كان ينعم بحياة هادئة مع زوجته وأولاده، حيث اتفقت مع ابن خالتي الذي كان يريد زوجة هذا الرجل على اتهامها بخيانة زوجها، وبدأنا في إطلاق الشائعات بين الأقارب ومع مرور الوقت نجحنا، حيث تدهورت حياة الزوجين وانتهت بالطلاق، وبعد مضي سنة تزوجت المرأة برجل آخر ذي منصب، أما الرجل فتزوج امرأة غيري، وبالتالي لم أحصل مع ابن خالتي على ما كنا خططنا له، ولكننا حصلنا على نتيجة عكسية، وهي نتيجة الظلم، حيث أصبت بسرطان في الدم، أما ابن خالتي فقد مات حرقاً بسبب التماس كهربائي في الشقة التي كان يقيم فيها، وذلك بعد ثلاث سنوات من القضية. لا إله إلا الله: «وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين»، «إِنَّ اللَّهَ كَيْمَلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»^(١).

أيها الظالم: اعلم أن من مات قبل ردِّ المظالم أحاط به خصومه يوم القيامة، فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلّق برقبتة، هذا يقول: ظلمني فغشني، وهذا يقول: ظلمني فبخسني، وهذا يقول: ظلمني فخدعني، وهذا يقول: ظلمني فقذفني، وهذا يقول: ظلمني فأكل مالي، وهذا يقول: اغتابني، وهذا يقول: كذب عليّ، وهذا يقول: شتمني، والجار يقول: جاورني فأساء مجاورتي، وهذا يقول: رأني مظلوماً فلم ينصرني، وهذا يقول: رأني على منكر فلم ينهني، وهذا يقول: جحد مالي، وهذا يقول: مطنني حقّي، وهذا يقول: باعني وأخفى عني عيب السلعة، وهذا يقول: شهد عليّ بالزور، وهذا يقول: سخر بي، وهذه زوجة تقول: ظلمني في النفقة ولم يحسن عِشرتي، وتلك تقول: لم يعدل بيني وبين زوجته الأخرى، وهذا يقول: تعدّى على محارمي، وهذا يقول: غدر بي، وهذا يقول: خانني، وهذا يقول: دلس عليّ، وهذا يقول: كادني، فبينما أنت على تلك الحال المخيفة التي لا يرى فيها بعضك من كثرة من تعلّق بك من المظلومين الذين أحكموا فيك أيديهم وأنشؤا فيك مخالفهم، وأنت مُتَحَيِّرٌ مضطرب العقل من كثرتهم ومطالبتهم حقوقهم، فلم يبقَ منهم أحد ممن عاشرتَه في الدنيا

(١) رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).



وظلمته إلا وقد استحقَّ عليك مَظْلَمَةٌ، وقد ضعُفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله أن يخلصك من أيديهم إذا قرع سمعك نداء الجبار جلَّ وعلا: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]، فعند ذلك ينخلع قلبك، وتضطرب أعضاؤك من الهيبة، وتوقن نفسك بالخسران، وتذكّر ما أنذرك الله تعالى به على لسان رُسُلِهِ حيث قال: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ۖ﴾ [الشورى: ٤٤-٤٥]، فيا لها من مصيبة، وما أشدها من حسرة في ذلك اليوم، فعند ذلك تؤخذ حسناته التي تعب عليها في عُمره ليلاً ونهاراً حضراً وسفراً، وتُعطى للخصماء عَوْضاً عن حقوقهم، فلينظر العاقل إلى المصيبة في مثل ذلك اليوم الذي ربّما لا يبقى معه شيء من الحسنات، وإن بقي شيء أخذته الغُرماء، فكيف يكون حالك أيها العبد إذا رأيت صحيفتك خالية من حسنات طالما تعبْتَ عليها، فإذا سألت عنها قيل لك: نُقِلَتْ إلى صحيفة خصمائك الذين ظلمتهم؟! وكيف بك إذا رأيت صحيفتك مشحونة مملوءة بسيئات لم تعملها، فإذا سألت عنها: من أين جاءت؟! قيل: هذه سيئات القوم الذين طالما اغتبتهم وتناولت أموالهم بالباطل وشتمتهم وخنتهم في البيع والجوار والمعاملة.

فيا من ظلمت أحداً بغيبته أو الطعن في عرضه، يا من شتمت أو لعنت أو أهنت صاحباً أو جاراً أو قريباً، تحلل ممن استطلت في أعراضهم، ادعُ بظهر الغيب لهم إن تعسر عليك الاعتذار منهم؛ فإن الله لا يدع مظلوماً يوم القيامة إلا انتصف له، حتى يقاد للشاة الجلحاء -غير ذات قرون- من الشاة القرناء.

يا من قطعت رحماً، يا من ضيقت على مسكين، واستقويت على ضعيف، كفاك، ارحم نفسك، وبدّل شدتك برحمة، وغلظتك برفق ورأفة، لعل الله أن يرحمك، فإنما يرحم الله من عباده الرحماء.

يا من قسوت على من هم تحت يدك من أهل وألاد، أو طلاب أو عمال، اعلم أن الله أقدر عليك منك عليهم، يا من أخذت المال من غير حله، يا من أكلت أموال الناس بالباطل،



الله الله، تدارك نفسك برّد حقوق الآخرين قبل أن يكون لا دينار ولا درهم، وإنما هي الحسنات والسيئات، والنعيم والعذاب، والجنة والنار.

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا فَالظُّلْمُ آخِرُهُ يُفْضِي إِلَى النَّدَمِ
وَاحْذَرِ أُخَيَّ مِنَ الْمَظْلُومِ دَعْوَتُهُ لَا تَأْخُذَنَّكَ سِهَامُ اللَّيْلِ فِي الظُّلْمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مُتَبِّهٌ دَعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمْ

نسأل الله تعالى أن يُجَنِّبَنَا الظلم وأن يكفيننا شر الظالمين، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.
اللهم إنا نعوذ بك أن نُظْلِمَ أو نُظْلَمَ، أو نُضِلَّ أو نُضَلَّ، أو نجْهَلَ أو يُجْهَلَ علينا.
اللهم أحينا على ما يرضيك، ولا تتوفنا إلا وأنت راضٍ عنا، وليس في أعناقنا دين
أو مظلمة لمسلم.





التحذير من العصبية (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله شرح بفضلله صدور أهل الإيمان بالهدى، وأضل من شاء بحكمته وعدله، فلن تجد له ولياً مرشداً، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهاً واحداً فرداً صمداً، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، كرم أصلاً وطاب محتداً، خصه ربه بالمقام المحمود وسماه محمداً ﷺ وبارك وعلى آله وأصحابه، هم النجوم بهم المهتدى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم واقتدى.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله، واعلموا أنما الخيرية بالتقوى، ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

عباد الله: عقيدة التوحيد تجمعنا ودار الإسلام تؤويننا، لا فخر لنا إلا بطاعة الرحمن، ولا عزة ولا كرامة إلا بالإيمان، نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله. معاصر المصلين، قضية اجتماعية، بسببها انتشرت البغضاء، ومنها نبعت الأحقاد، ولأجلها رفعت الشعارات الشيطانية، وتعددت الحزبيات العنصرية، ووجدت رواجاً عند ضعاف الإيمان واستغلها الأعداء أبشع استغلال.

لم تدخل في مجتمع إلا فرقته، ولا في صالح إلا أفسدته، ولا في كثير إلا قللته، ولا في قوي إلا أضعفته، ما نجح الشيطان في شيء مثلاً نجح فيها بين المجتمعات المسلمة، شب عليها الصغير وشاب عليها الكبير، وتبناها حثالة المجتمع.



مجالس الدهماء وتروجها، وأشعار الصعاليك ترددها، كلما خبت نارها جاء من يسعها، ويحذر من نسيانها والغفلة عنها. إنها العصبية المقيتة، إنها الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب، إنها الفخر بالأرض والتراب، إنها الفخر بالعرق واللون.

إنها دعوى الجاهلية تأصلت فيمن رَقَّ إيمانه وضعف يقينه وطُمس على قلبه وغَفَلَ عن أصله وحقيقته، الجاهلية التي كانت تنشب بين أهلها الحُرُوب الطَّاحنة لأتفه الأسباب، حمية للأنساب والأحساب!

يقول الله تعالى ذامًا أهل الحمية لغير الدين: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، وجاء في سنن أبي داود أن النبي ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»^(١).

وجاء أيضًا عن النبي ﷺ: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد»^(٢).

وروى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»^(٣).

روى حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب، وليستهين قومٌ يفخرون بأبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»^(٤).

عباد الله: قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ [الحجرات: ١٣]، جعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا لا لتتفاخروا، ولا تتكبروا على غيركم، ولا لتحترقوا من سواكم، فالله سبحانه يقول ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ وليس لتفاخروا وتعاضموا، فليس عيبًا أن يعرف الإنسان نسبه

(١) رواه أبو داود وسكت عنه وضَّفه الألباني في ضعيف أبي داود (٥١٢١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢٨٦٥).

(٣) حسَّنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٩٥٥).

(٤) صححه الألباني كما في صحيح الجامع (٤٥٦٨).



حتى يتحقق التعارف بين الناس شعوبهم وقبائلهم، ولكن العيب أن يكون ذلك مدعاة للتعاضم والتعالي على غيرهم. فما بال أقوام ينحون هذا المنحى ويدعون بهذه الدعوى والله سبحانه قد وضع الميزان الذي لا يختل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]؟! ولقد حسمت هذه الآية موضوع التفاخر بتأصيل ثلاث ركائز:

الأولى: أن أصل خلق الناس جميعاً واحد. وقد روي أن عيسى ابن مريم سئل: أي الناس أفضل؟ فقبض قبضتين من تراب وقال: «أي هاتين أفضل؟ ثم قال: الناس خلَقُوا من تراب، فأكرمهم أتقاهم».

الثاني: أن ما يحتج به الناس بانتسابهم إلى شعب كذا أو قبيلة كذا مما لم يأذن به الله لأجل التفاخر، وإنما أذن به لأجل التعارف فحسب، لما يترتب عليه من حقوق وواجبات. وأما التفاخر فلا مسوغ له؛ لأن كل أحد لم يختَر نسبُه ولا أصله ولا أمه ولا أباه، بل ربك يخلق ما يشاء ويختار، فليس للإنسان حق في أن يفتخر بما لم يكن له فيه يد، ولا له فيه فضل. ولو قال قائل: نحن نفتخر بفضل الله علينا، فالجواب: إن الذي تفضّل عليك بهذا جعله وسيلة تعارف ونهاك عن التكبر والتفاخر.

الثالث: أن الكرم والتفاضل والتقدم إنما هو لأهل التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وما أجمل ما قاله أحد المفسرين لهذه الآية، حيث قال رَحِمَهُ اللهُ: (وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سببُ ضخمٍ للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع وخلقهم من أصل واحد، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله. وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من العصبية للجنس والعصبية للأرض والعصبية للقبيلة والعصبية للبيت، وكلّها من الجاهلية وإليها تنزىيا بشتى الأزياء وتسمى بشتى الأسماء، وكلّها جاهلية عارية من الإسلام).

عباد الله: إن المسلم العاقل ليقف حائراً أمام هذه الجاهلية التي تستهدف أخوة الدين، وتمزق نسيج الأمة، وتقذح بالاعتصام بالكتاب والسنة، إما بإثارة النعرات القبلية، أو تنقُص



الناس باسم الوطنية، فمن كان من وطنك أحبه سواء كان برًا أو فاجرًا، في حين لا تحمل هذا الشعور تجاه أخ مسلم من غير بلادك ولو كان من أتقى الناس.

وإنه ليزداد العجب من إنسان يفخر بشيء لا جهد له فيه ولا كسب، وهو النسب، ثم يهمل ما له فيه يد وحيلة، من التقوى والأدب والخلق والفضل، وقد قيل:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً تغنيك محمودة عن النسب

إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

وهناك من يفتخر بأصله وفصله، وحسبه ونسبه، لكن لا يد له في المكرمات ولا نصيب له في الفضائل، فلا هو الذي ترك الفخر، ولا هو الذي اكتسبه بالفضل، كما قيل:

إذا افتخرت بأبَاءٍ ذوي شرفٍ قلنا صدقتَ ولكن بئسما ولدوا

عباد الله: ربما هناك في بعض البلاد الإسلامية من يعيشون فيها وليسوا من أهلها، يواجهون صلفاً في التعامل وغلظة في القول، وهمزاً ولمزاً يغرس الحقد ويولد البغضاء ويتسبب في الإيذاء، لا لشيء إلا لأنهم ليسوا من أهل تلك البلاد، فيصيبهم من أذى العنصرية والعصبية ما لا يليق بمسلم، بل بإنسان عاقل، وإنه لمن المؤسف أن مثل ذلك قد لا يحدث في كثير من بلاد الكفر، بل يُعامل الناس فيها سواسية بلا تمييز ولا عنصرية، من مبدأ الإنسانية، والمسلمون أحق بذلك من غيرهم لو كانوا يعلمون.

إن الأخوة الإسلامية تفوق جميع الصلات وتتجاوز بذلك الحدود الجغرافية والروابط الأرضية، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وفي الحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان»^(١)، «المسلم أخو المسلم»^(٢)، هذا هو شعار الذي يجب أن يرفع.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة؛ فهو من عزاء الجاهلية، بل لما اختصم مهاجري

(١) رواه البخاري (٦٠٢٦) ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) رواه البخاري (٦٩٥١) ومسلم (٢٥٦٤).



وأنصاري فقال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار، غضب الرسول ﷺ لذلك غضباً شديداً فقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم! دعوها فإنها مُنتنة»^(١) انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

أيها الآباء.. أيها الربون: اتقوا الله في أنفسكم، لا تُنشئوا صغاركم على التعصب والافتخار لغير الإسلام، بل ربوهم على المبادئ الكريمة والخصال الحميدة التي دعانا إليها ديننا القويم، وحثوهم على الاتصاف بها.

لسنا وإن أحسابنا كرمنا
نبنينا كما كانت أوائلنا
يوماً على الأحساب نتكل
تبنينا ونفعل مثلاً فعلوا

يا من تطعن في الأنساب، وتفتخر بالأحساب، يا من حقرت الناس وتنقصتهم، ألا تعلم حقيقتك؟! ألا تعلم أن أولك نطفة مذرة، وأحرك جيفة قدرة، وتحمل في جوفك العذرة؟! ألا تذكر قول الله: ﴿الَّذِينَ خَلَقَكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]. فعلام الكبرياء وعلام التعالي.

إن احتقار الآخرين والحمية لغير مرضاة الله توقع المرء في الغيرة لغير الإسلام والغضب لغير الله، وتؤدي إلى ظلم العباد، والقطيعة والعقوق، ومنع الحقوق، والانتصار للباطل وأهله، لا لشيء إلا بسبب تمكّن العصبية من النفوس، كما قال أحدهم:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١٠٢) وَأَعَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصَبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

أسأل الله تبارك وتعالى أن يؤلف بين قلوبنا، وأن يسلب سخائم صدورنا، وأن يجعلنا متحابين فيه، متآخين فيه، متبازلين فيه، فلا نعمة بعد الإسلام أعظم من ذلك.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم...

(١) رواه البخاري (٤٩٠٥) ومسلم (٢٥٨٤).

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا هو تعظيماً لشانه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه وخلانه.

أما بعد:

فإننا أمة تؤثر فينا تقاليدنا وموروثاتنا الاجتماعية وأعرافنا تأثيراً كبيراً، حسنها وسيئها، فقد ورثنا إلى جانب المروءة والشجاعة والكرم، العصبية التي تكاد تعصف بكل موروثاتنا الحميدة الأخرى. حيث أضحت تصنيفاً اجتماعياً قاسياً يؤخذ به أكثر من العدالة الاجتماعية الإسلامية في الزواج والعمل والتعليم، بل وحتى في التعامل اليومي بين أفراد المجتمع، فهذا فلاني وذاك علاني، والثالث لا هذا ولا ذاك، وكأن الله سبحانه وتعالى قد أعطانا الحق في تقسيم الناس تقسيماً لم يقره هو سبحانه، ولم يسنّه لنا النبي ﷺ، وأصبحت لنا شريعة أخرى غير شريعة الله وبتنا نخشى الناس والمجتمع أكثر من خشيتنا الله.

عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ جهاًراً غير سراً يقول: «إنَّ آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنَّما وليي الله وصالح المؤمنين»^(١).

إنَّ النسب الشريف، والحسب المنيف؛ بدون تقوى الله عزَّ وجلَّ لا ينفع، والنسب الوضيع مع وجود التقوى أفضل وأشرف وأرفع؛ فهذا بلال الحبشي لما أسلم وحقق التقوى لله رفع الله قدره، وأعلى منزلته، وبل وسمع النبي ﷺ دفَّ نعليه في الجنة، وأبو جهل المخزومي في أسفل سافلين.

خَذَلْتُ أَبَا جَهْلٍ أَصَالَتُهُ وَبَلَالٌ عَبْدٌ جَاوَزَ السَّحْبَا

وهذا سلمان الفارسي لما خالط الإيمان بشاشة قلبه، واتقى خالقه، وخاف سيده ومولاه، أيضاً رفعه الله، وحصل في الدنيا مبتغاه وتقلد جائزة: (سلمان منا آل البيت).

(١) صحيح مسلم.



وقد ذُكر أن سلمانَ الفارسيَّ لما سُئِلَ عن نسبه قال:

أبي الإسلام لا أب لي سِوَاهُ إذا افتخروا بقبائسٍ أو تمائمٍ

وفي المقابل: هذا أبو لهب القرشي لما كذب وأبى، واستكبر وطغى، وضعه الله في الدنيا والأخرى، وأنزل فيه آيات إلى يوم القيامة تتلى، قال الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥].

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب فقد رفع الإسلام سلمانَ فارسيَّ وقد وُضِعَ الشُّركُ الشريفَ أبا لهب

إن الإسلام والتقى ليرفع وضيع النسب، ويهبط رفيع الحساب.

أيها الناس: إن الأخوة الدينية بين الشعوب الإسلامية هي أقوى الوشائج والروابط التي تُشدُّ الأمة وتؤلف بينها؛ لتكون قوية متماسكة في وجوه أعدائها المتربصين بها من الكفار والمنافقين. إن الله سبحانه امتن على نبيه ﷺ بنعمة التآلف بين قلوب المسلمين، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ ۖ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝١٢ أَلَفَتْ يَدَاكَ قُلُوبُهُمْ وَلَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفَتْ يَدَاكَ قُلُوبُهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

وامتنَّ الله بها على المسلمين جميعاً رجالاً ونساءً، فقال عزَّ من قائل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

فاتقوا الله عباد الله، واحذروا وساوس الشيطان، فإنه إياكم يكيّد، ولتفريق شملكم يريد، فقد صح بذلك الوعيد، أخبر به أنصح العبيد للعبيد عليه الصلاة والسلام فقال: «إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»^(١).

فلا عصبية في الإسلام، بل أخوة إسلامية، وإن من المؤسف أن تجد الرجل يقيم شعائر

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٢٨١٢).



الدين، ويبكي من خشية الله، وفيه خير كثير، ثم تجده بعد ذلك قد ملئ قلبه بالعصبية والكبر، فلاجلها يحب ومن أجلها يعادي، ألا يعلم قول الرسول ﷺ: «الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان»^(١).

والحب من العبادات، فينبغي علينا أن نحب ما يحبه الله وأن نبغض ما يبغضه، والله تبارك وتعالى يبغض العصبية والحمية لغير دينه، وهو سبحانه بيده العزة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

وسياتي يوم لا تعرف فيه الأنساب: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، بل يتنكر فيه المرء لأحب الناس إليه ويفر من أقرب الناس إليه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَدِيقِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]. فهل ينفع في ذلك اليوم ما يرى من هذه العصبية بين القوم؟ وهل يغني الإنسان أن يكون من بني فلان أو فلان؟ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. نسأل الله أن يصلح بالأخوة أحوالنا، ويصلح بالإيمان قلوبنا، ويوحد على الحق صفنا..

هذا، وصلوا على من أمركم الله بالصلاة والسلام عليه..



(١) قَوَاهِ الْأَلْبَانِي بِمَجْمُوع طُرُقِهِ فِي كِتَابِ النَّصِيحَةِ (٢٤٠).



الغناء في ميزان الشرع (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله السميع البصير، العليم الخبير، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير، أحمده سبحانه أرسل رسوله لإزالة البصائر، وأشكره على ما أنعم به من سَمْعٍ للسامع وعين للناظر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، خاتم المرسلين، وسيّد المتّقين، اللهم صلّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا عباد الله: اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أيها الناس: إن القلوب إذا ضعف إيمانها، وأقدمت على المنكر مرة بعد مرة، أنسته واطمأنت إليه، وأصبح لديها أمراً مألوفاً، لا تشعر منه بحرج ولا إثم، وذلك مصداق قول النبي: «إن العبد إذا أذنّب ذنباً، نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع صُقل منها، وإلا امتدت حتى تعلق قلبه»^(٢)، وذلك الران الذي ذكر الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] فإذا علا القلوب ذلك الران، أصبحت لا تعرف معروفها ولا تنكر منكرها، حتى لو عرفت قبح ذلك الفعل وتحريمه، وهي عقوبةٌ بالغة لأصحاب المنكرات والمعاصي، تجرؤهم على حدود الله، وتشجعهم على انتهاك حرّمات الله، وتعمل على إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.

(١) محمد بن عبد الله الهيدان.

(٢) حسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣١٤١).



إنه سماع الغناء من الكلمات الماحجة المصحوبة بالموسيقى، الغناء الذي ملأ الفضاء بالهراء، وأغرى السفهاء بالبلاء، الغناء الذي يدور أصحابه حول فلك الشهوة التي لا تتقيد بآداب، ولا تحتكم إلى قيم، ولا تنضبط بشرع، كم أفسد من قلوب، وكم أركس من فطر، وكم أردى حليماً فصار به سفيهاً.

الغناء ينافي روح الإسلام، ويضاد الفطرة السوية الطاهرة، والقيم الكريمة والآداب الرفيعة، ومع ذلك فقد ألفه كثير من المسلمين وتعلقوا به أشد من تعلقهم بالقرآن العظيم أو حديث الرسول الكريم، بل هو عند بعضهم أليف، أقرب من القرآن والحديث، وإن البعض تمر عليه الأيام والأسابيع والشهور ولا يكاد يكون له نصيب من تلاوة أو سماع القرآن، وأما مزمار الشيطان، ومنكرات الألفاظ والصور والألحان، فلا يكاد يمر عليه يوم وليس له منها نصيب، والله المستعان.

ولقد بلغ الحال بالبعض أن يسهروا على الأغاني الماحجة والصور الفاتنة الليالي الطوال، ودموعهم على خدودهم، يتجاوبون مع التأوهات والألحان، التي خلع أصحابها رداء الحياء والخوف من الله سبحانه.

وإنك لتفكر حين تتأمل ما وصل إليه حال البعض من هذه الأمة، فتتساءل: كيف يتسنى لأمة هذا حال أبنائها أن تبني مجداً، أو تستعيد عزاً، أو تدفع عن نفسها عدواً أو طامعاً؟
يكفيك هذا، لتحكم على هذا المنكر وأثره المدمر في الأمم، وما أكثر ما تبيع أخلاق الأمة، على موائد اللهو والطرب، ومن هنا، تعرف لماذا يركز اليهود في مخططاتهم الإجرامية ومشروعاتهم الإعلامية لإفساد العالم، على نشر الغناء والموسيقى، وتشجيع محترفيها، والدعاية لهم.

ومن هنا أيضاً تعرف خطأ بعض الآباء في ذلك، من حيث يعلمون أو لا يعلمون، فبدلاً من أن يوقظوا في أبنائهم العزة الإسلامية، والكرامة القرآنية، ويشعلوا فيهم حماسة العلم النافع والعمل الصالح، ونفض الغبار عن أمتهم التي سامها عدوها سوم العذاب والذل والهوان، بدلاً من ذلك، يشجعونهم على استماع الغناء، والترنم بالألحان، ظانين أن ذلك سبيل الفلاح والنجاح، والعلو والرفعة.



أيها الأحبة: لقد مدح الله عباده المؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون، ومدح عباده المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون، ونوّه بذكر عباده الصالحين الذين يذكرونه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، وهلم جراً من تلك الصفات التي هي صفات أولي الألباب، وأرباب النهى والعقول، التي ترفع أصحابها درجات، وتنزّهم عما انحطّ فيه أصحاب الله من الدركات..

إلى هؤلاء نسوق حكم الله ورسوله في هذا المنكر، الذي أصبح اليوم معروفاً، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٦) وإذا نثّلنا عليه أينثنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشّره بعذاب أليم ﴿[لقمان: ٦-٧]﴾. قال الواحدي وغيره: (أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث الغناء قاله ابن عباس وعبدالله بن مسعود). قال أبو الصهباء: سألت ابن مسعود عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦] فقال: «والله الذي لا إله غيره هو: الغناء - يرددّها ثلاث مرات-».

وروى الإمام البخاري في صحيحه معلقاً بصيغة الجزم عن أبي مالك الأشعري قال ﷺ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف»^(١)، وهذا الحديث رواه البخاري بصيغة الجزم، وهو في اصطلاحه صحيح ثابت، وقد روي متصلاً صحيحاً في كتب أخرى من كتب السنة، فرواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وأحمد وغيرهم، ولو لم يكن في تحريم هذا المنكر إلا هذا الحديث لكفى، لقوته وصحته.

ومن دلائل النبوة فيه: أنه ﷺ قرن مع المعازف الزنا والخمر؛ لأنه طريق لها وباعث عليها، فالغناء رقية الزنا، أي موصل إليه ومشجع عليه، نسأل الله السلامة والستر والعافية. وعن عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي قال: «نُهِيتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحَقُّقِينَ فَاجِرِينَ: صوت عند نعمة؛ هو ولعب ومزَامِيرُ شَيْطَانٍ، وصوت عند مصيبة؛ لطم وجوه وشق

(١) رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم، برقم (٥٥٩٠).



جيوب»^(١)، فهل يؤخذ بعد ذلك قول أحد؟! إلا أن يكون الدافع إلى ذلك الهوى والشهوة. وإنا نعوذ بالله من زيغ الهوى، وتحكم الشهوة، وما أعظم على الناس فتنته وما أشد على الدين محتته، وهل أبقت الشريعة لقائل مقالا، أو لتصرف بعدها مجالا؟! ولقد فهم العلماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من هذه النصوص وغيرها، تحريم ذلك وخطره على الأمم والشعوب، فاتفق الأئمة الأربعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على حرمة، وقد حكى أبو عمرو بن الصلاح الإجماع على تحريم السماع الذي جمع الدف والشبابة والغناء، فقال في فتاويه: (أما إباحة هذا السماع وتحليله فليعلم أن الدف والشبابة والغناء إذا اجتمعت فاستماع ذلك حرام عند أئمة المذاهب وغيرهم من علماء المسلمين، ولم يثبت عن أحد ممن يُعتد بقوله في الإجماع والاختلاف أنه أباح هذا السماع).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإنهم متفقون - أي: الأئمة الأربعة - على تحريم المعازف التي هي آلات اللهو كالعود ونحوه).

وقد نهى الله جَلَّ جَلَالُهُ المرأة أن تحرك رجلها حتى لا يُسمع صوتٌ خلاخلها، فكيف بمن تعرض نفسها للناس وقد تزينت كما تتزين المرأة لزوجها، ثم تتكسر في غنائها، وتتميع في كلماتها، وتخضع بالقول لتطمع من في قلبه مرض، وتُعرض كل من لسماعها عرض؟!!

وقد نص الإمام أحمد على كسر آلات اللهو كالعود والطنبور وغيرها، إذا رآها مكشوفة وأمكنه كسرها، فكيف بهذا النوع السائد اليوم، الذي يحرص على الفاحشة، ويشحذ الشهوات، ويستحث الغرائز للحرام، ويشجع على هتك الحرمات، والتعدي على الأعراض.

قال الإمام القاسم بن محمد: (الغناء باطل، والباطل في النار). ويقول الفضيل ابن عياض: (الغناء رقية الزنا). وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى مؤدب ولده: «ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاحى التي بدؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن، فإنه



بلغني عن الثقات من أهل العلم أن صوت المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب على الماء».

وقد قال يزيد بن الوليد يعظ بني عمومته: (إياكم والغناء، فإنه يُذهب الحياء، ويزيد الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السُّكر، وجنبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنا).

وذلك لأن غناء الرجل ذو أثر كبير على عواطف المرأة ومشاعرها، لا سيما مع ما جُبلن عليه من الضعف، وما شاع فيهن من قلة العلم والفقه، وضعف الديانة في العصور المتأخرة. قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: (صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها -أي: سماع غنائها- فهو سفيه تُرد شهادته. وأغلظ القول فيه، وقال: هو دياثة، فمن فعل ذلك كان ديوثًا). قال القاضي أبو الطيب: (وإنما جعل صاحبها سفيها، لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل، كان سفيها فاسقًا). وقد سمع سليمان بن عبد الملك صوت غناء، فاحضر المغنين وقال: (إن الفرس ليصهل فتستودق له الرمكة، وإن الفحل ليهدر فتضبع له الناقة، وإن التيس لينبّ فتستحرم له العنز، وإن الرجل ليتغنى فتشتاق له المرأة، ثم أمر بخصائهم). فلعمر الله كم من حرة صارت بالغناء من البغايا؟! وكم من حر أصبح به عبدا للصبيان و الصبايا؟! وكم من غيور تبدل به اسما قبيحا بين البرايا؟! وكم من ذي غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطارف والحشايا؟! وكم من معافي تعرض له فأمسى وقد حلت به أنواع البلايا؟! وكم جرّع من غصة، وأزال من نعمة، وجلب من نقمة، وذلك منه من إحدى العطايا، وكم خبا لأهله من آلام منتظرة، وغموم متوقعة، وهموم مستقبلية.

ألا نرى ما هو منتشر في مجتمعاتنا اليوم، من تعلق بعض البنات بالمطربين والمغنين والممثلين، وتفاخرهن بذلك في المجالس والمدارس والبيوت، فأَي رجل بعد هذا، يملك في نفسه شيئا من الغيرة والرجولة على محارمه ونسائه، يرضى باستماعهن إلى غزل الفارغين من المطربين، الذين لا همّ لهم إلا الشهرة والمال، والضرب بالقيم والآداب عرض الحائط.

أفلا يتق الله أولئك الآباء، الذين يرضون بذلك في أهلهم، ويصغون له تاركين شرع الله وراءهم ظهرياً، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْهُدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

أقول ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم...



الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً، سبحانه خلق السمع والبصر والفؤاد وقال: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، أحمده وأشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

أيها المؤمنون: إن الأمة لا بد أن تستيقظ من سباتها وتستفيق من غفلاتها؛ فلقد كثر انتشار الأغاني بين الناس، واستحوذها على القلوب، وصدّها عن ذكر علام الغيوب، وحثّها على الرذائل والعيوب؛ الأمر الذي يُبعد عنا رحمته ويجلب سخطه، وما أحوجنا اليوم لأن نقرب من رحمته ونبتعد عن سخطه.

أيها الأخوة في الله: هذه رسائل أوجهها إلى من لا زالوا حريصين على مرضاة ربهم، واتباع آداب نبيهم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم:

الرسالة الأولى: إلى محب الغناء! أخي الحبيب.. ها أنت قد علمت ما للغناء من أثر، وكيف أنه يعارض ما أراده رب البشر، من تعبيد القلب ولهجه بذكر الله، وصون الأعراض، وحفظ الفرج، وغض للبصر، أنت تدرك أيها اللبيب أن مؤدى الغناء يضاد ويحاد الله ورسوله، ويناقض مراد الله في قوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ وَيَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ثم أنت تدرك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]، وتعلم مدى نصيب هذه الملاهي والمعاذف والكلمات والصور مما تعنيه هذه الآية.

ثم أخي الغالي.. إذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن في قلبك والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء بسماعهم، فإنه من المعلوم، أن من أحب حبباً كان كلامه وحديثه أحب شيئاً إليه، فأين أنت من محبة القرآن، وكم نصيبك منه؟

إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي
أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

وإن حب القرآن وحب الغناء في قلب مؤمن لا يجتمعان أبداً.. يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:
حب الكتاب وحب الحان الغنا في قلب عبد ليس يجتمعان
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا تقييده بشرائع الإيمان
واللهو خف عليهم لما رأوا ما فيه من طربٍ ومن ألحانٍ
يا لذة الفساق لست كلذة الأبرار في عقلٍ ولا قرآنٍ

فإذا وجدت شهوة وميلاً للغناء في قلبك ورغبةً ومحبةً لسامعه، فارجع على الفور وتفقد مصحفك، ستجد أن ذلك الميل لم يكن إلا بسبب ما يعيشه قلبك من الجذب والقحط وعدم الارتواء من كلام الله، فشغله الشيطان بالباطل من كلام الناس، حين لم ينشغل بالحق من كلام الله، وأعيدك بالله أن تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ثم اعلم أن المعازف قرينة اللهو واللغو والغفلة عن ذكر الله، وأهلها لا يسلمون من التعدي على حدود الله، وذلك نذير شؤم على الفرد والمجتمع، فعن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «في هذه الأمة خسف ومسح وقذف» فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذاك؟ قال: «إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمر»^(١)، وعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يعزف على رءوسهم بالمعازف والمغنيات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير»^(٢).

أما تحشى سوء الخاتمة فإن من أسبابها الإصرار على الذنوب فلربما غلب عليك حب الغناء عند سكرات الموت فيظفر بك الشيطان عند تلك الصدمة، ويتخطفك عند تلك الدهشة، عياذاً بالله من ذلك، وإذا كان الشيطان قد استطاع عليك وأنت في حال قوتك

(١) السلسلة الصحيحة (٤/ ٣٩٣).

(٢) صحيح ابن ماجه (٣٢٦٣).



ونشاطك، فكيف في حال ارتخاء اليدين وامتداد الساقين وثقل اللسان، نسأل الله السلامة والعافية.

الرسالة الثانية: إلى الذين يروجون للأغاني الماجنة والحفلات التي لا تخلو من انحلال وسفول في الصوت والصورة، أما إنكم قد ساعدتم عدوكم في إفساد أبناء أمتكم، شبابا وصغارا، ذكورا وإناثا، في نشر الرذيلة بينهم، فكم من أعراض قد انتهكت بسبب ما يهيجه الغناء؟! وكم من شباب ضاعوا بسبب الغناء؟! وكم من أموال قد أهدرت؟! وفضيلة قد تلاشت؟ وكم من خصال رفيعة قد ضُيعت؟! وكم من سجايا حميدة قد أُهملت؟! فلا تنشر شيئا يرجع عليك بالإثم عند الله تعالى، حتى وإن ابتليت بذنب فلا أقل من أن تندم على فعله، وتسلم من مضاعفته بالدلالة عليه.

قال عليه الصلاة والسلام: «من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئا، ومن سن سنة سيئة فعمل بها كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا»^(١)، فلماذا تحمل نفسك ما لا تطيق؟! يقول الله جَلَّ جَلَّالُهُ عَنْ قَوْمٍ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

الرسالة الأخيرة، للشباب والدعاة والآباء والمربين، إنكم مطالبون بأداء الأمانة، وتربية الجيل، بنين وبنات، وبذل الجهد، وإفراغ الوسع في تعويد الناشئة مكارم الأخلاق، ومحاسن الطباع، وإسماعهم ما يغرس فيهم الفضيلة والأدب، من حسن الكلام، وجيد الشعر، وبلغ الحكم، ليرضعوا من صغرهم الصدق والأمانة، والعفة والصيانة، والنخوة والشهامة، والكرم والمعروف، لا أن يعتادوا على الفحش ومردول القول وسيء الطباع، وإن الله سائل كل راع عما استرعاه، حفظ ذلك أم ضيّع؟

(١) صحيح ابن ماجه (١٦٩).



عوّذ بنيك على الآداب في الصغر كيما تقرّ بهم عيناك في الكبر
فإنما مثل الآداب تجمعها في عنفوان الصبا كالنقش في الحجر

وإن كل أب وأم، ومعلم ومُربٍّ، يدرك ما لهذه الأغاني والملاهي من أثر عكسي، وتأثير سلبي على منظومة الآداب والقيم، والخصال والسجايا، ومن هنا ندرك أنه من الأهمية بمكان لفت نظر الشباب والصغار إلى أفضل القدوات، وتكرار القصص والمواقف لخيرة الناس وقادة الأمم وسادات الصالحين والعلماء الذين لهم لسان صدق، ومنشور فضل، وصفحة ناصعة في التاريخ، لئلا تنحرف بوصلة الناشئة فيبحثوا عن القدوات في غير أماكنها، ويلهثوا وراء كل ناعق، ممن لم يكن له أثر علمي أو عملي، ديني أو دنيوي، فيعود بالكرة الخاسرة، والصفقة البائرة، يقول أحد العلماء: (كان من أهم أسباب انصرافي للعلم والجد والنبوغ، تلك القصص التي كانت تسردها عليّ جدتي قبل نومي من السيرة النبوية، والمواقف المحمدية، وأنا في سن السابعة من عمري!).

ما أجهل أن يُعوّذ الصغير، ولدًا كان أو بنتًا، على حب الله، وترتيل كتاب الله، والتشرب لسيرة رسول الله، وقصص الصحابة الكرام، والأتقياء الأنقياء، والعلماء والخبراء، لينشأ صالحًا مصلحًا، نافعًا لنفسه وأهله ومجتمعه وأُمته...

هذا وصلوا رحمكم الله على البشير النذير، والسراج المنير...





العلم وفضله وآدابه (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، له الحمد على نعمه الظاهرة والباطنة علمنا بعد الجهل وجعل لنا سمعنا وأبصارًا: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، بيده الضر والنفع، والخفض والرفع، وبيده الملك ومقاليذ السماوات والأرض وهو عليم بذات الصدور.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أزكى البرية، ومعلم الإنسانية ختم الله به النبوة والرسالة، وأعطاه الحوض والكوثر والشفاعة صلوات الله وسلامته عليه وعلى آله وأصحابه وجميع السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان.

ثُمَّ أَمَّا بَعْدُ:

فيا أيها الأخوة المسلمون: اتقوا الله عَزَّوَجَلَّ واخلشوه سبحانه فإن هذا هو الفوز والفلاح وهو العلم والنجاة، بالخشية والتقوى يحصل الرزق والفرج، وتكفي السيئات ورفع الدرجات.

أيها المسلمون:

إن أفضل ما اكتسبته النفوس وحصلته القلوب ونال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة هو العلم والإيمان ولهذا قرن الله سبحانه بينهما في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].



وقوله: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١] (١).

إن العلم إمام العمل وقائد له والعمل تابع للعلم ومؤتم به فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه كما قال بعض السلف: (من عبد الله بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلح). اهـ (٢).

ولقد أخبر الله سبحانه بأن العلم النافع سبب لخشيته سبحانه فقال -جَلَّ ذِكْرُهُ-: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

فأهل العلم العاملين هم أكثر الناس خشية لله وتعظيماً له وهذه هي ثمرة العلم والفقه. قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: (الفقيه مَنْ يَخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ).

نعم، فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق ويميز به بينه وبين الباطل.

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: (ليس طلب العلم فلان عن فلان إنما طلب العلم الخشية لله عَزَّ وَجَلَّ)، وقال أيضاً: (إنما يطلب العلم ليتقى الله به فمن ثم فَضِّلَ. فلو لا ذلك لكان كسائر الأشياء، إن العلم إن لم ينفعك ضرك).

إنه لا شيئاً أفضل من طلب العلم وتعليمه لمن خلصت نيته لله وصلح قصده.

أما من تعلم العلم للريا والمفاخرة والوصول إلى المناصب وأكل الأموال والتطاؤل على الناس فهو متوعد بوعيد مناسب لقصره السيء.

روى أبو داود وابن ماجه عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يَتَغْنَى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيَصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يعني ريجها (٣).

(١) الفوائد لابن القيم (ص ١٣٨).

(٢) مفتاح دار السعادة.

(٣) صحيح الترغيب (١٠٥).



ومن هذا الفعل ونحوه حذر أسلافنا فقال سفيان يوصي رجلاً: (إياك أن تكون ممن يحب أن يعمل بقوله أو ينشر قوله فإذا ترك ذاك منه عرف فيه، وإياك وحب الرئاسة فإن الرجل يزهد في الدينار والدرهم وتكون الرئاسة أحب إليه من الذهب والفضة وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء والسماسة والحمارة).

ولهذا ضرب الله في القرآن مثلاً لعالم السوء في موضعين شبهه في أحدهما بأخس الحيوانات فقال عز وجل: ﴿وَأَقْلَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثَ ذَٰلِكَ مِثْلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ بِءَايَاتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصْصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿[الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

وقال في الآخر: ﴿مِثْلُ ٱلَّذِينَ حُمِلُواْ ٱلتَّوْرَةُ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا يَبْسُ مِثْلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ بِءَايَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

أيها المسلمون: تعلّموا علم القرآن والسنة واعملوا بما تعلّمتم فإن المرء لا يزال عالماً ما طلب العلم واجتهد في تحصيله فإذا ظن أنه قد استغنى من طلب العلم وجمعه فقد جهل ودبّ إليه داء الغرور الكاذب، والعجب المهلك والعاقل لا يمنعه من طلب العلم كبر السن أو الخجل فإن هذا من أساليب الشيطان والعلم لا يقاس بالعمر ولا بالمنصب ولكنه نورٌ يقذفه الله في قلب من شاء وعلى هذا فلا يجوز للمرء أن يحتقر من هو أصغر منه سناً إذا وهبه الله علماً بل عليه أن يتعلم منه وأن يجلس إليه وإن يسأله وأن يجانب الحسد والاحتقار فإنهما خلقان مذمومان فهكذا يصنع الجاهل بأصحابه.

عباد الله: مَنْ عرف العلم وفضله لم يقض نهمته منه، ولم يشبع من جمعه طول عمره كيف لا وقد قال رسول الله ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

كيف لا؟ وقد استشهد الله سبحانه بأولي العلم على أجل مشهودٍ عليه وهو توحيده فقال عزّ من قائل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقَدِيمُ ٱلْعَلِيمُ قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].



وطلب العلم الشرعي بصدق وإخلاص من أسباب دخول الجنة فلقد صَحَّ عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له مَنْ في السموات ومن في الأرض حتى الحيتانُ في جوف الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر»^(١)

وقوله: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم» معناه: أنها تدعو له وتعطف عليه^(٢) وتتواضع لطالب العلم تعظيماً له أو أنها تنزل عند مجالس العلم وتترك الطيران^(٣).
وَمَنْ أراد الله به خيراً وَفَّقَه لتعلم ما ينفعه وَيُبصره بأحكام دينه.
وروى^(٤) عنه عليه السلام قال: «مَنْ يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

بالعلم يصلح الإنسان زينه وفاسده، ويرغم عدوّه وحاسده ويقوّم عوجه وميّلّه
ويصحح نيته وأمله.

ومن وصايا لقمان لأبنه قال:

(يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك، فإن الله يحبي القلوب الميتة بالحكمة كما يحبي الأرض الميتة بمطر السماء).

إن من العلم أيها المسلمون: ما هو واجب لا عُذر لأحدٍ بتركه كمعرفة الأحكام
الضرورية من العقائد والعبادات والمعاملات ومنه ما سوى ذلك واجب كفائي ينوب فيه
بعض المسلمين عن بعض.

(١) صحيح الجامع (٦٢٩٧).

(٢) هذا ما ذهب إليه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (ص ٥، ٦).

(٣) ذكره الخطابي كما في منهاج القاصدين.

(٤) رواه البخاري (٧٣١٢) ومسلم (١٠٣٧).



إننا ونحن نستقبل عامًا دراسيًا جديدًا ليحسن بنا أن نتذكر سرعة مرور الليالي والأيام وأنها هدمٌ لأعمارنا، وتقريبٌ من آجالنا فما أسرع مرور الأيام وانقضاء الشهور والأعوام وإن في هذا لذكرى لكل لبیب حازم بأن لا یَعْتَرَّ بشبابٍ ولا بصحة إن الأيام قُلْبٌ ن والموت يأتي بغتةً، ورأس مالک هو عملک الصالح ممن قَدَّم شيئًا علیه ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نَفْسٍ يَمْلِكُ أَنْ يَنْقُصَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الروم: ٤٤].

أيها المدرسون والطلاب والآباء: ليتذكر كل منكم واجبه، وليجاهد نفسه على أداء الأمانة بإخلاص وإن من القيام بأمانة العلم:

مجاهدة النفس على العمل به فهذا هو ثمرة العلم وذلك بلزوم التواضع وإساءة الظن بالنفس، والمحافظة على الجمعة والجماعة، وبر الوالدين والحرص على نوافل العبادات والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون ممن فتح الله بصيرته وأنار قلبه وزاده علمًا وهدى ومن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم، وحفظ علمه من النسيان، وأصبح كلامه وتوجيهه مقبولًا.

أما من كان يجيد التوجيه بالقول فقط وفعله ومظهره يخالف ذلك فإنما يؤبَّخ نفسه، ويقيم الحجة على شخصه وقد استعاذ النبي ﷺ: «من علم لا ينفع»^(١).

إذا العلم لم تعمل به كان حجةً عليك ولم تُعذر بما أنت حاملٌ فإن كنت قد أبصرت هذا فإنما يصدق قول المرء ما هو فاعلٌ

فعلى مَنْ تصدر لتعليم أبناء المسلمين: إن يتقي الله فيهم، وأن يتعاهد هم بالتوجيه وأن يغرس في قلوبهم العقيدة الصحيحة وأن يذكرهم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه وما فيها من دروسٍ وعبرٍ وأن يكون قدوة لطلابه في مظهرة ومخبره وأن يحذر طلابه -دائمًا- من جلساء السوء ومن فتن الشهوات والشبهات فإنهم عنده أمانة والله المسئول أن يوفق أهل العلم

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).



وشباب الأمة وجميع المسلمين إلى أحسن الأقوال والأعمال وأن يرزقهم الفقه في الدين
والبصيرة فيه وأن يعيذ الجميع من فتن الشبهات والشهوات إنه هو السميع العليم هذا
واستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله وحده، وأشهد أن لا إله إلا الله لا شيء قبله ولا شيء بعده.. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

العلم مبلغ قومًا ذروة الشرف
وصاحب العلم محفوظ من التلف
يا صاحب العلم مهلاً لا تدنسه
بالموبقات فما للعلم من خلف
العلم يرفع بيتاً لا عماد له
والجهل يهدم بيت العز والشرف
قَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (تَدْرِي مَا الْعِلْمُ النَّافِعُ؟ هُوَ مَا نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَفَسَّرَهُ الرَّسُولُ ﷺ قَوْلًا وَعَمَلًا، وَلَمْ يَأْتِ نَهْيٌ عَنْهُ).

قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ خَالِصًا، يَنْفَعُ بِهِ عِبَادَ اللَّهِ، وَيَنْفَعُ نَفْسَهُ؛ كَانَ الْحُمُولُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ التَّطَاوُلِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَزِدُّهُ فِي نَفْسِهِ ذُلًّا، وَفِي الْعِبَادَةِ اجْتِهَادًا، وَمِنْ اللَّهِ خَوْفًا، وَإِلَيْهِ اسْتِيْقَا، وَفِي النَّاسِ تَوَاضَعًا، لَا يُبَالِي عَلَى مَا أَمْسَى وَأَصْبَحَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا).

ومما جاء في الحرص على العلم: قال أَبُو الْوَفَاءِ بْنُ عَقِيلٍ: (عَصَمَنِي اللَّهُ فِي شَبَابِي بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعِصْمَةِ وَقَصَرَ مَحَبَّتِي عَلَى الْعِلْمِ وَمَا خَالَطْتُ لَعَابًا قَطُّ، وَلَا عَاشَرْتُ إِلَّا أَمْثَالِي مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ وَأَنَا فِي عَشْرِ الثَّمَانِينَ أَجِدُ الْحِرْصَ عَلَى الْعِلْمِ أَشَدَّ مِمَّا كُنْتُ أَجِدُهُ ابْنَ الْعِشْرِينَ).
قال أبو حازم رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَا تَكُونْ عَالِمًا حَتَّى تَكُونَ فِيكَ ثَلَاثُ خِصَالٍ: لَا تَبْغِي عَلَى مَنْ فَوْقَكَ، وَلَا تَحْقِرَ مَنْ دُونَكَ، وَلَا تَأْخُذَ عَلَى عِلْمِكَ دُنْيَا).

فاتقوا الله رحمكم الله واجتهدوا في تعلُّم الأحكام الشرعية عن طريق السؤال والمذاكرة، والجلوس إلى أهل العلم في المساجد والمعاهد والجامعات وعن طريق القراءة والاستماع فلقد توفّرت في هذا العصر بحمد الله وسائل التعلُّم التي كان ير حل من أجلها سلفنا الصالح شهورًا وسنوات، ويقطعون الفياقي والقفار، ويتعرضون للجوع والأخطار ومن أراد تحصيل



علم غزير فليهجر الراحة وتضييع الأوقات فإن العلم لا يستطاع براحة الجسد، وهو لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كُلك.

فيا هذا: إن كنت ترغب في عظيم الأجر وسمو القدر ونباهة الذكر وارتفاع المنزلة بين الخلق وتلتمس عزًا لا تُلْمُهُ الليالي والأيام فعليك بالعلم الشرعي فاطلبه في مظانه تأتاك المنافع عفواً واجتهد في تحصيله مدة من الزمن ثم تَذَوِّقُ حلاوة الكرامة مدة عمرك وتمتّع بلذة الشرف فيه بقية أيامك واستَبِقْ لنفسك الذكرَ به بعد وفاتك^(١).

ما الفخرُ إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى إدلاءً
وقدر كل أمرٍ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
فَفَزْ بعلمٍ تعيش حياً به أبداً الناس موتى وأهل العلم أحياء

أيها الطلاب: تأدّبوا بآداب العلم وأقروا ما كتب عن فضل العلم وآداب الطلب، واعرفوا للمعلّم قدره، واحترموا مَنْ تتعلمون منه واحتملوا قسوته للمصلحة: من لم يحتمل دُلَّ التعلّم ساعةً تجرع كأس الجهل طول حياته وحذار من العجب والكبر فهما خلقان ذميّان ولكنهما في أهل العلم وطلبته أقبح وأشدُّ ذمّا.

والعلم حربٌ للفتى المتعالي كالسيل حربٌ للمكان العالي وعلى طالب العلم أن يثبت علمه بالعمل ومما أثر عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «هتف العلم بالعمل فإن إجابة وإلا أرتحل».

وطالب العلم قدوةً لغيره فعليه أن يصون نفسه على مجالس المنكر ومن يهتكون أستار الأدب، ويجمعون على اللهو المحرم.

(١) الحث على طلب العلم لأبي هلال العسكري.



أيها الآباء: شجعوا أبناءكم على التحصيل العلمي وحفظوهم كتاب الله فإنه أساس العلوم، وحذروهم من جلساء السوء، واسألوا عنهم في المدرسة وامنعوا عنهم وسائل الشر والفساد، وادعوه بالصلاح والهداية لتقر أعينكم بهم وتنتفع الأمة منهم.

وإياكم أن تركّزوا في أذهان الطلاب والطالبات بأن الرزق والوظيفة من الدراسة فحسب، بل علّموهم التوكل على الله عزّ وجلّ فكم من دارس مقير وكم من عامي غني.

إن الدراسة سببٌ لطلب العلم ورفع الجهل لمن استطاعها ووفق إليها، أمّا من لم يستطيع مواصلة الدراسة ووجد له عملاً فلينصرف إليه بعدما أخذ من العلم الشرعي ما يقيم به دينه كما قيل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

أن من أولياء الأمور من يقيس أبناءه بدراستهم لا بمحافظتهم على صلاتهم. لذا ترى اهتمامهم بدراسة الأولاد وأعظم من اهتمامه بصلاحهم وصلاتهم وعفتهم وهذا انتكاس خطير وبلاء كبير، فنعوذ بالله من علماً لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشيع. اللهم صل على محمد وآله وصحبه.





شرف تعلم القرآن وتعليمه (١)

الخطبة الأولى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ﴿٢﴾ مَكَثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۖ ﴿٣﴾ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ﴾ [الكهف: ١-٥].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الدُّل وكبره تكبيراً، وأشهد أن سيدنا محمداً عبدُ الله ورسولُه، وصفيه من خلقه وخليله، بعثه ربُّه مُبَشِّراً ونذيراً، وهادياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبشّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً، وأنذر الكافرين من النار ساءت مستقراً ومصيراً، فالصلاة والسلام عليك يا رسول الله، الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله؛ عدد حَبَّاتِ المطر، وعدد أوراق الشجر، وعدد أنفاس أهل الجنة، وكلما ذَكَرَكَ الذاكرون، وغفل عن ذكركَ الغافلون، أما بعد:

عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله العظيم وطاعته، وأنهاكم ونفسي عن عصيانه ومخالفة أمره ونهيه فان الله تعالى يقول في محكم التنزيل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أيها الكرام: لا يخفى على كل فرد منكم ما يتبوأه العلم والتعليم في الإسلام من درجة عظيمة، ومرتبة سامية كبيرة، ترتفع به الأقدار، وتحاز به المغامر الكبار؛ يقول الله جلّ وعلا في محكم كتابه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

(١) لم يتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



[المجادلة: ١١]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «العلماء فوق المؤمنين مئة درجة، ما بين الدرجتين مئة عام»^(١)، وقال وهب بن منبه: (يتشعب من العلم الشرف وإن كان صاحبه دنيئاً، والعز وإن كان صاحبه مهيناً، والقرب وإن كان قصيماً، والغنى وإن كان فقيراً، والمهابة وإن كان ضيعاً)^(٢).

والعلم طريق إلى الجنة معبد، ودرب للفلاح محمد أخبر بذلك المصطفى ﷺ عندما قال: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»^(٣).

وفضل العلم حقيقة، وشرفه أمهر وأشهر من أن يذكر، وأوضح من أن ينكر، ويكفي في ذلك النظر، وكيف لا يكون العلم بهذا الفضل وفيه حفظ دين الرسول، وكيف لا يكون بهذه المنزلة الرفيعة وبسببه يحصل كل خير مأمول.

إن العلم لنور يستضيء به العبد فيعرف كيف يعبد ربه، وكيف يعامل عباده، فتكون مسيرته في ذلك على علم وبصيرة.

ولقد حضت هذه الشريعة الغراء ودعت إلى تعلم العلم وتعليمه -إذ هو منبع كل فضيلة، ومنبت كل فسيلة- يقول النبي ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(٤).

وإن من أشرف العلوم تعلمًا وتحفظًا وتفهمًا هو ما حث الله عز وجل، وحث رسوله ﷺ على تلاوته وتدبره وتعلمه، ورتب على ذلك المقامات الكريمة، والمنازل السامقة الرفيعة ذاك هو: القرآن الكريم الذي قال الله في أوصافه: ﴿وَلَنَزِّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١١٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ^(١١٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ^(١١٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿الشعراء: ١٩٢-١٩٥﴾، وقال أيضًا: ﴿الرَّكَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

(١) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة (٢٧).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (٣٤).

(٣) رواه مسلم (٤٨٦٧).

(٤) رواه ابن ماجه (٢٢٠)، وصححه الألباني في صحيح (٢٩٦/١).



وإذا كانت العلوم تفضل لأنها تخدم كتاب الله، فما بالك وأنت تتعلم هذا الأصل الأصيل، وهذا النور القويم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

عباد الله: لقد أنعم الله تبارك وتعالى علينا بالقرآن العظيم الذي فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه جحراً قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشعب معه الآراء، ولا يشعب منه العلماء، ولا يملكه الأتقياء، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من أحب القرآن أحب الله ورسوله»، ويقول عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم».

تقرأ المصنفات، وتطالع المؤلفات؛ فإذا كتاب الله الأكمل والأجل، تصادفك الشوارد، وتلهيك الفرائد؛ فإذا القرآن العظيم الأحسن والأنبل، يخاطب القلب فيخشع، والعين فتدمع، ولو نزل على جبل لتصدع يقول جل شأنه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّتَصِدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

أتى على سفر التوراة فانهزمت فلم يفدها زمان السبق والقدم ولم تقم له للإنجيل قائمة كأنه الطيف زار الجفن في الحلم

فهو أشرف دستور، وأبهى نور، ولذا جاء الأمر بالاعتصام به يقول سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وفي هذه الآية يأمرنا الله تبارك وتعالى أن نتمسك بحبل الله، وفي التفسير إنه القرآن، وإنما سمي به لأن المعتصم به في أمور دينه يتخلص به من عقوبة الآخرة، ونكال الدنيا، كما أن المتمسك بالحبل ينجو من الغرق والمهالك.



أيها المؤمنون: إن الذي نلاحظه في أنفسنا والمسلمين عامة هو قلة الاهتمام بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، والإعراض عنه، والاستغناء بكتب البشر عن كلام رب البشر، واتسعت فجوة الصدود والإعراض إلا ممن رحم الله - وقليل ما هم -، وضعفت المهم عن حفظ القرآن وتدبره، وكثرة المشاغل حتى بين طلبة العلم فلا تجد إلا القليل النادر ممن يحفظ القرآن، أو يحفظ بعضه، وإذا كلف أحدنا بحفظ شيء من القرآن استصعب ذلك حتى كأن جبال الدنيا على كاهله، ومعنى ذلك هزيمة الإسلام والمسلمين، وذهاب الإيمان، فوالله لا نصر ولا تمكين ولا عزة إلا بهذا القرآن، والله متى تركناه ونسيناه ابتلينا بكل خزي، وفضيحة في الدنيا والآخرة.

يقول أحد أعداء الإسلام: (من لي بمن يخرج القرآن من صدور أبناء الإسلام)، فإرد أحد الأشقياء ويقول: نأتي إلى المصحف فنمزقه: قال: (لا، لا ينفع، نريد أن نمزقه من قلوبهم، وقلوب أبنائهم).

ويقول عدو آخر للإسلام: (ثلاث ما دامت عند المسلمين فلن تستطيعوا إخراجهم من دينهم: القرآن في صدورهم، والمنبر يوم الجمعة، والكعبة التي يرتادها الملايين من المسلمين، فإذا قضي على هذه قضي على الإسلام والمسلمين)، ولذلك جاء أعداء الإسلام يهود وأذنانهم من شيعة وباطنيين ورافضة؛ إلى القرآن فهونوا من شأنه، وقالوا: إنه مختلق، بل ادَّعُوا نقصه وتحريفه ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وأتوا إلى منبر الجمعة فأرادوا تعطيله؛ ليتحول إلى مناقشة قضايا تافهة لا تمت إلى الإيمان بصلة لكنهم يكيدون ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥].

عباد الله: لن نغض الطرف عن أمل يحمله الواقع في طياته، فهناك عودة حميدة من أبناء هذه الأمة وشبابها صوب القرآن، تبشر بفجر للإسلام قادم، وفخر للأمة ماثل، ولا أدل على ذلك من انتشار حلق القرآن في شتى الأصقاع، ومختلف البطاح والبقاع من هذه المعمورة، لكن ما زال هذا العدد ضئيلاً إذا ما قارناه بأمة تعددها المليار والنصف، فلهؤلاء المتقاعسين ممن لم يكن لكتاب الله من حياتهم حظ ولا نصيب هذه الكلمات، عساها أن تحرك ما سكن،



وتوقظ ما ركد ورقد؛ ليعودوا للنبع الصافي، والكتاب الهادي، وليجدوا عهدهم مع القرآن، وهي لأولئك الأشاوس الذين تشرفت خلق القرآن بانضمامهم إليها، ليواصلوا مسيرة الهدى بين أفياء القرآن، ومراتع كلام المنان أقول:

لقد أثنى الرب سبحانه وتعالى على من عاش مع كتابه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ﴾

[فاطر: ٢٩]، وأولى نبيكم محمد ﷺ هذا القرآن عناية خاصة لمعلمه ومتعلمه، فجعل خير عباد الله معلم ومتعلم له جاء من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١)، أتدري له؟ لأنهم التقوا على أشرف مائدة، ومع أقدس كتاب ألا وهو القرآن العظيم، فإذا أشرف الوظائف بدلالة هذا الحديث هي الانشغال بتعليم القرآن وتعلمه، ومن أجل هذا الحديث قعد الإمام الجليل أبو عبد الرحمن السلمي أربعين سنة يقرئ الناس القرآن بجامع الكوفة مع جلاله قدره، وكثرة علمه، ولما سئل سفيان الثوري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيها أفضل الجهاد أم تعليم القرآن؟ فقال: (تعليم القرآن)، واستدل بقوله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

بل كان ﷺ يولي القرآن الكريم اهتمامًا عظيمًا جدًا، وعلى هذا روى أصحابه الغر الميامين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأول ما عمد إليه النبي ﷺ في إبلاغ دعوته الكبرى هو تعليم القرآن للمداخلين في هذا الدين، فكان مبعوثوه إلى مختلف الجهات أول ما يقومون به إقراء الناس القرآن، وكتب النبي ﷺ لعمر بن حزم حين وجهه إلى اليمن كتابًا أمره فيه بأشياء منها: أن يعلم الناس القرآن، ويفقههم فيه^(٢)، وروى البخاري عن أبي إسحاق عن البراء قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم؛ فجعلنا يقرئاننا ويحفظاننا القرآن، وكان الرجل من المسلمين إذا هاجر من المدينة دفعه النبي ﷺ إلى رجل من الحفظة ليعلمه

(١) رواه البخاري (٤٦٣٩).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٩٥).



القرآن»^(١)، ولما فتح النبي ﷺ مكة ثم أراد الرجوع إلى المدينة؛ استخلف عتاب بن أسيد، وخلف معه معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما يقرئهم القرآن، ويفقههم في دينهم.

وأوصى النبي ﷺ بإكرام أهل القرآن إكرامًا خاصًا ومتميزًا، حتى إنه ﷺ سماهم اسمًا ينبض بأعظم المعاني حيث سمى أصحاب القرآن وأهل القرآن «أهل الله وخاصته» جاء من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «إن لله آهلين من الناس» قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»^(٢).

وكان النبي عليه الصلاة والسلام كثيرًا ما يميز بين الناس، ويرتبهم ترتيبًا يخضع لحفظ كل منهم من القرآن الكريم، ففي إمامة الصلاة يقول: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله»^(٣)، حتى عند دفن الموتى كان يقدم أكثرهم قرآنًا، وعندما اختار أميرًا على مجموعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اختار ذلك الصحابي الذي كان يحفظ سورة البقرة وقال: «أنت أميرهم»، وقال ﷺ: «إن من إجلال الله - يعني: من علامات تعظيم الله سبحانه وتعالى وإجلاله - إكرام ذي الشبهة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»^(٤)، ففضل الاشتغال بالقرآن الكريم تعلمًا وتعليمًا لا يدانيه فضل.

وينبغي لنا يا كرام أن نتميز باهتمامنا بالقرآن العظيم لما شرف الله به حامله يقول النبي ﷺ: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين»^(٥).

واسمع أي رتبة يحظى بها حامل كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ يقول النبي ﷺ: «يقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقرأ وارتنق ورتل فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(٦)، فإذا أردت أن تعرف منزلتك عند الله فاعرف منزلة القرآن في قلبك، إن كنت تسمع القرآن فتفرح به وتستأنس

(١) رواه البخاري (٣٦٣١).

(٢) رواه ابن ماجه برقم (٢١١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٠ / ٢).

(٣) رواه مسلم (١٠٧٨).

(٤) رواه أبو داود (٤٢٠٣)، وقال الألباني في صحيح أبي داود: (حسن صحيح) (٣٤٣).

(٥) رواه مسلم (١٣٥٣).

(٦) رواه الترمذي (٢٨٣٨)، وأبو داود (١٢٥٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨١ / ٥).



فاعلم أن الله يحبك، وإن كانت الأخرى فتلك علامة الشقاء، فإن القلب الذي لا يعي شيئاً من القرآن قلبٌ مخذول ملعون، محروم مغلوبٌ عليه.

والقرآن - عباد الله - يغني صاحبه عن كل حسب ونسب جاء في بعض التفاسير لقول النبي ﷺ: «من لم يتغن بالقرآن فليس منا»^(١) أن الإنسان إذا نال شرف القرآن فعليه أن يستغني به عما عداه، عليه ألا ينزل إلى مرتبة التنافس مع الناس في الدنيا، وألا يذل نفسه وقد حمل القرآن الكريم، وأن يكون عزيزاً، فالقرآن يغني صاحبه عن كل حسب ونسب، ويكفي أنك إذا شرفت بنيل إجازة من أئمة القراءة فقد حزت شرفاً عظيماً لا يدانيه شرف، ويكفي أنك تحمل سلسلة تتدرج من شيخك إلى شيخ شيخك، إلى التابعين، إلى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ثم إلى جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، ثم إلى رب العزة، فكأنه جبل طرفه عندك والطرف الآخر عند الله عَزَّوَجَلَّ، الله أكبر فهل يعلم أحد شرف ونسب أعظم من هذا النسب؟.

يا حاملي هذا القرآن تضلّعوا ما أنتم وسواكم بسواء

ويقول عليه الصلاة والسلام من حديث أبي أمامة الباهلي: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»^(٢)، وفي لفظ «اقرأوا سورة البقرة وآل عمران، اقرأوا الزهراوين فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما»^(٣)، فيا من أراد أن يستظل بذاك الظل في يوم الشمس والكرب والخوف؛ استظل بآيات الله تبارك وتعالى.

وها هو ﷺ يستثير الهمم؛ لتطلب الأجر والثواب من عند باريها فيقول: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الْم﴾ «حرف، ولكن ألف

(١) رواه البخاري (٦٩٧٣).

(٢) رواه مسلم (١٣٣٧).

(٣) رواه مسلم (١٣٣٧).



حرف، ولا م حرف، وميم حرف»^(١) فعُدَّ يا عبد الله واقرأ واحتسب الأجر عند الله، فإنك تأتي يوم القيامة وقد نصب لك في الجنة سلماً بدرجات، يقول الله لك - بلا ترجمان -: «اقرأ وارفق ورتل فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» فمن كان يقرأ من القرآن كثيراً رقى حتى يصبح كالكوكب الدري في سماء الجنة، ثم هم على منازل، وهم درجات عند الله، والله بصيرٌ بما يعملون.

عباد الله: من حفظ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يوحى إليه، لا حسد في الدنيا ولا في مناصبها ولا في أموالها إلا في تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار، وفي صدقات توصلك إلى العزيز الجبار.

ومن تأمل حالنا وجد حقيقة تقصيرنا في الاهتمام بحفظ القرآن ومدارسته، فلا بد من عودة صادقة إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ قبل أن يفوتنا قطار المكرمات والفضل، نسأل الله أن يشرفنا بحفظ كتابه، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا إنه ولي ذلك والقادر عليه، قلت قولي هذا واستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله، الحمد لله الصادق في القيل، الهادي إلى الحق بالحجة والدليل، أحمده سبحانه وأشكره على إنعامه الوافر وفضله الجزيل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو حسبي ونعم الوكيل.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله المؤيد بمعجزات التنزيل، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه ساروا على النهج واستقاموا على السبيل، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: جاء في تفسير ابن أبي حاتم أنه عليه السلام مر في سكة من سكك المدينة فسمع عجوزاً تقرأ، وهي تردد من وراء الباب في الليل: ﴿هَلْ أَتَكَ حَدِيثُ الْغَشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] تقف عندها وتردها، وتقول: ﴿هَلْ أَتَكَ حَدِيثُ الْغَشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، والخطاب للرسول عليه السلام فوضع رأسه ييكي ويقول: «نعم أتاني، نعم أتاني»^(١).

أيها الكرام: هؤلاء العجائز فأين رجالنا من هذه العجوز في تدبرها وتهجدها وتلاوتها؟ أين الرجال، وأين شباب الأمة الذين أعرض الكثير منهم - إلا من رحم الله - عن معاشة هذا القرآن؟ إننا أمة خالدة، لا خلود لنا إلا بكتابنا العظيم، ولا بقاء لنا إلا بشريعة نبينا عليه السلام، فإن هجرناه وتركناه؛ ضعنا والله، وأخذتنا المبادئ الهدامة، واستولت علينا الأمم الحاكمة التي تحقد على بلاد المسلمين، وعلى شريعتهم ومقدساتهم، فلا ملجأ لنا إلا الله، ولا كافي لنا إلا الله، وأي حل آخر فمعناه الخسارة والندامة، ولذلك يقول المستشرق المجري جولد زيهير كما أسلفنا: (لا يستطيع أن يغلب هؤلاء العرب ما دامت فيهم ثلاث - وهو يعني المسلمين فلا عروبة عن الإسلام، ولا إسلام إلا لمن أسلم وجهه لله - : صلاة الجمعة، والكتاب العظيم - كتاب الله -، وحرمة القبلة الشريف)، فإذا بقيت هذه الثلاث، بقينا إن شاء الله، إذا آمنا بشرع الله، وأسلمنا قيادنا لله تبارك وتعالى.

(١) تفسير ابن أبي حاتم - تفسير سورة الغاشية.



يا أيُّها الأمة الخالدة! يا أبناء من وزع الهداية على الإنسانية، يا أحفاد من نشروا لا إله إلا الله، وساروا بها مهللين ومكبرين مشرقين ومغربين: إن هذه الأمة أمة ريادة، تعطي الناس من القرآن ولا تأخذ منهم شيئاً، وتوجه الناس إلى الحق ولا تتوجه بهم.

يقول أبو الطفيل عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث - والي عمر بن الخطاب على مكة - لقي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعسفان، فقال له عمر: «من استخلفت على أهل الوادي؟» - لأنه كان أمير مكة من قبل عمر الخليفة - قال: تركتها لابن أبزى، قال عمر: «ومن ابن أبزى هذا؟» قال: مولى يا أمير المؤمنين، قال: «ثكلتك أمك، ومولى أيضاً»، قال: يا أمير المؤمنين إنه عالمٌ بكتاب الله، عالمٌ بالفرائض، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين»^(١) فصلى الله عليه وسلم من معلم، لقد جربنا أطوارنا مع التاريخ، كلما تمسكنا بالقرآن انتصرنا، وكلما تركناه خذلنا، وفي القرن السابع لما ترك وترك العمل به، وأخلي العمل به؛ جاء الرافضة، ومن وراءهم من التتر المغول، مع جنكيز خان، فقتلوا في ثمانية أيام ثمانمائة ألف، ودمروا مساجدنا، وأحرقوا مصاحف، وقتلوا أبناءنا ونساءنا.

لما أضعنا هدى القرآن حلَّ بنا ما حلَّ حتى عن الأقصى تلهَّينا
وضيعتنا شعارات نرددها من جانب الغرب جاءتنا لتلهَّينا
لو عاد فينا أبو حفص لأنكرنا وقال لستم بأحفاد الميامين

لقد كان السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الصحابة ومن بعدهم أشد الناس حرصاً على تعلم القرآن وإتقانه والعمل به، كان أحدهم يمكث في تعلم السورة من القرآن السنين الطويلة، فابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مكث في تعلم سورة البقرة ثمان سنين، وقيل: مكث اثنتي عشرة سنة، قال أبو عبد الرحمن السلمي: (كان الذين يقرئونا القرآن من صحابة رسول الله ﷺ: عثمان وأبي بن كعب وغيرهما يقولون: كنا على عهد النبي ﷺ لا نتجاوز العشر آيات حتى نعرف ما فيها من العلم والعمل، فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً).

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٧).



هكذا كان صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم، ابن مسعود يقول: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن». وروى مالك أن ابن عمر رضي الله عنه تعلم البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزوراً رضي الله عنه، وهذه المدة الطويلة ليست فقط لحفظ ذلك وضبطه من جهة اللفظ، بل إن المظنون فيهم رضي الله عنهم أنهم أسرع حفظاً من المتأخرين، لكنهم كانوا يتفقهون، وينظرون إلى ما تضمنه هذا الوحي من الخير العظيم، الذي به حصل لهم الفقه، فكلامهم رضي الله عنهم قليل لكنه كثير البركة؛ لأنه نابع عن فقه ونظر دقيق، أما كلام المتأخرين فهو كثير لكنه قليل البركة.

وأما في تلاوتهم، فقد كان منهم من يختم القرآن في سبع، ومنهم من يختم في ثلاث، يقول عثمان بن عفان رفيق القرآن: لو طهرت نفوسنا ما شبعنا من كلام الله.

وهذا أحد الصالحين حين حضرته الوفاة بكت ابنته، فقال: (لا تبكي يا بنية، فوالله لقد ختمت القرآن في هذه الزاوية أربعة آلاف ختمة). لله درهم، فبالله كم ختمته أخي منذ أن وعيت إلى اليوم؟ كم ختمته هذا العام؟ كم ترجو أن تحتمة مرات حتى تموت؟ كيف أنت مع التدبر لآياته والعمل بأحكامه؟

يا أمة محمد: من يقرأ القرآن إن لم تقرأوه، من يتدبره إن لم تتدبروه، من يعمل به إن لم تعملوا به، فهل من عودة يا شباب الأمة، يا شبيها، يا رجالها ويا نساءها؟ فعودة يا أمة الإسلام إلى الله، وعودة يا أحفاد أبي بكر وعمر، وعثمان وعلي، يا أحفاد فاتحي الدنيا ومعلمي الإنسانية.

أضيئوا بيوتكم بالقرآن، وأحيوا قلوبكم بتدارس القرآن، عمّر الله قلوبنا وقلوبكم بكتابه، وأحيا الله أرواحنا وأرواحكم بآياته، وردنا إليه ردًا جميلاً، وهادنا إليه صراطاً مستقيماً.





• الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١)

• الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي شرف هذه الأمة؛ فجعلها خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، أحمده تعالى وأشكره على ما أولاه، وأشهد أن لا إله إلا الله، كتب الخيرية والفلاح لدعاة الخير والإصلاح.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله حامل لواء الدعوة والجهاد والكفاح، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه الذين ساروا على نهجه، وترسموا خطاه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم نلقاه.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أيها المسلمون: إن الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ، والدعوة إليه، والنصح والتعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق والصبر، وإشاعة الخير والفضيلة بين الناس، ومحاربة الشر والرديلة والفساد واستئصاله من المجتمع - من أبرز سمات هذه الأمة، أمة محمد ﷺ، التي فاقت بها سائر الأمم، يقول الله جل وعلا: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

لذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القطب الأعظم في هذا الدين، والمهمة الكبرى للأنبياء والمرسلين والصالحين، بل قد عدَّه بضع أهل العلم ركناً سادساً من أركان الإسلام، كل ذلك لما يشتمل عليه من الفضل العظيم، والخير العميم، والفوائد والمصالح العاجلة

(١) عبدالرحمن السديس.

والآجلة، ولما يترتب على تركه من استشراب الباطل وانتشار الفساد، وغلبة المعاصي وهيمتها، وهي الجالبة لسخط الله، المندرة بمقت الله وعاجل عقوبته على الأفراد والأمم.

أمة الإسلام: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمانة الإيثار، وإن تركه علامة النفاق: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧] ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٧١].

وهما من أعظم أسباب النصر على الأعداء والتمكين في الأرض، قال عز من قائل: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٤٠] الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

وهما طوق النجاة وسر بال الحياة: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْنَحْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وبالجملة؛ فهما من أفضل الأعمال، وأكد الفرائض، وأوجب الواجبات، وألزم الحقوق، وقد جاء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بما يؤيد ذلك، يقول أصدق القائلين: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(١) وفي رواية: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»^(٢).

وروى الترمذي وغيره عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قَالَ: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونني فلا يستجاب لكم»^(٣).

(١) رواه مسلم (٤٩).

(٢) رواه مسلم (٥٠).

(٣) حسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢١٦٩).



وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يجلب لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض - ثم قال -: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩]».

إخوة العقيدة: رأيتم لو أن فرداً أصيب بمرض عضال في جزء من جسمه فأهمله، أو ليس يستشري المرض في جسده كله، فيتعسر علاجه ويتعذر شفاؤه، كذلك المنكر - يا عباد الله - إذا ظهر وترك فلم يغير، فإنه لا يلبث أن يألفه الناس ويعتادوه، وعندئذ يصبح من العسير تغييره وإزالته، فتعم المنكرات، وتنتشر الفواحش، وتغرق سفينة الأمة.

وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً مثاليّاً على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا؛ هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»^(١).

أيها الإخوة في الله: المعروف الذي جاء الشرع بالأمر به: اسمٌ يجمع كل ما أمر الله به ورسوله، من العقائد والأقوال والأفعال، كالإيمان وشرائع الإسلام الظاهرة والباطنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة ونحوها.

والمنكر: ما أنكره الله ورسوله، وأقبح ذلك وأعظمه منكرات العقائد، والأمور المبتدعة في الدين، وكبائر الذنوب، وسائر المعاصي.

أمة الإسلام: يا خير أمة أخرجت للناس! إن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مقصوراً على أحدٍ بعينه من الأشخاص أو الهيئات، ولكنه واجب كل مسلم وكل على

(١) رواه البخاري (٢٤٩٣).



قدر استطاعته، وبحسب منزلته ومكانته، بيد أن على أهل الحل والعقد من الدعاة والعلماء، والوجهاء والمختصين ما ليس على غيرهم، فالأب مسئول عن أسرته وأهله وأولاده، والمعلم في مجاله، والموظف في دائرته، والتاجر في سوقه، وهكذا كل على ثغرة من ثغور الإسلام: «وكل راعٍ ومسئولٌ عن رعيته»^(١).

بل المسلم الحق حيثما حل وقع أفاد ونفع؛ لأنه عضوٌ في جسد هذه الأمة، له مكانته وعليه واجباته، وهو مطالب بالتفاعل مع مجتمعه، والألم لألمه، والنشاط في محيطه، نشرًا للخير والصلاح، ودرءًا للشر والفساد.

فلنتق الله -يا عباد الله-، وليكن كل واحدٍ هنا هيئة بذاته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولنتعاون في تحقيق هذا المبدأ العظيم، ولنكن يدًا واحدة على من يريد خرق سفينة أمتنا بالشر والفساد، رائدنا في ذلك الإخلاص، والحكمة والشفقة، والرفق والأناة والرحمة؛ فتلك أبرز الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها من يتصدّى لهذا الأمر العظيم.

فهم دعاة خيرٍ ورحمة، وحرصٌ وشفقة، وغيره على دين الله القويم، وخوفٌ على إخوانهم المسلمين، ومن كان بهذا المثابة، فأولى أن يساند ويعاضد، ويشجع، ويأزر ويكرم ماديًا ومعنويًا.

يا خير أمةٍ أخرجت للناس: إنه إذا أفلت زمام هذا الأمر وطوي بساطه، وقُلَّ أنصاره وأخفقت رايته، وأهمل علمه وعمله، فشت الضلالة، وشاعت الجهالة، وفسدت البلاد، وهلك العباد.

وإن الناظر فيما أصاب المجتمعات المعاصرة من تفاقم المحرمات، وانتشار المنكرات، مما تعجز عن وصفه الكلمات، ويترجم عنه الحال في كثيرٍ من الجوانب العقديّة والشرعية؛ والأخلاقية والفكرية، مما ذهب معه الغيرة، وهتكت من أجله الأعراض، وانتشرت الأفكار الهدّامة، والمبادئ المنحرفة، وتطاوّل فيه الفساق من الرجال والشباب والنساء، ليتساءل: أين

(١) رواه البخاري (٢٥٥٨) ومسلم (١٨٢٩).



الغيرة الإسلامية؟! وأين الحماية الدينية؟! بل أين النزعة الإنسانية، والشهامة العربية، والرجولة الأصلية؟! هل نزعَت من القلوب، واضمحلت من النفوس؟!!

إنه إذا كثرت الخبث وانتشر الفساد ولم يُعَيَّر، عمَّ العذاب الصالح والطالح، فعن أم المؤمنين زينب بنت حش رضي الله عنها قالت: «قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثرت الخبث»^(١)، ومع ذلك كله، فلا يزال والله الحمد والمنة في أرض الله من هو قائم لله بحجته، وصادعٌ بدعوته.

ولا نياَس من روح الله، بل نتفاءل خيرًا إن شاء الله، ولكن الأمر بحاجة إلى المزيد من الجهود الإسلامية المتظافرة؛ لتحقيق هذا المبدأ العظيم، ونشره في بلاد المسلمين، ليعم الخير ويتنشر، ويتوارى الباطل ويندحر، وما ذلك على الله بعزيز.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم وبسنة سيد المرسلين، وهدانا صراطه المستقيم، وتاب علينا أجمعين، إنه هو التواب الرحيم.

(١) رواه البخاري (٣٥٩٨) ومسلم (٢٨٨٠).

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه.
أما بعد:

لقد كان العلماء والصالحون السابقون أحرص الناس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير بالحكمة والموعظة الحسنة، قال شجاع بن الوليد: (كنت أخرج مع سفیان الثوري فما يكاد لسانه يفتّر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاهبًا وراجعًا).

قال أبو الدرداء: «لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يجلب كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعوا عليه خياركم فلا يستجاب لهم وتستنصرون فلا تنصرون وتستغفرون فلا يغفر لكم. قال حذيفة عندما سئل عن ميت الأحياء؟ هو الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه».

قالت أم الدرداء: «من وعظ أخاه سرا فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه».
قال سفیان الثوري: (إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن، وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق).

وعن يعقوب بن شيبه قال: قال لنا الأوزاعي: (لما فرغ عم السفاح من قتل بني أمية، بعث إليّ، فقال لي: أخبرني عن الخلافة، وصية لنا من رسول الله ﷺ؟ فقلت: لو كانت وصية من رسول الله ﷺ ما ترك علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحَدًا يتقدمه، قال: فما تقول في أموال بني أمية؟ قلت: إن كانت لهم حلالًا، فهي عليك حرام، وإن كانت عليهم حرامًا، فهي عليك أحرم. فأمرني فأخرجت).

وقال إبراهيم بن الأشعث: (كنا إذا خرجنا مع الفضيل في جنازة لا يزال يعظ ويذكر ويبيكي حتى لكانه يودّع أصحابه ذاهب إلى الآخرة..).

وكان الفقيه الواعظ أحمد الغزالي يدخل القرى والضياع، ويعظ أهل البوادي تقربًا إلى الله.



فاتقوا الله - عباد الله - وقوموا بها أوجب الله عليكم من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فقد عرفتم منزلته ومكانته في هذا الدين، والأدلة عليه، والوعيد الشديد على من تركه وأهمله، وأدركتم ما وصل إليه الحال، وبأن لكم أسباب ذلك ونتائجه الوخيمة.

ووقفتم على وصفة من علاج ذلك الأمر، وصفات من يقوم به، فلم يبق إلا العمل الجاد المخلص، المبني على أسس سليمة، وقواعد محكمة حكيمة، وترك التواني والتواكل والتلاوم، وإلقاء التبعة على الآخرين.

فلو قام كل منا بواجبه، وعرف دوره ورسالته، وتعاون مع إخوانه، لم يجد الباطل سبيلاً، ولم يلق الفساد رواجاً، ولكنها سنة الله في خلقه، لينظر من يجد ويعمل، ممن يترك الحبل على الغارب ويهمل.

ولكم في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة، فقد كان أشد الناس غيرة على دين الله، وحرصاً على تبليغ رسالة الله، وغضباً إذا انتهكت حرمت الله.

ألا فصلوا وسلموا عليه صلاة متبع له مقتد به، مهتد بهديه، كما أمركم الله بالصلاة والسلام عليه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].





قل هو من عند أنفسكم (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله الذي خلق الخلق وبرأ، وأحسن كل شيء خلقه وذرا، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه: ٦]، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، على نعم تكاثر، وآلاء تترى.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة الحق واليقين والإخلاص، بلا شك ولا امتراء، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، المبعوث من أم القرى، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، وأزواجه أمهات المؤمنين، خير القرون وسادة الورى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان، وسلم تسليماً كثيراً ما صبح أقبل، وليل سرى.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله - رحمكم الله -، فالميزان عند الله التقوى، وليس الأغنى وليس الأقوى.

أما بعد:

فإن النصيحة المبذولة لي ولكم عباد الله هي تقوى الخالق جل شأنه، فهي عدة الصابرين، وذخيرة المجاهدين، وسلوان المصابين، ما خاب من اكتسى بها، ولا ندم من اكتنفها، بها النجاة في الأولى، والفوز في الأخرى، لا يسألكم الله رزقاً فهو يرزقكم، والعاقبة للتقوى.

أيها الناس: لعل المسلمين في ثنایا هذه العصور المتأخرة هم أكثر الناس آلاماً، وأوسعهم جراحاً، ولعل أرضهم وديارهم وأموالهم هي التي يستنسر بها البُغاث وتستأسد الحُمُر، والمسلمون مع ذلك يتجرعون هذه الجراحات في صياصيتهم وهم لا يكادون يسيغونها،



ويحملون معها أثقالاً إلى أثقالهم، إنهم يُدْعَوْنَ إلى الاستكانة والاستذلال دُعَاً، وتتقاذفهم مضارب الغالبين إلى أن يعترفوا بأن حقهم باطل، وباطل غيرهم حق، يُزَجُّ بهم في كل مضيق من أجل أن يقلبوا الحقائق، ويتقبلوا أضدادها على مضض، حتى ينطق لسانهم بالرسم المغلوط والفهم المقلوب، فتكون عبارتهم لعدوهم بلسان حالهم:

إذا مرضنا أتيناكم نعوذكم وتخطئون فنأتىكم ونعتذر

والحق أيها المسلمون هو أن المتأمل في هزائم المسلمين المتلاحقة وضعفهم الحثيث واستكانتهم المستحوذة عليهم أمام أعدائهم يجد أنها لم تكن بدعاً من الأمر، ولا هي نتائج بلا مقدمات، ولم تك قط قد قفزت هكذا طفرةً دونما سبب، وإنما هي ثمرة خللٍ وفتوق في ميدان الأمة الإسلامية وتقصير ملحوظٍ تجاه خالقها ورسولها ودينها، وهذه الثغرات والفتوق هي التي أذكأها أعداء الإسلام بما يبشرونه عبر سنين عديدة من المكر والخديعة واللت والعجن منذ زمن على الإسلام والمسلمين.

وبسبب نقيمتها هذه اختبأت وراء صور الاستعمار المتنوعة، تناول من خلاله ما تشاء من الأساليب، فإذا احتاج الأمر إلى المكر لانت، وإذا احتاج الأمر إلى القسوة بطشت، وهي في لينها تبث السم في العسل، وفي شدتها تحترف الهمجية والجبروت، وهي في كلتا الحالتين لا تنام عن غايتها أبداً، ولو نامت بإحدى مقلتيها فإنها بالأخرى يقظانة ساهرة، وهذا سرُّ أسفنا المتصاعد عباد الله.

أيها المسلمون: إن الكثيرين منا ليتساءلون إثر كل بلية تحل بدار الإسلام: ما السبب؟ وكيف؟ ولم؟ ومم؟ وعم؟ كل صور الاستفهام تتناثر صيحاتها في مسامعنا حيناً بعد آخر، ولكن هل نجعل هذا التساؤل جديداً على أسماعنا؟ أو أن في أفئدتنا وما أعطانا الله من صلة بكتابه العزيز ما يذكر بسؤال مماثل للرغيل الأول في أزمة هي من أشد الأزمات التي حلت بهم، ألا وهي هزيمتهم في معركة أحد، يندبون حالهم، ومن ثم يتساءلون فيقول الله عنهم: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مَوْصِيَّةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فيجيبهم الله بخمس كلمات، لم ينسب ولا في كلمة واحدة سبب الهزيمة إلى جيش، ولا إلى عدة، ولا إلى تحرف في قتال، وإنما قال لهم بصريح العبارة: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].



يقول الله لهم ذلك ليبين لهم ولمن بعدهم بوضوح أن خواتيم الصراعات والمدافعات بين الأمم على كافة الأصعدة لا يمكن أن تقع خبط عشواء، وإنما هي وفق مقدمات أثمرت النتيجة بعد استكمال أسبابها، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

تقع الهزائم ليستيقظ الناس، وتتوالى الضربات لتحل المحاسبة محل النفس، ويتضح مثل هذا بما أتبع الله الآية بقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٣٣] وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنِتَلُوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْفَعُوا﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧].

لقد كتب الله سبحانه على نفسه النصر لرسله وأوليائه فقال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، ولكن الله سبحانه علّق هذا النصر بتحقيق الإيمان في القلوب واستيفاء مقتضياته في كل مناحي الحياة، وهذه هي سنة الله في النصر، وسنة الله لا تحابي أحداً.

وحين تُقصر الأمة وتفرط فعليها أن تقبل النتيجة المرّة لأنها مع كونها مسلمة إلا أن ذلك لا يقتضي خرق السنن وإبطال النواميس.

أيها المسلمون: إن على رأس الضعف الأصيل البعد عن تشخيص الأحداث بصورتها الحقيقية، مع الاكتفاء بمجرد التلاوم وإلقاء التبعة على الغير، فعامّة الناس يلقون باللائمة على العلماء والمصلحين والمثقفين، وهؤلاء بدورهم يلقون باللائمة على الساسة والقادة الآخرين، وما القادة والساسة والعلماء والمصلحون والعامّة إلا جزءٌ من كل، ولا استقلال في اللوم لصنف دون آخر، وإلا كان جُرماً واستكباراً وخروجاً عن الواقعية، فرسول الله يقول: «كلكم راع، وكل راع مسؤول عن رعيته»^(١). ولا شك أن كلاً عليه من التبعة بقدر ما تُحمل من المسؤولية.

(١) رواه البخاري (٢٤٠٩) ومسلم (١٨٢٩).



عباد الله: لأجل أن نصل إلى حال راقية من المكاشفة والوضوح في الطرح، ولأجل أن نحسن تشخيص الداء لنستجلب الدواء، فإن ثمت مفاهيم ينبغي أن لا تغيب عن أذهاننا طرفة عين حتى تصل إلى المقصود ويتحد الهدف.

فمن هذه المفاهيم أن الناس إن لم يجمعهم الحق شعبهم الباطل، وإذا لم توحدهم عبادة الرحمن فرقتهم غواية الشيطان، وإذا لم يستهوهم نعيم الآخرة اجتاهم متاع الدنيا فتخاصموا عليها، ولو غلغلنا النظر في كثير من الانقسامات لرأينا حب الدنيا والأثرة العمياء تكمن وراء هذه الحزازات، وهذا هو سرُّ الوهن العظيم الذي سُئل عنه النبي حين قال: «وليقذفن الله في قلوبكم الوهن»، قيل: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»^(١).

ويظهر هذا الأمر جلياً في سبب من أسباب هزيمة المسلمين في أحد حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَّكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله ما علمت أن معنا في أحد من كان يريد الدنيا إلا لما نزلت هذه الآية»، ولأجل هذا عباد الله كانت هذه الهزيمة، حينما لم يستجب أقوام منهم لوصية الله تبارك وتعالى في أول عظة للمسلمين بعدما انتصروا في معركة بدر بأن يوحدا صفوفهم ويلموا شملهم، حيث قال سبحانه: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، أنزل الله عليهم هذه الآية ليقطع على النفس مطامع الدنيا وغلبة حب الغنيمة على حب نصر دين الله ورفعته.

ومن المفاهيم التي يجب أن تُعرف هو أن منطق الأعداء الحاقدين واحد، وهو برمته ليس جديداً على الساحة العامة، كما أن قلب الحقائق وتشويه صورة المسلمين ليست هي بدعة العصر الحديث، فمنطق المجرمين واحد ولو تطاولت القرون، وإن شئتم يا رعاكم الله فاسمعوا قول فرعون عن موسى عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي

(١) صححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٢٩٧).



أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿غافر: ٢٦﴾، هذا هو منطق فرعون الأول، يُظهر غيرته على دين الناس وأمنهم، فهو يخاف عليهم من إفساد موسى في الأرض، فيقرر أن موسى يُرهب أهل الأرض جميعاً، فهو لا يستحق البقاء، هذا هو منطق فرعون الأُمس، وها هو التاريخ يعيد نفسه، وما أشبه الليلة بالبارحة، فهل يتعظ المسلمون ويقولون من بعد ذلك: ﴿أَنْ هَذَا قُلُّ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

إن استجابة النفس للدعوى الأفاكة والاستسلام لشيوعها والتي تصل بسبب قوة طرحها والتأثير الإعلامي لها إلى درجة الرضا بها والقبول لها، ومن ثَمَّ يتحول الافتراء إلى حقيقة مسلَّمة وواقع لا مِراءة فيه، ولنضرب مثلاً على هذا فنقول: نحن نعلم أن حقوق المسلمين ودماءهم في أقطار كثيرة تُهدر وترخَّص، حتى لو داهمهم مغتصب واستولت عليهم يد معتدٍ فأبدوا مقاومة واهنة أمام المغير عليهم، ودفعوا براحتهم أفتك أنواع السلاح، ارتفعت صيحاتُ وشنِشِنات أخزمية تقول: المسلمون معتدون، المسلمون إرهابيون، ومن ثَمَّ يكون هذا تبريراً للدبابات والمجنزرات في أن تصبَّ جام غضبها على أمة لا تملك إلا الحجارة، ويبدو أن مثل هذا الإفك لا ينقطع أبداً، وأن الإصرار بأن المسلمين إرهابيون أكذوبة كبرى، فهي كما يقول علماء النفس: (نوع من الإسقاط الذي يدفع المرء إلى اتهام غيره بما في نفسه هو من شر)، وقديماً قيل: (كل إناء بما فيه ينضح).

ومع ذلك كله تصاب أمة الإسلام بصدمة عنيفة من قبل آراء عالميّة تصف المالك الطريد إرهابياً لا حق له، وتجعل اللصَّ الغالب ربَّ بيت محترماً، ثم بعد ذلك يقول المسلمون: ﴿أَنْ هَذَا قُلُّ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ومفهومٌ رابع يتجلى في الحذر من المغرضين وبني جلدة المسلمين، والذين يُعرفون في لحن القول: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦]، هم سرٌّ في ضعف المسلمين، وثغرة صارخة في صفوفهم، يُعدُّ أمثالهم في دول كبرى طابوراً خامساً حسب قواميسهم، فهم يتقونهم في مجتمعاتهم وبكل ما يملكون من سبل، وإن معرفة مثل هؤلاء والوقاية منهم سبب رئيس في تحصيل القوة، والبعد عن الهزيمة. وعلينا أن نعلم جميعاً أن الله سبحانه وتعالى فعل ما فعل بالمسلمين في أحد لحكم ظاهرة، منها قوله جل وعلا: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَنْتَلُوا



فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ مَوِيدٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ [آل عمران: ١٦٧].

ومفهوم خامس عظيم، وهو أن تغيير هذا الواقع المرير إلى واقع رفيع مرهون ولا شك بتغيير واقع الناس أنفسهم، وهذا يعني بدهشة أنه متى دبّ الضعف وتأخر النصر فإن هناك أسباباً تؤخره بلا ريب، ورأس هذه الأسباب هو أن الباحثين عن نصر الله وتغيير حالهم لم يغيروا ما بأنفسهم، ولذلك كان الغنم بالغنم، والغرم بالغرم، والله جل شأنه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقَوْمٍ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياك بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، قد قلت ما قلت، إن صواباً فمن الله، وإن خطأً فمن نفسي والشيطان.



الخطبة الثانية:

الحمد لله الكبير المتعال، له الحمد على كل حال، وله الشكر بالغدوّ والآصال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شديد المحال، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبي المفضل، صاحب النوال، وسديد المقال، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه والآل.

أما بعد:

فاتقوا الله أيها المسلمون: واعلموا أن ثمت مفهومًا مهمًا ينبغي أن لا يُغفل عنه، لأنه لبُّ في الموضوع، وعمود ارتكاز في التصحيح، ألا وهو المعصية وما لها من أثر وشؤم وموقع عظيم في تحديد معايير النصر والهزيمة.

وإن من يلقي النظر إلى غزوة أحد وإلى السبب الرئيس للهزيمة لوجد أنه يكمن في المعصية، والتي تلقى المسلمون بسببها لطمة موجعة أفقدتهم من رجالهم سبعين بطلاً، على رأسهم سيد الشهداء حمزة رضي الله تعالى عنه، فردتهم الهزيمة إلى المدينة وهم يعانون الأمرين من جرائها وشماتة كفار قريش.

وإن تعجبوا عباد الله فعجبٌ أمر هذه المعصية في أحد، إنها لم تكن في فشوّ زناً بينهم، ولا في احتساء خمرٍ مسكرة، ولم تكن في إقصاء شريعة وتحكيم قوانين خارجة عنها، ولا في فساد امرأة أو انحراف شباب، بل إنهم خرجوا إلى أحد ومعهم إيمانهم بالله وحبهم لرسوله ودفاعهم عن الحق وطلبهم رفعة الدين ونصرته، وكل ذلك في الواقع يرشّحهم بأقوى أنواع الترشيح في أن ينتصروا ولا يُهزموا، ولكن يبلو الله المؤمنين في أحد، فينزل الرماة عن الجبل، لا لقصد عصيان الرسول، ولكن لما رأوه من الانتصار للمسلمين، فخاف بعضهم فوات حظه من الغنائم، ثم كانت الكارثة، هزيمة موجعة، فاجعة مهولة، وأثابهم الله غمًا بغم، وكُسرت رباعية الرسول، وشُج رأسه، وقتل سبعون شهيدًا.

فالله أكبر ما أعظم أثر المعصية على واقع المسلمين حتى في أحلك الظروف، تلك هي معصيتهم فما هي معاصينا إذا؟! إنه لسؤال صعب، والجواب عنه أشد من لعق الصّبر، ولا



حول ولا قوة إلا بالله. يقول الرسول: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه منكم حتى ترجعوا إلى دينكم»^(١).
إن شؤم المعصية، يعمُّ مهما قلَّ حجمه، أو ضعف الاكتراث به، يمحَق
البركة، ويفسد العمل..

فرحماك رحماك يا رب رحماك، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك.

هذا وصلوا رحمكم الله على خير البرية وأزكى البشرية محمد بن عبد الله بن عبد المطلب
صاحب الخوض والشفاعة، فقد أمركم الله بذلك في كتابه، فقال عز من قائل عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ
وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



(١) صححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٤٦٢).



الإصلاح بين الناس (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله مُصَرِّف الدهور، ومُيسِّر الأمور، ومُقَلِّب الأيام والشهور، لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وإليه النشور، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، أعطى وأجزل، وأنعم وتفضل، ووقى من الشرور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة صادقة هي الشفاء لما في الصدور.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله قام بحق ربّه حتى تفتّرت قدماه فهو العبد الشكور، صلى الله وسلّم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه آمنوا بربهم، واتبعوا رسوله وما أنزل معه من النور، والتابعين ومن تبعهم بإحسان، وسلّم تسليمًا كثيرًا ما تعاقب العشي والبكور.

أما بعد:

فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله - رحمكم الله -؛ فقوارع الأيام داهية.. فهل من أذنٍ لعظاتها واعية؟! ونوازل الحُمَام فاجعة.. فهل القلوب لوقعتها مُراعية؟! ومقادير الآجال جارية.. فهل النفوس في الاستعداد ساعية؟!

أين الآباء الأكابر.. وأين الأبناء الأصاغر.. وأين الصديق المعاشير.. وأين الغريب وأين القريب.. وأين الغائب وأين الحاضر.. لقد عثرت بالجميع العواثر.. ودارت على أصحابها الدوائر، ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢].



أيها المسلمون: جاء الإسلام لِيُطَهِّرَ البشريَّةَ من أدران الجاهلية وأمراضها، وَيُقَوِّمَ السلوكَ لِيستقيمَ على الفِطرة السويَّة. والرابطةُ بين أهل الإسلام هي رابطةُ الدين، وأخوةُ الإيمان، ولهذا الرابطةُ معالمُها، من حُسْنِ المَعْتَدِّ، والمحَبَّةِ، والسرور، وحب الخير للناس والفرح به، واجتناب ما يُكَدِّرُ على ذلك وَيُشَوِّشُ عليه، من الحسد والشحناء، والتهاجر، والتباغُض، والسُّباب، والتنازُّز بالألقاب. والناصِحون من عباد الله، المُحِبُّون لخلق الله أهلُ أدبٍ ورحمة، وحبٍّ ومودَّة، وصدقٍ ووفاء.

معاشِر الإخوة: وقد استوعبت الشريعةُ في شُمولها وعلاجِها كُلَّ أمراض النفوس ومعايِبِها، أقوالاً وأفعالاً، ومشاعِر وانفعالات. وإن في مُستجدَّات العصر وتقنيَّاته ما وسَّعَ ذلك كُلَّهُ ووسَّعَه ابتلاءً وعلاجاً.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

معشر المسلمين: كثير ما يكون بين الناس منازعات وخصومات، وذلك نتيجة لاختلاف الأهواء والرغبات والاتجاهات، ومن ثم فإن المنازعات والخصومات تسبب البغضاء والعداوات، وتفرق بين المسلمين والقربات، ومطلوب منا أن نسعى إلى الإصلاح بكل الوسائل والإمكانات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

أيها المسلمون: لقد أرسل الله تعالى نبيه محمداً ﷺ رحمة للعالمين؛ ليجمع على الإيمان قلوب المؤمنين، ويزيل من قلوبهم كل أسباب الشحناء، ويظهر نفوسهم من كل أسباب البغضاء، ليكونوا إخواناً متحابين، فإذا وجد بين بعضهم خصومة وشحناء ونزاع وبغضاء أمروا أن يتقوا الله، وأن يصلحوا ذات بينهم، وعلى المسلمين أن يسعوا في الإصلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وقد كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري



رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رد الخصوم حتى يصطلحوا فإن فصل القضاء يورث بينهم الضغائن»^(١).

وقد قال تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، أي أصلحوا ما بينكم من أحوال الشقاق والافتراق حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق، ليكون المسلمان المتشاحنان متعرضين لمغفرة الله والجنة.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً وفي رواية: تعرض الأعمال في كل يوم خميس واثنين فيغفر الله - عَزَّ وَجَلَّ - في ذلك لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا»^(٢).

أيها المسلمون: لقد اهتم الإسلام بإصلاح ذات البين حفاظاً على وحدة المسلمين، وسلامة قلوبهم، وإن الإصلاح يعتبر من أعظم وأجل الطاعات، وأفضل الصدقات، فالمصلح بين الناس له أجر عظيم، وثواب كريم، إذا كان يتغني بذلك مرضاة الله تعالى، فأجره يفوق ما يناله الصائم القائم، المشتغل بخاصة نفسه، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة»^(٣) ومعنى الحالقة: أي تخلق الدين. فهل يبخل أحد على نفسه بمثل هذا الفضل والأجر في الإصلاح بين الناس؟

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ. قال: تعدل بين الاثنين صدقة. وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه، صدقة. قال: والكلمة الطيبة صدقة. وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة»^(٤).

(١) من تفسير القرطبي (٥/ ٣٨٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٥).

(٣) صحيح أبي داود (٤٩١٩).

(٤) رواه البخاري (٢٩٨٩) ومسلم (١٠٠٩).



قوله: (تعديل بين الاثنين) أي: تصلح بينهم بالعدل.

أيها المسلمون: إن الإصلاح بين الناس تفضل فيه النجوى، وهي السر ودون الجهر والعلانية، ذلك أنه كلما ضاق نطاق الخلاف كان من السهل القضاء عليه، لأن الإنسان يتأذى من نشر مشاكله أمام الناس، فالسعي في الإصلاح يحتاج إلى حكمة، وإلا فإن الساعي أحيانا قد يزيد من شقة الخلاف وحدته، قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

أيها المسلمون: ولأهمية الإصلاح بين الناس رخص فيه الكذب، وذلك إذا كان سبيلا للإصلاح ولا سبيل سواه، عن أم كلثوم بنت عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيمني خيرا أو يقول خيرا»^(١)، قوله: «ينمي خيرا» أي: ينقل الحديث على وجه الإصلاح، وفي صحيح مسلم: قال ابن شهاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ولم أسمعهم يرخص في شيء مما يقول الناس إنه كذب إلا في ثلاث: الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها).

فأما الكذب في الحرب فإن الحرب خدعة، ومن ثم فإن الأمر يستدعي التمويه على الأعداء، ويتحدث بما يقوي به أصحابه ويكيد به عدوه مثل أن يقول جيش المسلمين كبير وجاءهم مدد كثير.

وأما الكذب في الإصلاح بين الناس، فمثل أن يحاول المصلح تبرير أعمال كل من المتخاصمين وأقوالهما بما يحقق التقارب، ويزيل أسباب الشقاق والخلاف، وأحيانا ينفي بعض أقوالهما السيئة فيما بينهما، وينسب إلى كل منهما من الأقوال الحسنة في حق صاحبه مما لم يقله مثل أن يقول: فلان يسلم عليك ويحبك، وما يقول فيك إلا خيرا ونحو ذلك، وأما الكذب بين الزوجين، فقد قال ابن حجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (المراد بالكذب في حق المرأة والرجل إنما هو فيما لا يسقط حقا عليه أو عليها، أو أخذ ما ليس له أو لها). وذلك أن الكذب بينهما قد يحتاج إليه

(١) رواه البخاري (٢٦٩٢).



أحيانا بحيث يخفي كل واحد منهما عن الآخر ما من شأنه أن يوغر الصدور، أو يولد النفور، أو يثير النزاع والفتن، ويزرع الشقاق والإحن، فمثلا لكل واحد منهما أن يخاطب الآخر بمعسول القول ما يزيد الحب، ويسر النفس، ويجمل الحياة بينهما، وإن كان ما يقال كذبا، قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: (كذب الرجل على زوجته مثل أن يعدها ويمنيها ويظهر لها من المحبة أكثر مما في نفسه؛ ليستديم بذلك صحبتها، ويصلح بها خلقها).

أسأل الله أن يجعلنا من الصالحين المصلحين، وأن يوفقنا لحسن العمل وصالح الأخلاق، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي بين سبل الفلاح، ورتب الرحمة على التقوى والإصلاح، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له سبحانه وبحمده بالغدو والرواح، والمساء والصباح، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، جعله الله أسوة في الصلاح والإصلاح، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين سعدوا بالفلاح والنجاح، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليما.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١].

أيها المؤمنون: إن أطيب حياة يعيشها المؤمن والمؤمنة في هذه الدنيا، هي حينما يكون مراقبا لله حسن الطوية لعباد الله. فأصلح - أيها المسلم - ما بينك وبين الله يصلح الله ما بينك وبين الناس، واحذر أسباب الشحنة والبغضاء، وإذا جاء إليك أخوك معذرا فأقبل معذرتة ببشر وطلاقة؛ بل ينبغي أن تسعى أنت إلى إنهاء الشحنة وإن كان لك الحق، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أعقل الناس أعذرهم لهم»، وقال الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (لو أن رجلا شتمني في أذني هذه واعتذر إلي في أذني الأخرى لقبلت عذره)^(١)، وروي أن الحسين بن علي كان بينه وبين أخيه محمد بن الحنفية خصومة - عليهم رضوان الله - وبعد أيام كتب محمد بن الحنفية رسالة ضمنها اعتذاره منه، فما إن وصل الكتاب إلى الحسن حتى قام لساعته وذهب إلى أخيه محمد، فالتقيا في منتصف الطريق، فتعانقا وبكيا وتصالحا.

أيها المسلم: إذا علمت أن بين اثنين من إخوانك أو قرابتك أو أرحامك أو أصحابك أو جيرانك شحنة أو قطيعة، فعليك أن تبذل وسعك وغاية جهدك في الإصلاح بينهما، وإياك أن تتكاسل عن هذا العمل الجليل من أجل الاستماع إلى إيجاعات الشيطان، وأقوال المخذولين الذين يقولون: أنت في عافية فلا تكلف نفسك فيما لا شأن لك به، بل عليك - وأنت تقدر

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٣٤٠).



على ذلك - أن تسعى لإزالة أسباب التفرق والشحناء بين أخويك، فالصلح خير وذلك رحمة بهما وشفقة عليهما وطمعا في فضل الله ورحمته التي وعد بها من أصلح بين الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

قال ﷺ: «إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم»، وذلك لما ينتج عنه من المفسد، ولو لم يكن من شؤم الهجر والقطيعة إلا ما صح عنه ﷺ أنه قال ﷺ: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءٌ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذِينَ حَتَّى يَصْطَلِحُوا».

إن الصلح بين المسلمين من الصدقات التي ينبغي أن يتقرب بها المؤمن كل يوم إلى ربه؛ شكرًا له على أن عافاه في بدنه، كما في الحديث السابق المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: «كُلُّ سَلَامَةٍ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ».

أيها المسلمون: لقد كان لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فلقد كان ﷺ يسعى بنفسه للصلح بين المتشاحنين مؤكداً بذلك أهمية الإصلاح بين الإخوة المؤمنين، فعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ كَانُوا بَيْنَهُمْ شَيْءٌ فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَصْلِحُ بَيْنَهُمْ. حَتَّى أَوْشَكَ أَنْ تَفُوتَهُ صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ، وَفِي رَوَايَةٍ قَالَ: «أَذْهَبُوا بِنَا نَصْلِحْ بَيْنَهُمْ»^(١).

فاتَّقُوا اللَّهَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وتغافلوا عن زلل بعضكم، واسعوا لتقوية النسيج الاجتماعي المسلم، فإن ذلك من مرضي الله، جعلني الله وإياكم من أهل محبته ومرضاته..

اعدلوا بين إخوانكم عند الاختلاف، وتوسّطوا بينهم عند النزاع والبغي، ولا سيّما قرباتكم، ولا تتركوهم للشيطان وقُرْءاء السوء يؤججون بينهم العداوات فيضلّونهم عن سواء السبيل، ويهدونهم طريق الجحيم، أصلحوا بينهم تحفظوا لهم دينهم، وتُحَافِظُوا عَلَى نِعْمَتِهِمْ قَبْلَ زَوَالِهَا، وَتَقُوزُوا مِنَ اللَّهِ بِالْأَجْرِ الْعَظِيمِ وَالثَّوَابِ الْكَرِيمِ. هذا وصلوا وسلموا..

(١) رواه البخاري (٢٦٩٣).